سعيد الشحات

أم كلثوم
وحكام مصر



مكتبة جزيرة الورد

الطبعة الثانية
مزيده ومنقحة

أم كلثوم

وحكام مصر

سعيد الشحات



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : أم كلثوم وحكام مصر

المؤلف : سعيد الشحات

رقم الإيداع : ٤٥٨٤ / ٢٠٠٠

الطبعة ٢٠١٠



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

إهداء

إلى الراحلين أبي وأمي

عاشا للفضيلة..

وما زال ضوؤهما يشع في قلبي.

مقدمة



كنت صغير السن في جلسات للكبار.. لكني شاهدًا علي أمسيات أبي وخالي الكبير عبد الرحمن، وبعض أقاربي فوق سطح دارنا بقرية كوم الآطرون طوخ قليوبية .

كانت أمسيات عامرة بحكايات من السياسة والفن، وتزداد تألقًا كلما كانت الأمسية بغرض الاستماع لأم كلثوم في حفلها المعتاد يوم الخميس الأول من كل شهر ،أو الاستماع لخطاب يلقيه جمال عبد الناصر ، فينتقلون به إلى غد جديد .

شاهدت خالي وهو يقلب النار بيديه مرة وبـ« الماشة » مرة ، لتسوية الشاي علي نار هادئة ، وينتقل من حكاية إلى أخري عن شكل الناس المحظوظة بحضور حفلات أم كلثوم ومشاهدتها عن قرب، ولا يمل من ذكر قصة عمه علي وعم والدتي أيضًا الذي هاجر إلى القاهرة ، وأضرب عن الزواج؛ لأنه لم يجد متسعا في حياته لغير ثلاثة أشياء هي حضور حفلات أم كلثوم واقتناء كل نوادرها الفنية ، وزعامته لمشجعي الأهلي في منطقة لاظوغلي، وعدم التخلف عن حضور مباراة كرة قدم، أو تدريب لفريق الشياطين الحمر ، وحبه لجمال عبد الناصر، وحضور خطاباته السياسية التي كان يلقيها أمام الجماهير ، ولما مرض مرضه الأخير سافر خالي لزيارته فوجده في غيبوبة ، يصحو منها ثم يعود إليها ، وفي أذنه همس خالي :« شد حيلك يا عم علي علشان حفلة أم كلثوم بكرة » ، فانتفض قائلا :« بتقول فيها يا واد يا عبد الرحمن .. أنا بقي هروح الحفلة غصب عنكم » . يستكمل خالي :« قام عمي علي زي العفريت ، وقعد يغيب ويصحا لحد وقت الحفلة ، وقلنا له اسمعها المرة دي في الراديو ، علشان انت تعبان ، وربنا هداه ، كان بيسمع شوية ، ويغيب شوية ..وشوف الرجل ..بعد ما سمع الحفلة اتكل علي الله ومات ».

كانت حكاية الجد علي واحدة من عشرات، بل مئات الحكايات التي استمعت إليها في أمسيات الليل علي سطح دارنا ، وكان خالي بطبيعته حكاء خصب الخيال ، ولديه قدرة فائقة علي الانتقال بسلاسة من حكاية إلى أخرى ، وكانت حكايات السياسة تتشعب من أحوال جبهات القتال ضد إسرائيل وشهداء قريتنا ، إلى أخبار

جمال عبد الناصر، وحكايات عنه أشبه بالأساطير، ثم ما ذكره الراديو من مقال «بصراحة» - للكاتب الكبير محمد حسنين هيكل - والذي كانت الأهرام تنشره كل جمعة، ويتم قراءته في الراديو.

كان الراديو جسرهم إلى العالم.. أما جلساتهم فكانت عندي العالم كله..

* هل كان هذا هو البدء عندي نحو حب جمال عبد الناصر وأم كلثوم؟..

ربما، فمخزون ذكرياتي من بيئتي الأولي الغنية بالتفاصيل الهامة ،يرشدني إلى ما كنت أنقله من حكايات أمسيات الليل إلى زملائي التلاميذ في المدرسة.

كما يرشدني لحكايات أخرى عن خالي الثاني الذي عرف طريقه إلى حفلات أم كلثوم بزيه الفلاحي الأنيق، وحديثه عن بكاءه المر ومشاهدته لبكاء الحاج حسنين فراج أحد وجهاء وأعيان قريتنا، وهما يحضران حفلتها التي شدت فيها بأغنية: «حسيبك للزمن.. لا عتاب ولا ندم»، «وحكايات العم محمد القاضي والد صديق الصبا والشباب مجدي ، عن كيف حضر حفلة أغنية « الحب كده » ، وخرج بعدها متجولا في شوارع القاهرة وهو يشعر أنه كالطير في السماء » ، وحكايات من عمدة قريتنا الراحل الحاج عزت عبد الحفيظ عن حفلاتها وانتظامه في حضورها ،وأكثر ما ندمت عليه في هذا المجال، أنني لم أسجل ما رواه لي هذا الرجل الفذ ، ...« ولا أنسي يوم وفاتها الذي تصادف مع يوم وفاة الجد الحاج عبد الباسط فايد ، فعاشت قريتنا حزنا إضافيا ، عرفته من وجه أبي وكلامه ، وبقيت هذه الذكريات نبضا ينعش أحاسيسي دائما ، واستدعيه من عالم قريتي الذي كان جسري الأول نحو معرفتي بهذه السيدة العظيمة ،كما أنه كان العالم الأكثر دلالة علي كيف شكلت هي وجدان كل قري ومدن مصر» .

والمؤكد أن كل هؤلاء كانوا في ذهن نجيب محفوظ، وهو يقول في رواية «ميرامار»: «ليلة غنائها هى ليلة جميع الطبقات، والأفراد، وصوتها علامة عصر

بأكمله».

عرفت فيما بعد أن جلسات الكبار على سطح دارنا.. كانت تعبيرًا عن حالة جماعية يعيشها الوطن العربى من محيطه إلى خليجه، فحين كان جمال عبد الناصر يلقي خطابًا سياسيًا، تتوحد كل موجات الإذاعة في الوطن العربى، منضبطة على ما سيقوله لتستمع الجماهير إلى من امتلك ناصية قلوبهم، وامتلك قدرة سحرية على صياغة أفكارهم وسلوكياتهم.

أما أم كلثوم، وكما قالت مجلة «لايف» الأمريكية عام ١٩٦٢م: في الساعة العاشرة ليلة الخميس الأول من كل شهر، يحدث شيء غريب في الشرق الأوسط.. يهدأ الضجيج في شوارع القاهرة فجأة، وفي الدار البيضاء التى تبعد ٢٥٠٠م ميل إلى الغرب، يكف الشيوخ عن لعب الطاولة في المقاهى، وفي بغداد التى تبعد ٨٠٠ ميل إلى الشرق، يحدث نفس الشيء. الكل ينتظرون برنامجًا معينًا تذيعه إذاعة القاهرة، مدة هذا البرنامج خمس ساعات، ويذاع ثماني مرات في السنة، ونجمته مطربة اسمها أم كلثوم.

سالت هذه الذكريات وأنا أبحث عن مادة هذا الكتاب، وكنت أعتزم في البداية أن أخصصه فقط عن علاقة جمال عبد الناصر، وأم كلثوم لأسباب كثيرة لخصها شيخ الرواية العربية نجيب محفوظ بقوله لبرنامج تليفزيوني فرنسي عنها: «أعطى عبد الناصر لغنائها معنى جديدًا»، لكن نصيحة تلقيتها من الكاتب الصحفي الكبير عادل حمودة، بأن أتوسع ليكون المجال هو علاقة أم كلثوم بحكام مصر التي عاصرتهم، وهي النصيحة التي جاءت في محلها تمامًا.. فأم كلثوم التي ولدت في قرية طماي الزهايرة - محافظة الدقهلية - في نهاية القرن الـ١٩، أو مطلع القرن العشرين وتوفيت في ٤ فبراير عام ١٩٧٤م عاصرت ثمانية حكام رسميين لمصر، فمولدها كان في عصر عباس حلمي الثاني (١٨٩٢ -١٩١٤م)، وبدأت مسيرتها الفنية وهي

طفلة وكان ذلك في نهايات عصر عباس حلمي الثاني ، ومن بعده جاء السلطان حسين كامل حاكمًا لمصر (١٩١٤ -١٩١٧م) ثم السلطان أحمد فؤاد، والذي تحول إلى الملك فؤاد الأول ، وبلغت فترة حكمه سلطانًا وملكًا من ١٩١٧م حتى عام ١٩٣٦م، وانتقلت أم كلثوم إلى القاهرة في السنوات الأولى لحكم السلطان فؤاد ، وبعد الملك فؤاد جاء ابنه الملك فاروق الأول (١٩٣٦ -١٩٥٢م)، وفي عهده تربعت علي عرش الغناء .

قامت ثورة يوليو عام ١٩٥٢م وقررت خلع الملك فاروق ،وأسندت الحكم إلى أحمد فؤاد ابن الملك فاروق ، ولأنه طفلا تشكل مجلس وصاية عليه برئاسة الأمير محمد عبد المنعم من عام ١٩٥٢م حتى عام ١٩٥٣م .

انتقلت مصر بعد ذلك إلى الحكم الجمهوري فتولي محمد نجيب من ١٩٥٣م حتى ١٩٥٤م ، ثم جمال عبد الناصر من ١٩٥٤م حتى عام ١٩٧٠م، ثم أنور السادات من عام ١٩٧٠م حتى عام ١٩٨١ ورحلت أم كلثوم في عهده عام ١٩٧٤م .

ثمانية حكام لمصر في كل حياة أم كلثوم ،ولهذا فإن سيرة هذه السيدة - كما يوضح هذا الكتاب - هي سيرة وطن في مراحل تاريخية امتدت لعشرات السنوات في القرن العشرين، وشهدت هذه السنوات تحولات هائلة في المسارات 'السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، وانتقلت مصر والمنطقة العربية من حال إلى حال، ولم تكن أم كلثوم بعيدة عن كل هذا، بل انغمست انغماسًا مباشرًا في أحداث وتفاعلات سياسية هامة أكدت على تمازج الفن بالسياسة.

وتأتي هذه الطبعة الجديدة لتضيف وقائع على ما جاء في الطبعة السابقة، وتعطي مساحة متسعة عما جاء في الطبعة الأولي حول مراحل أم كلثوم في عهود السلطان حسين كامل، والملك فؤاد، والملك فاروق، كما تصحح بعض الأخطاء، وتدقق

بعض الأحداث التاريخية. كما رأيت أن أزوده في نهايته بنص مقالها الكامل الذي كتبته عن جمال عبد الناصر في ذكرى رحيله الأولى عام ١٩٧١م والحصيلة ليست تأريخا لسيرة أم كلثوم، وإنما محاولة البحث في كيفية تفاعلها مع المراحل السياسية التي عاشتها.. وكيف تعاطت مع من حكموا الشعب المصري وهي منه؟ وكيف نظر إليها هؤلاء الحكام؟ وكيف انعكست هذه العلاقة على مشروعها الفني؟

أسئلة كثيرة يحاول هذا الكتاب البحث عن إجابة لها، وذلك بالعودة إلى المراجع، والاستماع إلى شهادات شخصيات اقتربت من أم كلثوم ليعطي كل ذلك صورة، اجتهدت في نقلها قدر الإمكان بما فيها من تداخل بين الفن والسياسة، وتقارب الأشخاص وتباعدهم، والمعاني الإنسانية التي تفاعلت تحت السطح، وفوقه لتؤكد أننا أمام بشر هم قطعة من لحم ودم هذا الوطن، واتبعت أسلوب «الفلاش باك» في الكتابة .

و أتقدم بالشكر إلى كل الذين شجعوني لإنجاز هذا الكتاب، وزودني بنصائح بعد قراءة الطبعة الأولى ، ولا أنسي نصيحة الكاتب الكبير، والمترجم الرفيع الأستاذ محمد الخولي الذي قال لي بعد قراءته للطبعة الأولى: أنه يتمنى أن يرى الطبعة الثانية مرجعا شاملا عن أم كلثوم ، وأتقدم بالشكر إلى زوجتي وأبنائي الذين تحملوا انصرافي عنهم لإنجاز هذا الكتاب .

سعيد الشحات

كوم الآطرون ـ طوخ ـ قليوبية

١٤ أكتوبر ٢٠١٠م

1

عبد الناصر:
أم كلثوم دي بنت جدعة



غير معروف عن أم كلثوم تصديها لكتابة مقالات صحفية.. لكنها كتبت مقالا في أكتوبر عام ١٩٧١ م، عبرت فيه أشياء كثيرة نحو جمال عبد الناصر، وخصت به مجلة ثقافية هامة هي مجلة الهلال، كان المقال بمناسبة مرور عام على رحيل عبد الناصر، واحتوى على تعبيرات مثل: «معلمى، أستاذى، تعلمت منه».. غير أنه يكشف عن أول مرة التقت فيها بعبد الناصر، تقول: «لا أزال أذكر أجمل الذكر.. المرة الأولى التي رأيت فيها جمال عبد الناصر ،كان ذلك في عام المأساة الكبرى في تاريخ الأمة العربية، مأساة فلسطين سنة ١٩٤٨.. حيث هبت مصر للذود عن الأرض السليبة، وذهب الجيش إلى هناك، وكان على أبواب النصر، لولا أن دبرت له الدول الكبرى المؤامرة التي انتهت بخدعة الهدنة الأولى، ثم الثانية، فانقلب النصر إلى هزيمة، وحوصر أبناؤنا في الفالوجة حصارًا قاسيًا مريرًا أبدوا خلاله ألوانا أسطورية من البطولات في الصمود في وجه العدو، كانت مثار إعجاب العالم».

تابعت أم كلثوم ككل المصريين أخبار ما يحدث في فلسطين، وخاصة حصار الفالوجا، وما فعلته الكتيبة المصرية فيه من بطولات بقيادة الضابط السيد طه الذي اشتهر باسم «الضبع الأسود».. تضيف أم كلثوم في مقالها بالهلال:

«كنت أتتبع أنباء إخوتي، وأبنائي أبطال الفالوجا يوم بيوم، وساعة بساعة، وقلبي معهم يخفق لهم في كل لحظة، ويضرع إلى الله أن يؤيدهم في صمودهم العظيم، إلى أن يردهم إلينا سالمين، واستجاب الله الدعاء، وعاد أبطال الفالوجا إلى القاهرة، وعلى رأسهم قائدهم البطل - المرحوم السيد طه - ودعوتهم جميعًا، جنودًا وضباطًا، إلى حفل شاي في بيتي، ووجهت الدعوة كذلك إلى وزير الحربية (حيدر باشا) في ذلك الحين الذى اتصل بى معتذرًا عن عدم استطاعته تلبية الدعوة، وأضاف أنه لا يرى ضرورة لدعوة الجنود والضباط أيضًا»

استغربت أم كلثوم منطق حيدر باشا ، وقالت له:

«لقد وجهت إليهم الدعوة، وانتهيت، وسأكون سعيدة بهذا اللقاء، فإذا شرفتنا بالحضور فأهلًا وسهلًا، وإذا لم تستطع فهذا شأنك ».

وتضيف أم كلثوم:

جاء الأبطال إلى بيتي، واستقبلتهم بدموع المصرية الفخورة بأبناء مصر، وجلست بينهم، وأنا أشعر أنهم أسرتي.. صميم أسرتي.. إخوتي وأبنائي.

وأذكر يومئذ أنني أقمت لهم في حديقة البيت محطة إذاعة صغيرة، تذيع عليهم ما يطلبون من أغنياتي، وقدم لي «الضبع الأسود» ضباطًا وجنودًا واحدًا واحدًا.. وحدثني عن أصحاب هذه البطولات، وكان من بينهم الضابط الشاب جمال عبد الناصر، وشددت على يده، وأنا أصافحه، وأتأمل في عينيه من بريق الوطنية...وحدة العزم.. وعمق الإيمان، وكان هذا هو أول لقاء لي بالبطل قبل أن يلعب دوره التاريخي في حياة مصر بأربع سنوات.

قصة هذا اللقاء الذي أوردته أم كلثوم في مقالها... سبقته مقدمات أدت إليه، يرويها سعد الدين وهبه قائلاً:

كانت أم كلثوم مهتمة جدًا بحرب ١٩٤٨م، وتتابع أخبارها من الصحف التي تعودت على شرائها في هذه الفترة ساعة الفجر، وتسبب هذا – كما روت لي – في مرضها الأول.. وكان لمشاركة ابن أختها كضابط في الجيش في هذا الحرب سببا إضافيا لاهتمامها..وأثناء حصار الفالوجا، غلب اليأس الجنود والضباط نتيجة عدم استجابة المسئولين في مصر لأي مطلب من مطالبهم الخاصة بالقتال، فقرروا كتابة رسالة إلى أم كلثوم يطالبونها بتقديم أغنية «غلبت أصالح في روحي».. وكان عبد الناصر هو صاحب الاقتراح.. ولما تشكك الضباط في تلبيتها لهذا المطلب، رد عليهم: لا.. «هتغني أصلها بنت جدعة».

تلقى حيدر باشا مطلب الجنود والضباط المحاصرون بدهشة بالغة ، ولعجزه

عن تلبية مطالبهم العسكرية، لم يكن أمامه سوى توصيل ما يطلبون إلى أم كلثوم. التف الضباط والجنود المحاصرون حول الراديو وضبطوا الموجة الإذاعية التي تبث حفلها الشهري المعتاد، وترقبوا ما إذا كانت الرسالة وصلتها أم لا ؟، وهل ستستجيب لمطلبهم أم لا؟، وكانت المفاجأة في أغنيه «غلبت أصالح»، بالإضافة إلى أغنية «أنا في انتظارك».. فرح المحاصرون، وشعروا في هذا الوقت أن في مصر من يستمع إليهم، ويحس بنبضهم ويلبي مطلبهم، ويخصهم بشئ ما.

بعد الخطاب، ثم اللقاء، مضى كل منهما إلى طريقه،عاد جمال عبد الناصر من الفالوجا إلى مصر بقناعة أن تحرير فلسطين يبدأ من تحرير القاهرة، وبحث في الأرض وهو في الظل عن بذور التغيير، فكان تنظيم الضباط الأحرار، ومضت أم كلثوم إلى فنها، ينتظرها الجمهور كعادته الخميس الأول من كل شهر، انتظارًا وصفه الشاعر كامل الشناوي: «أصبح لدينا تقويمًا جديدًا،اسمه تقويم السنة الغنائية، أو الشهر الغنائي يبدأ ليلة حفل أم كلثوم».

كان الغليان الشعبي ضد الأوضاع السائدة يقترب من نقطة الانفجار، وبلغ الكفر بالأحزاب الموجودة مبلغًا كبيرًا ، ويصف المؤرخ طارق البشري الفترة التي عانت فيها الحياة المصرية من إلغاء معاهدة ١٩٣٦م في يناير ١٩٥٢م: «لم تستطع التيارات السياسية الشعبية وتنظيماتها أن تتجمع سريعًا في شكل من أشكال الجبهات التي يمكنها تجميع الرأي العام السياسي وراء الأهداف المتفق عليها، ويوم حريق القاهرة نفسه كادت مصر أن تكون بغير سلطة، وانفلت زمام الأمور، ورغم ذلك لم تستطع التنظيمات القائمة مجتمعة أو متعددة أن تلتقط أيًا من أطراف السلطة الملقاة طريحة، وقد لوحظ في تلك السنوات الأخيرة، أن ما بين العناصر غير الحزبية من الوطنيين تيار يفتش عن «الرجل»، و«القائد» «الزعيم»، بل ينادي جهرًا بحثًا عن «الديكتاتور» ـ الذي تحتاجه مصر، وزاد هذه الاتجاه نموا بعد انكسار التنظيمات

الشعبية الذي أعقب الحريق، وحتى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م».

وإذا كان الوضع السياسي علي هذا الحال ، فكيف كان وضع الأغنية ؟.

كانت الأغنية تعيش آنذاك محنتها، شأنها في ذلك شأن الوطن، وبدأت ذروة المحنة مع الحرب العالمية الثانية.

يقول الموسيقار محمود الشريف في مذكراته:

«ترددت قبل الحرب على بعض المسارح في «روض الفرج»، ومسرح علي الكسار، والتى تحولت بعدها كلها إلى كباريها للترفيه عن جنود الحلفاء، وتغير كل شئ... الأفاقون، والسماسرة والعربجية الذين يتعاملون مع جيوش الحلفاء، تحولوا إلى أثرياء حرب، وتحول الفن إلى سوق رخيص، وتحولت معه، جامعات السبارس إلى راقصات، ومطربات ومنولوجست، ولم يبق سوى عبد الوهاب، الذى لزم الصمت، وتوقف عن العمل إلا فيما ندر، صار الفن ملهاة للجنود في الكباريهات، واشتقت كل الأغنيات من صلب «أحبك يا جوني»، وانتقل أثرياء الحرب من باب اللوق والشعرية إلى الزمالك، وجاردن سيتي، لتصبح القاهرة كباريه كبيرًا».

يضيف الشريف: «تأكد لى سخف الأغاني التي كانت تردد اسم فاروق (الملك) بالحب، والإجلال والتكريم، بينما الجماهير تهتف بسقوطه في شوارع القاهرة والإسكندرية، وتكشف لى أن الجماهير كانت في طريق، والقادة، والمغنين في طريق آخر بعيدًا عن الناس، وعما يعتمل في نفوسهم».

ويقول الموسيقار كمال الطويل:

شهدت مصر في الأربعينات من القرن العشرين مجموعة أصوات عظيمة.. عبد الغني السيد، كارم محمود، وغيرهما من الأصوات الجميلة..ورغم جمال هذه الأصوات، إلا أن أصحابها تأثروا بالمناخ الاجتماعي الذي أفرزته الحرب العالمية الثانية.. ففي زمن الحرب ينقلب الهرم، بحيث يصعد البعض فوق التل مثل تجار

بضاعة «القُرنص»، أو مخلفات الحرب.:. ومع الثراء المتولد من هذه التجارة، يحتاج الأثرياء الجدد إلى ما يناسبهم من الفن، كنمطِ أغاني «يا شبشب الهنا».. هذا النوع من الأغاني كان يحتاج إلى راقصة مع تقديمها لزوم الذوق الجديد.. هناك أسماء لم تنخرط في هذه الموجة، لكن تظل السمة العامة لهذا الجيل في هذه المرحلة هي التأثر بجو الملاهى الليلية.

يتداخل في هذه اللوحة السياسي بالفني، ويتحدد فيها موقع جمال عبد الناصر بتصديه لتأسيس تنظيم الضباط الأحرار، لكن السؤال، أين كانت أم كلثوم من هذه اللوحة؟

لا نستطيع القول أن أم كلثوم وسط هذه الأمواج أخذت بأغنيتها نهجًا ثوريًا مقاومًا بالمعني المباشر للثورية والمقاومة،لكنها وكما يقول محمد حسنين هيكل:

«كانت واحدة من مجمل الأسماء التى تحولت القاهرة بفضلها من أواخر القرن (١٩) إلى بداية النصف الثاني من القرن العشرين إلى عاصمة عربية من غير جهد سياسى، من عمل الشعراء، من جبران لغاية شوقي إلى مطران.. أي مرحلة النهضة.. أم كلثوم، وعبد الوهاب والكتاب: توفيق الحكيم، طه حسين، العقاد، وأضيف إليهم من الشام ومن لبنان ميخائيل نعمية، وبشارة الخوري».

ويقول كمال النجمى:

« انتقلت أم كلثوم من غناء «إيه أسمى الحب».. و«الأولة في الغرام والحب شبكوني» و«كل الأحبة اثنين»، و «أنا في انتظارك».. انتقلت من هذا الغناء العربي الشعبي على جماله وطلاوته وارتفاع مستواه إلى مرحلة القصائد الشوقية الباذخة».

لم تكن أم كلثوم ثورية بالمعنى الدارج للكلمة، ولا سياسية بنفس المعنى. لكن معرفة البيئة التي ولدت فيها، والمناخ الذي تربت فيه يلقي ضوءًا كاشفًا على اختيارها لمواقفها ومفسرًا لانتمائها، فهي ولدت لأسرة فقيرة في قرية طماي الزهايرة

بمحافظة الدقهلية، وهناك خلاف على تاريخ مولدها. ويذكر الشاعر أحمد عنتر مصطفى مدير متحف أم كلثوم، أنه خلال جمع المقتنيات الخاصة بالمتحف كانت لدى المرحوم محمد الدسوقي عميد أسرتها أربعة جوازات سفر نل منها تذكر تاريخًا غير الآخر في خانة تاريخ الميلاد، ويضيف: «بالرغم من أنني قمت باستخراج مستخرج شهادة ميلاد من السنبلاوين محافظة الدقهلية يذكر أن تاريخ الميلاد ١٩٠٤م (الرابع من مايو)، إلا أن الإجماع، وكبار أفراد الأسرة يؤكدون مولدها قبل ذلك بست سنوات أي: عام ١٨٩٨م، وأرجع أحمد عنتر مصطفى هذا الاختلاف إلى أن مصر في ذلك الزمن البعيد لم تكن بها سجلات للمواليد، وعندما حضرت أم كلثوم إلى القاهرة واقتضاها الأمر أن تستخرج أوراقًا رسمية ،وكلما طلب منها ذلك كاستخراج جواز السفر مثلاً، يقوم أحد الأطباء بتسنينها أي: وضع سن افتراضي لها ، ومن هنا جاء الاختلاف في تاريخ الميلاد، وفي المتحف جوازات من الجوازات المستخرجة لها، أحدهما يحمل تاريخ ميلاد عام ١٩٠٣م، وآخر يحمل عام ١٩٠٨م.

كان والدها الشيخ إبراهيم السيد البلتاجي (المتوفى عام ١٩٣٢) إمام مسجد القرية ومؤذنها، ووصفه الموسيقار الشيخ زكريا أحمد عندما التقاه لأول مرة في محافظة الدقهلية عام ١٩١٧م بأنه «رجل قوى الإيمان شديد التقوى»، أما أمها السيدة فاطمة المليجي التي توفيت عام ١٩٤٧م فتولت رعاية الأطفال، أم كلثوم، وأختها سيدة والتي كانت تكبرها بعشر سنوات، وأخيها خالد، والذي كان يكبرها بسنة واحدة، ووصفت أم كلثوم والدتها بأنها كانت سيدة تعيش حياة بسيطة، وتغرس في أطفالها الصدق، والتواضع، والإيمان بالله.

بدأت أم كلثوم طفولتها بالمعاناة والشقاء، ويظل هذا مفتاحًا لفهم فنها ودورها، كما أنها وضعت دائمًا كل جوانب معاناتها نصب أعينها، والرجوع إلى فصول من مذكراتها المنشورة في صحيفة الجمهورية عام ١٩٧٠م بقلم ابن شقيقتها محمد

الدسوقى والكاتب الصحفي صلاح درويش، يكشف كثيرًا عنها كإنسانة، وكفنانة بسيطة لم تغادر قريتها ـ طماي الزهايرة ـ رغم ما وصلت إليه من مجد.

تقول:

«اتحرمت من كل حاجات البنت اللي في سني، الهدوم الملونة الزاهية، أم نص كم، ما كنتش ألبس في هذا الوقت ده غير «الجلابية» «اللى كانت بتجرجر في الأرض اللي لونها حشمة»، ولو خرجت لازم ألبس الطرحة،ما كنش بيبان مني، غير وشي بس».

وتضيف:

«كانت الأيام دى هية الفترة اللى تعلمت فيها كل شيء؛ لأنني ما تعلمتش في مدرسة.. أو تخرجت من جامعة.. المدرسة التى تعلمت فيها.. هية الأزقة والحوارى والأجران.. أتعلمت كتير من الفترة دى.. اتعلمت الصبر من الناس الفلاحين والغلابة.. اللى باشوات زمان وبهاوتها..كانوا بيذلوهم ويستعبدوهم، ومع كده كان الناس دول برضه... صابرين..زى ما كانوا عارفين إن الليل لازم يطلع له نهار.. وإن الظلم مش حيدوم أبدًا.. كنت باشوف الناس الغلابة دول صابرين.. بيشتغلوا..ويعرقوا.. و... البيه والباشا.. يأخذ خير البلد، وخير الأرض.. كنت دايما بأرفع إيديه للسما... وأقول يا رب لأنه ما كانش فيه غيره، يقدر يقف جنب الغلابة الفلاحين في الأيام دي.. في الفترة دي برضه تعبت كتير.. وقاسيت أكتر.. ياما غنيت في عز البرد...و«النطرة» عماله ترخ على المكان اللى باغني فيه.. كانت الناس تجري تستخبى..وأنا وأبويا.. قاعدين على الدكة لغاية ما يجي صاحب الفرح أو الليلة، يوقفنا، وندخل أقرب بيت من البرد و«النطرة ».

وتتذكر أم كلثوم ما كان يحدث أيام الحرب العالمية الأولى وما فعلته السلطات المصرية والاحتلال الإنجليزي من ممارسات وحشية ضد الشعب المصري، وظلت

هذه الممارسات عالقة في ذهنها لا تفارقها أبدًا، تقول:

«كان منظر الشبان اللى بتاخدهم « السلطة » بالعافية، يقطع القلب ويحسره..بعض العمد والمشايخ يسلموهم..كان الإنجليز يجروهم مربوطين في حبال من البلد لغاية محطة السكة الحديد.. كان بيركبوهم في عربيات (الحيوانات)... ما كانش فيه عناية بأكلهم، ولا شربهم، ولا صحتهم.. معاملة قاسية قوي! ما كانش فيه يوم بيمر حتى يكون في كل شارع (ميتم) لواحد من اللي خدتهم السلطة!!»

«ما كانش ده هو كل ظلم الإنجليز، لكن كان لهم حاجات تانية متقلش في فظاعتها عن (السلطة).. الغلة بتاعة الناس والمواشي..كانوا يأخدونها منهم بأقل من سعرها العادي.. فرضوا على كل مركز من المراكز، مقدار من (الغلة) يتورد للجيش الإنجليزى بثمن رخيص جدًا، وعلشان يوفي كل مأمور بالمطلوب منه.. كان العمد والمشايخ بيرغموا الأهالي على تقديم أكثر من (الغلة) اللي عندهم..كتير من الفلاحين الغلابة كانوا بيضطروا لشراء الباقي بسعر السوق، ويقدموه للإنجليز بالثمن رخيص.

وتصف أم كلثوم بلدتها وأهلها:

«كل الناس اللى كنا عايشين معاهم في البلد (طماي الزهايرة) طيبين.. الحب مالي قلوبهم...ما فيش حد على حد..الواحد من غيطه للجامع، عمري ما شفت وأنا صغيرة دخلتها عربية -أوتوموبيل- كل ما بنشوفه من بعيد حنطور.. بتاع حضرة العمدة بحصان واحد.. ما كانش فيه في البلد غير شارع واحد يمشي فيه «الحنطور».. و«شوية» حواري وأزقة تتسع يدوب لحمار شيخ الغفر، والغفر، وهم خارجين...من الدوار..».

لم تكن أم كلثوم تعي أي شيء عن بلاد غير قريتها الصغيرة، بل كانت تتخيل أنها كل العالم!!

«كنت وأنا صغيرة.. فاكرة أن بلدنا هية كل الدنيا..وإن ما فيش بلد تانية أحسن من مركز السنبلاوين»....أما «مصر» فدي ما كنتش أقدر أتخيل شكلها إيه..كنت فاكره إن البحر هوه الترعة اللى بيعوم فيها البط والوز عند أول البلد، والساقية اللى بتطلع الميه، والمسقى اللى فى الغيط.. كل دى هيه الحاجات اللى عنيه اتفتحت عليها في «طماي الزهايرة».

«عارفين إيه الحاجات اللى كانت تعجبني وأنا صغيرة في البلد..منظر فيضان النيل في الترعة.. ساعتها بيبقى الحشيش طالع أخضر من وسط الميه... أهو ده المنظر اللى بيفرحني صحيح...لغاية دولقت باحن إليه..فأركب «عربيتى».. وأروح لغاية «القناطر الخيرية».. خصوصًا أيام الميه بتاعة الفيضان اللى لونها بني... موش رايقة.. تصوروا المنظر ده لو قعدت قدامه ساعات ما أزهقش؛ لأنه بيذكرني بطفولتي التي أعتز، وأفتخر بها حتى اليوم».

أما أكلتها المفضلة في الطفولة.. وظلت كذلك حتى آخر يوم في حياتها. فكانت «السريس»، وهو نبات يطلع في البرسيم، و«الجبنة القريش».. وهى نفس الأكلة التى تعود الفلاح المصري على تناولها في الظهيرة وتتكون من «السريس»، و«الجبنة» والطماطم والمخللات، وتكون بمثابة الوجبة السريعة له.

تقول أم كلثوم:

«لغاية النهاردة (١٩٧٠م)..لما أروح البلد.. لازم يكون جنب الأكل مهما كان نوعه..أكلة الطفولة المفضلة.. وهى السريس والجبنة القريش..الأكلة اللى أسيب الحمام أو أى نوع من الطيور وأكلها.. صحتي لغاية دلوقتي بتيجي عليها، لدرجة أن أي واحد من البلد أعرف إنه جاي مصر..أطلب منه يجيب معاه هذه الهدية اللى باعتز بها حتى النهارده..وأحتفظ بالهدية لنفسى..ولا يشاركني فيها أحد.. الأكلة دى.. بتفكرني النهارده بأيام ما كنت في بداية الطريق.. بتذكرني بالأيام.. اللى

مسحت فيها بقدمي الصغيرتين القطر المصري قرية قرية.. بل كفر كفر، وعزبة عزبة..مشيت في السكة الزراعية المليانة تراب..حتى عرفت كل شئ عن كل بلادنا وناسها الطيبين.. وطباعهم... وعاداتهم.. وعلى فكرة... كانت أيام.. العرق فيها حلو والتعب فيها كويس.. ما كنش يهمني المشي.. مهما كانت المسافة ما كانش فيه توصيلة في أغلب الموالد والأفراح..غير «الركوبة».. يعني «الحمار».

و«كان عندنا «ركوبة» واحدة.. كان «أبويا» الله يرحمه، يركب قدام وأنا وراه..وأخويا الشيخ خالد في الآخر..وعندما يحس «أبويا» بتعب «الركوبة» أنزل وأمشي مع أخويا.. لأنني صغيرة أستحمل المشي...ومش معقول أركب وأبويا يمشي.. ولم يطل بنا الوقت.. فاشترينا «ركوبة» ثانية.. ليه أنا والشيخ خالد.. ثم اشترينا «ثالثة»، فأصبح لكل واحد فينا «ركوبة»..

«لما كنا نسافر في السكة الزراعية.. كان أبويا في الأول وأنا في الوسط، وأخويا في الآخر.. ومعانا.. أصحاب الفرح.. أو المولد.. كل سفرياتنا دايمًا في عز الظهر.

تضيف أم كلثوم:

«وقبل ما كنا نشتري «الركايب» كان أصحاب الفرح يبعتوا لنا «الحمير» علشان نروح بيها.. إذا كانت البلد قريبة..وياما بعد ما كنا نخلص الفرح أو الليلة..يسيبونا نرجع إلى «طماي» على رجلينا.. لكن برضه كان فيه ناس طيبين يوصلونا لغاية البلد كنت أغني لهم في السكة واحنا ماشيين علشان ما يندموش على توصيلنا.. وعلشان يرجعوا البلد يقولوا كده.. فيعمل الباقون زيهم».

«ولما كان الفرح يبقى في بلد بعيدة..كنا بنركب «القطر» في درجة ثالثة طبعًا..وأول ما يتحرك..آخذ أبويا وأخويا ونروح على درجة ثانية.. ولما الكمسارى بيجي ويشوف التذاكر.. أتحايل عليه يسيبنا... من زحمة.. درجة ثالثة..ولما يعرف إني البنت اللى بتغني في الموالد والأفراح يسيب «القطر»، وبيجي هو وزمايله يقعدوا

في الديوان معانا... وأغني لهم طول السكة ما كنتش أسكت إلا لما «القطر» يقف في المحطة «.. والحقيقة ما كانتش الزحمة السبب في «قعادنا» في «البريمو»، وإنما علشان الناس اللى مستنين في محطة البلد اللى انا رايحاها.. يشوفونا نازلين من «البريمو» فاحترامهم لنا يزداد.. ونكبر في عنيهم».

وتتذكر أم كلثوم:

«في سنة ١٩١٩م.. لما أجرى بقى ٨ و ١٠ جنيه.. كنت أقطع أنا واللى معايا.. تذاكر في البريمو..وكنا نقابل صعوبة كبير في استعمال «القطار».. ما كانش فيه قطارات كتير زي دي الوقت.. كان يدوب «قطارين»، أو «ثلاثة» كل ٢٤ ساعة.. ده خلانا نقعد على المحطة بالساعات في الصيف ما كنش يهمنا... أما في الشتا.. كانت الدنيا.. برد وأمطار.. فكان أبويا يروح لناظر المحطة.. يتحايل عليه.. ويجيب منه مفتاح الاستراحة..وساعات كنا ندخل مكتب «المعاون» أو «الناظر» ويولع لينا.. وأقعد أنا أغني لغاية «القطار» ما ييجي..وياما من الحكايات دي كتير».

وتتذكر أم كلثوم بعضًا من معاناتها الصعبة والقاسية وهي تغني في ليالي الأفراح القاسية في قرى ومراكز محافظات الوجه البحري:

«يا ما كنا بنروح ليالي وأفراح.. وأشوف الويل والغلب فيها...مرة كنت هاموت قتيلة بحق وحقيقي..وأنا واقفة باغني في دوار عمدة بلدة جنب مركز «أجا» (محافظة الدقهلية) بصيت لقيت واحد سكران طينة.. وواقف بيشاور ليه... ويقول:

«يا أختي إنتي.. عايزين حاجة فرايحي..عايزين شوية فرفشة ونعنشة.. عايزينك تقولي لنا: كام موال.. وكام ياليل..وكمان كام ياعين.. موش كده يا جماعة»..مبصتش له.. وفضلت أغني زى ما أنا ماشيه..وبعد الناس ما قعدوا وقف تاني.. وقال نفس الكلام.. بصيت لأبويا وأخويا... وللناس اللى في الليلة.. في

الحقيقة كنت باستنجد بيهم.. علشان يخلصوني من الشخص ده.. ولما هبوا فيه راح مطلع مسدس من جيبه.. وقال أنا ها موتكم كلكم يا أولاد... ولو البنت دى لو مغنتش زى ما أنا عايز... أغلب الناس جريت.. وسابوا الليلة.... وسمع العمدة «الزيطة» والصراخ في الدوار... وسأل إيه الحكاية.. فأشاروا على ابنه اللى كان موجه ا لمسدس ليه... وأبويا عمال يتحايل عليه.. ويحلف له حاغني كل اللى هو عايزه.. وجرى «العمدة» ناحية ابنه.. فرمى المسدس من ايديه... وحاول أن يزوغ.. ولكن أبوه نزل فيه ضرب.. وبعد كده برضه.. كملت الليلة..والناس رجعت تاني.. ومنع العمدة ابنه من النزول من البيت في الليلة دي».

«حكاية تانية حصلت لى.. عند طنطا.. قبل ما تبدأ الليلة.. سألت صاحبها.. «فرح.. ولا ليلة لله».. فقال: لو جيتي للحقيقة لا دي ولا دي.. أنا بصراحة ربنا.. عاملها أجْرْ رِجلين أهل البلد اللى جانبينا.. أصلنا متخانقين معاهم.. وعايزين نضربهم.. وكل اللى أنا عايزه منك أنت والناس اللى معاك لما تشوفي الخناقة اشتغلت.. ادخلوا الأودة(الحجرة) اللى أنا فاتح عليها باب من «الشادر»... وخلوا بالكم من نفسكم... وأنا خالي من ذنبكم بعد كده.... وغنيت شوية..وبعد حوالي نص ساعة.. بدأت النبابيت والعصيان تعمل عمايلها..وجريت أنا واللى معايا نستخبى.. وفي اليوم ده.. أهل البلد اللى كنا فيها أكلوا علقة سخنة.. لأن جيرانهم كانوا عارفين الحكاية ومستعدين لها».

قبل أن تغطي شهرة أم كلثوم مناطق الوجه البحري. زادت المعاناة أيضًا..وكادت في مرحلة طفولتها أن تنسحب من الميدان، لولا إيمان والدها الشيخ إبراهيم البلتاجي بموهبتها، التي بدأت ملامحها في كُتاب القرية وظهر نبوغها ومهارتها في تجويد القرآن بالطريقة الصحيحة ،تتذكر:

«كان سيدنا الشيخ إبراهيم.. بيحرص دائمًا وأنا باسمع قدامه بعض السور أن

أقرأها بالترتيل ،وفي هدوء،غير كل «الولاد» اللى معايا في الكتاب».

وفي التاسعة من عمرها سمعتها صديقة الطفولة، بنت شيخ قرية «طماي الزهايرة»،وكانت تكبرها بحوالى ثلاثة أعوام،ولم تكذب خبرًا.. فأسرعت إلى بيتها في شرق البلد، وأبلغت والدها.. الذى تطوع بإذاعة الخبر بين أهل القرية..وتطوعت زوجته بنشره بين «الحريم».. وبعد يومين فوجئت السيدة «فاطمة المليجي» والدة أم كلثوم بعدد من نساء القرية ومن بينهم زوجة شيخ البلد وابنته يطلبن سماع صوت المحروسة... وتكررت هذه الزيارة عصر كل يوم مع ازدياد العدد، وتعتبر هذه الأيام في حياة أم كلثوم هى التجربة الأولى لها في مواجهة جمهور غير أفراد أسرتها.

وجاء الدور على رجال القرية.. فطلبوا من «العمدة» أن يتوسط لهم عند الشيخ إبراهيم..لتحضر ابنته إلى «الدوار» ليسمعوا صوتها الذى لا حديث «للحريم غيره»... وغير حلاوته.. ورغم رفض الوالد في البداية إلا أنه وافق تحت إصرار العمدة وإلحاحه،وذهبت بنت التاسعة يرافقها «أبوها» إلى «الدوار»، وفي غرفة «الحريم» قرأت القرآن، ثم قدمت التواشيح..بينما تجمع أهل القرية شبابًا وشيوخًا ونساء في الخارج حتى ملأوا الدوار والشارع المؤدي إليه..والكل لا يصدق أن هذا الصوت هو صوت الطفلة «أم كلثوم»:

«من اليوم ده.. أصبح بيتنا يبحبه كل أعيان البلد.. والناس الصالحين..كل واحد يطلب أن أروح بيته.. زى ما رحت بيت «العمدة».. وكان أبويا الله يرحمه ما يحبش يكسف حد».

أقنع أهالي طماي الزهايرة وخاصة أعيانها.. الشيخ إبراهيم البلتاجي أن يشرك ابنته معه في الموالد..وبعد تردد حسم أمره وبدأ في إشراكها في بطانته وكان مقرئًا للقرآن ومؤديًا للإنشاد الديني في الموالد والحفلات... وبعد إشراكه لها في بطانته

بإحدى الليالي في إيتاي البارود (محافظة البحيرة) طلب الأهالي من الشيخ إبراهيم أن يسمعوها في إحدى قصائده، وأمام إلحاح الأهالي وقفت ومن خلفها والدها وشقيقها الشيخ خالد..ولم يصدق الجمهور الذى ملأ «جرن» البلدة.. أن كل هذا الجمال في الصوت ينطلق من هذه الطفلة، ومن تلك الليلة لم يتمكن أخوها وأبوها من تقديم القصائد الدينية، حيث أصبحت هى المطلوبة من المستمعين.

مع تكرار خروج أم كلثوم إلى الموالد.. ثارا شقيقًا الشيخ إبراهيم وهدداه بالمقاطعة، ففضل الشيخ أن يضحي بمستقبل ابنته بدلاً من خسارة إخوته، وحاول إقناع أم كلثوم بالابتعاد عن هذا الطريق، فقالت له: «زى ما أنت عايز يابا..أنا عمري ما أزعلك.. أنا ماليش حد في الدنيا غيرك.. وكل واحد بياخد على قد نصيبه».

هذا التخوف من الشيخ إبراهيم على ابنته وثورة شقيقاه عليه، كان انعكاسًا صادقًا للمناخ الاجتماعي السائد حينئذ، والذي «كان يضع المطربين والمطربات في مكانة متدنية، فمعظم المصريين كانوا يقبلون على شكل أو آخر من أشكال الترويج الموسيقي في الأماكن العامة، أو الخاصة، وكان العاملون في هذا المجال يعيشون ويعملون في جميع أنحاء مصر تقريبًا، ومع ذلك فلم يكن الشباب يلقون أي تشجيع على امتهان عمل كهذا، أو مخاطبة من يمتهنه، وفضلاً عن صعوبة كسب الرزق بالغناء وصعوبة الظروف التي تواجه المغني المبتدئ، فقد بدا أن الموقف السائد من الغناء كان أساسه فكرة الناس عن احترام المرء لذاته، فوقوف الفنان على خشبة المسرح ليتفرج عليه الآخرون. وهو يمثل أو هو يغني أغاني عاطفية أو هو يرقص، وهذا أسوء الأحوال، كان في رأي الناس إهدارا للوقت في عمل تافه لا يتفق وسلوك الذي يحفظ للمرء كرامته، ويتحول المشتغل بالفن إلى نجم يمكنه حينئذ أن يتخلص من الأحكام الظالمة التي يصدرها الناس عله مسبقا» (*).

(*) صوت مصر أم كلثوم – كتاب – فرجينيا دانيلسون – ترجمة عادل هلال عناني – المجلس الأعلى للثقافة – مصر – ٢٠٠٢م.

وتحفظ السجلات التاريخية عشرات الوقائع التي تبين مدى المعارضة الشديدة لكبار المطربين من أهلهم بسبب إقدامهم على الغناء، وأبرزهم الشيخ سيد درويش ، الذي أقسم زوج أخته ألا يدخل الشيخ سيد بيته إذا لم يهجر الغناء، ويعمل معه في محل نجارة الموبيليا الذي يملكه، وقبل درويش هذا إلى حين ،أما الموسيقار محمد عبد الوهاب فكان يردد دائمًا أن أخيه جره من فوق خشبة المسرح إلى الخارج، وظل يجره في الشوارع حتى وصل به إلى المنزل، أما الشيخ زكريا أحمد فلم ينس تعنف أبيه قائلا له: «أنت من أسرة محترمة وتريد أن تكون واحدًا ممن تدور حياتهم حول يا ليل يا عين».

وما حدث لسيد درويش ومحمد عبد الوهاب وزكريا أحمد، كان امتدادا لما حدث قبل ذلك بسنوات للمطرب والملحن عبده الحامولي، الذي فر من وجه أبيه لأنه لم يكن راضيًا عن اشتغاله بفن الغناء، ويقول قسطندي رزق الذي عرف الحامولي، وألف كتابا عنه: «كان عبده صالحًا يقيم الصلاة في مواقيتها، وبارًا بوالده وقد فر من وجهه؛ لكونه غير راضٍ عنه، لاشتغاله بفن الغناء الذي كان وقتئذ يعد في مصر مهنة محتقرة ومسقطة لمحترفها من عيون الناس، وحدث نقلاً عن المقطم (صحيفة) بتاريخ ١١/ ٩/ ٩٣٤ هجرية توقيع حضرة رزق الله شحاته الموسيقار : « أن الخديوي إسماعيل قصد زيارة مديرية الغربية، فأراد سعادة المدير أن يجعل الاحتفال بقدومه في غاية الفخامة والأبهة،ورأى أنه لا يكمل السرور في تلك الحفلة إلا بإحضار أعظم المطربين، فدعا المرحوم عبده الحامولي، ورأى أن هذه خير فرصة يسترضي فيها والده عنه ،فقال لسعادة المدير أريد أن أطلب منك شيئًا واحدًا وهو أن تجعل أبي يرضى عني، فأرسل سعادة المدير تلغرافًا في الحال لوالده فحضر الحفلة الليلية، وكان عبده جالسًا في حضرة الخديوي إسماعيل، وحاشيته فدعاه المدير إلى جانبه وسأله. هل أنت غاضب على ابنك، وأنت تراه في حضرة أفندينا، فكان جوابه

«أنا وابني وأولادي عبد لأفندينا وأقبل عليه وعانقه» (*).

الزمن الذي يفصل بين ما حدث للحامولي، وبين ما حدث لسيد درويش، وزكريا أحمد، ومحمد عبد الوهاب يقترب من ٤٠ عامًا ، فالحامولي بدأت شهرته في عصر الخديوي إسماعيل ورحل عام ١٩٠١م، وزكريا وعبد الوهاب بدأت مسيرتهما مطلع العشرينات من القرن العشرين، ورغم هذا التباعد ظلت النظرة واحدة فالمطرب، أو المطربة في مكانة متُدنية حتى يتحول إلى نجم، وحينئذ تتغير النظرة.

لم تكن أم كلثوم استثناء من هذا، بل كان الأصعب بالنسبة لها أنها امرأة تدخل هذا العالم المرتبط في أجواء الريف وقتئذ بأشياء مرذولة كالخمر، والمخدرات، ولعب القمار، ولولا شجاعة أبوها في التعامل مع مجمل هذه المعطيات ذات الإرث التاريخي ما كان هناك أم كلثوم الفنانة، وبدأت شجاعة الشيخ إبراهيم بأحزان خيمت عليه حتى رأى أحلامًا مزعجة، أكد تفسيرها ضرورة عودة ابنته لقراءة القرآن، وغناء القصائد، والتواشيح، وبعد تدخل عمدة طماي الزهايرة وأعيانها لدى أشقاء الشيخ إبراهيم، عادت أم كلثوم للغناء، ولكن بشروط هى ألا تتخلى عن «العقال والعمة» ولا يظهر منها أمام الجماهير غير الوجه وأصابع اليدين فقط.

عادت أم كلثوم من جديد إلى الغناء، وتتذكر أول مواجهة للجمهور في حفل تعتبره أول بدايتها الفنية:

«كانت أول مرة أغني فيها.. في فرح عند مأذون بلدنا..وكان ده شرف كبير لينا.. ما أخدتش ولا مليم.. غير كباية شربات.. وطبق مهلبية..وفي آخر الليل.. وفي الليلة دي.. كل البلد سمعتني.. وقالوا رأيهم لتاني مرة بعد اليوم اللى غنيت فيه في «أودة الحريم» في بيت العمدة.. وأنا فاكره أنني غنيت في الفرح بتاع

(*) – الموسيقى الشرقية والغناء العربي – مع السيرة الذاتية للفنان عبده الحامولي ، كتاب : قسطندي رزق ، مكتبة مدبولي – القاهرة – عام ٢٠٠٠

المأذون...أغنية..

أقول لذات حسن ودعتني

بنار الوجد طول العمر آه

وفي تاني يوم.. دعوني لفرح «غفير نظامي» في عزبة الحوال.. القريبة من بلدنا.. غنيت فيه لغاية الصبح.. في الليلة دى خدت أول أجر في حياتى.. كان عشرة صاغ..وكانت المعاملة في الأيام دى بالريال.. يعني خدت «نص ريال».. مكانش المبلغ ده نصيبى لوحدي..وإنما كان بيشاركني فيه أبويا وأخويا الشيخ خالد..وبعد كده بخمسة أيام.. دعاني الحاج يوسف تاجر «الغلة» في مركز السنبلاوين لإحياء ليلة. برضة فاكرة غنيت فيها

حسبي الله من جميع الأعادي

وعليه توكلي واعتمادي .

.. في الوقت ده.. كنت باغني من الساعة تسعة لغاية الساعة اتنين الصبح على طول.. وقد إيه كانت فرحتي في الليلة دي لما صاحب الفرح مد إيده وأعطاني المعلوم.. كان ريال بحاله.. ما كنتش مصدقة عينيه.. كان مبلغ كبير خالص في الوقت ده.. وقبل ما نمشي مد الرجل الطيب إيده وأعطاني كمان « ربع ريال ».. اتهيأ لي.. أنا وأبويا وأخويا في الليلة دي.. إننا أصبحنا من الأغنياء ».

... وبعد كده فكر حسن أفندي حلمي... التاجر في محطة «أبو الشقوق» في أحياء «ليلة بفلوس».. الناس اللي تقعد في الأول تدفع «ربع ريال» يعني الدرجة الأولى النهاردة.. واللي بعدهم يدفعوا «تلات قروش» والدرجة الثالثة بلاش؛ لأن الناس هتبقى واقفة بره الخيمة اللي كان عاملها عند المحطة..

والحمد لله ربنا وفقنا.. ونجحت الليلة بشكل ما كناش نحلم بيه، جه ناس في «الليلة من كل البلاد المجاورة.. وكان فيهم بعض أهالي «المنصورة»... «بلدياتي»..

قد إيه كانوا فرحانين.. جاءوا يهنوا.. يهنوا واحدة من مديريتهم..

وعلى فكرة ما كنتش عارفة إن « الحفلة » نجحت إلا لما «حسن أفندى» أعطاني «جنيه ونص».. بصيت للجنيه ونص موش مصدقة عنيه.. لأنه كان أول جنيه تمسكه إيدي في حياتي.. كانت الدنيا موش سايعاني.. في كل دقيقة «أبوس» الجنيه.. وأنا هاطير من الفرح.. كنت باتنطط.. وباقول: يا أرض اتهدي ما عليك قدي أنا معايا جنيه!

وفي الأسبوع اللي بعديه.. دعانا عبد المطلب أفندي الموظف بدائرة المرحوم الشناوي «باشا».. علشان نعمل الفرح بتاع أخوه في «كفر دماص» بندر «المنصورة».. وكان أجرنا في الليلة جنيه ونصف بما فيها مصاريف الانتقال..

وحبة... حبة.. بدأت أشعر أنني بقيت حاجة.. وقد إيه فرحت.. ومليت الدنيا فرح.. لما دعوني علشان أغني في مركز « أجا » حسيت إنني أصبحت مغنية «عالمية».. ثم لقيت نفسي.. بانتقل من مديرية الشرقية.. لما غنيت في فرح «بكفر صقر».

غطت شهرة أم كلثوم الوجه البحري حتى قدمت أول حفلة لها في القاهرة، أقامها الشيخ زكريا أحمد والشيخ محمد أنور في حي السيدة زينب لصالح أسرة فقيرة.. وكان الشيخ زكريا أحمد قد تعرف عليها هو والشيخ أبو العلا محمد في عام ١٩١٩م وهي لا تزال صغيرة، عندما كان الشيخ زكريا يحيي شهر رمضان عند «على أفندي أبو العنين»، وكيل الثري «إيلي الدرع» المشهور في ذلك الوقت بمدينة السنبلاوين وكان الشيخ أبو العلا محمد يفعل نفس الشيء ولاحظ الشيخ زكريا خلال ليالي الشهر، أن هناك آنسة صغيرة ، تنصت إليه باهتمام شديد وتسمعه بشغف، فأثارت انتباهه، وسأل عليها..

فقالوا له: وحسب كلام أم كلثوم:

«دي أم كلثوم.. بنت الشيخ إبراهيم البلتاجي من طماى.. وبتيجي كل ليلة...

مع أخوها خالد عشان تسمعك..وترجع تانى، أصلها.. بتغني برضه زيك في الأفراح والليالى».

قبل الانتقال إلى القاهرة وقع لها حادث في أحد قصور أثرياء هذا الزمان ظلت تردده طوال حياتها؛ لأنه فتح لها عالم آخر ففي عام ١٩١٧م ذهبت لإحياء حفلة في حلوان في قصر عز الدين يكن بك بمناسبة ليلة المعراج، ولما رآها جن جنونه ورفض أن تغني، وأمر أن تظل ومن معها في بدروم القصر حتى لا يراها أحد، واستدعي الشيخ إسماعيل سكر لإحياء حفلته، وقضت أم كلثوم ليلة رهيبة في بدروم القصر تبكي، ولما أبلغ الخدم زوجة عز الدين ببكائها نزلت إلى البدروم، فارتمت أم كلثوم في أحضانها، وتتذكر ما قالته لها:

«حرام كده نتحبس هنا... طيب سيبونا نروح ما دام مافيش ليلة.. أعمل إيه حظي كده.. وأنا ياست، قد إيه كنت واضعة أمل في الليلة بتاعتكم دى.. كنت باقول في السكة لأبويا وأنا جايه.. إن السعد مواعدنا عندكم الليلة.. بعد «المعازيم» الكبار ما يسمعوني لكن ربنا يمكن له حكمة في اللي حصل»..

ربتت زوجة «البيه» على كتف «أم كلثوم».. وأحاطتها بذراعيهاهامسة بصوت لا يسمعه إلا من في البدروم:

«إنت صعبانة عليه خالص والنبي.. أصل عز «بيه» يا بنتي، كان فاكرك مبهرجة زي الستات اللي بيغنوا في مصر»..

فنظرت إليها «أم كلثوم»، وهي بين أحضانها.. وقالت بصوت خافت:

«إنا يا ست هانم» غير دول.. أنا عايشة في الفلاحين.. ما أقدرش اتبهرج.. وألبس غير الحشمة.. إحنا ناس بتوع ربنا.. بندور على لقمة العيش بعرقنا.. اللي جاي يدوب على قد اللي رايح.. إنتي عارفي «يا ست هانم».. أن أهلي ما كانوش عايزني أغني.. وكان لهم شروط.. وكان أبويا منفذها.. قبل ما يقولوها.. شروطهم

إني أكون كده.. بسيطة.. عادية.. غير مبهرجة.. وصحيح إزاي ألبس «أفرنجي» وأنا بامدح النبي.. وأقول التواشيح».

رق قلب الزوجة لأم كلثوم، وطلبت منها الغناء.. فغنت: «سبحان من أرسله رحمة لكل من يسمع ويبصر».. وخرجت زوجة «البيه» والدموع تبلل خديها، ونجحت محاولتها في إقناع زوجها لسماع هذا الصوت النادر.. ولما استمع إليها اتجه إليها وقال لها:

«حقك على يا ابنتي... سامحيني علشان خاطر النبي.. أنا هاعوض لك.. كل اللي حصل.. هاديكي زي ماأنت عايزة.. أنت تستاهلي مال قارون».

وغنت، واهتز لها الحاضرون بما فيهم الشيخ إسماعيل سكر الذي اشترك مع بطانة أم كلثوم في ترديد الأغاني والتواشيح.. عندما رأي عز الدين بك يخلع طربوشه إعجابا بصوتها، فخلع الطربوش كان دليل الإعجاب في مثل هذه الليالي. كان أجر أم كلثوم لهذه الليلة ثلاثة جنيهات خلاف مصاريف الانتقال، وطبقًا للعقد الموقع، فإنه في حالة تأخرها سوف يدفع والدها عشرة جنيهات غرامة

والمؤكد أن الإعجاب الذي حظيت به أم كلثوم ممن استمعوا لها في قصر عز الدين يكن منحها المزيد من الثقة خاصة، وأن ليلتها هذه جاءت بعد رفض لها، وتوسلات منها بالغناء وعلى كل حال كانت مثل هذه التجارب بمثابة تعبيد للأرض التي تسير عليها أم كلثوم نحو محطتها الحلم، وهي محطة الانتقال إلى القاهرة، وكما أشرنا من قبل لدور الشيخ زكريا أحمد، والشيخ أبو العلا محمد في هذا الأمر، خاصة الشيخ أبو العلا أستاذها الأول، ولتترك أم كلثوم تحكي عن قصتها مع هذا الرجل، وما فعله من أجل انتقالها إلى القاهرة:

تقول أم كلثوم:

«كنت متشوقة أشوفه وأسلم عليه بإيديه.. كنت باحب صوته من يوم ما سمعته

في «المكنة» بتاعة شيخ البلد.. أبو صاحبتي «عيشة» كنت كل يوم معنديش فيه شغل أروح عندها علشان تدور الأسطوانة بتاعته.. وأقعد سرحانة وأنا باسمعه.. كان في رأيي أحلي صوت في الدنيا.. كان حلو مافيش بعد كده حلاوة.. كنت بافكر دايمًا إنه موش زي كل الناس اللي سمعتهم قبل كده.. علشان كده.. قلت لأبويا.. لازم نروح «السنبلاوين» ونسمعه.. وما كانش أبويا الله يرحمه بيردلي طلب.. ورحنا المركز.. وقعدنا مع الناس اللي بتسمع الشيخ أبو العلا.. ماكنتش مصدقة عنيه.. ولما خلص.. جريت ورحت عند الدكة بتاعته ولحقني أبويا وأخويا خالد.. زاحمت كتير.. لغاية ما بقيت قريبة منه.. وسلم أبويا وأخويا عليه.. ومديت إيدي زي كل الناس.... فسلم عليه بسرعة.. الناس كتيرة عايزة تسلم عليه... رجعت تاني وقالت أسلم... عايزة إيدي تستني في إيديه أكبر وقت عايزة أكلمه موش قادرة أنطق..كانت مفاجأة كبيرة..

وقلت لأبويا: اعزمه والنبي عندنا.. أنا عايزه أقول له حاجات كتيرة.. عايزة أسمعه لوحدي.. عايزه يسمع صوتي.. ويقول رأيه.. عايز أعرف رأيه في قعادنا في مصر على طول.. دا راجل طيب هيقول الحق.. رأيه يابا مهم قوي في الحكاية دي.. وأهو أنت شايف الجوابات اللي بتيجي والناس اللي بتنصحنا نسافر ونقعد في مصر.. رأي الشيخ أبو العلا مهم قوي والنبي «يابا» في الحكاية دى..

لبى الشيخ إبراهيم البلتاجي رغبة ابنته، ودعا الشيخ أبو العلا محمد في منزلهم.. وطلب الضيف أن يستمع إلى أم كلثوم.. لكنها رفضت في البداية ثم لبت طلبه وتبرر رفضها قائلة:

ـ رفضت؛ لأنني كنت أريد أن أسمع صوته وحده... أريد أن أملأ أذني بكل كلمة وكل نغمة ينطق بها.. أريد أن أحفظها عن ظهر قلب، وأحافظ عليها لأرددها في كل دقيقة تمر بعد ذلك، فالشيخ أبو العلا فنان كبير له قيمته في عالم الغناء

والطرب.

ولم أقو على الاستمرار في الرفض عندما أصر الشيخ أبو العلا على سماعي، قلت لنفسي وقتها: لقد جاءت الفرصة ليقول مثل هذا الفنان الكبير رأيه، وقبل أن أغني أمامه قرأت «الفاتحة والصمدية».

غنيت أمامه بعض القصائد الدينية... كنت باغني وعيني على حركات وجهه حتى إذا شعرت أنه غير راض عن أدائي، توقفت بسرعة، ولكنني اجتزت الامتحان الصعب.. فقد اقتنع بي الشيخ أبو العلا، وتأكد لي ذلك من حركات رأسه مع صوتي.. ولما انتهيت من الغناء التفت إلى قائلًا:

«هايلة.. هايلة خالص... الله يفتح عليكي..»

ولم أصدق أذني فسألته:

ماذا يقول الشيخ أبو العلا.. إنني أريد أن اسمع ما قلته مرة أخرى أريد أن أسمعه مائة مرة..

ورد الشيخ أبو العلا.. موجها كلامه لوالدي: الله حاجة كويسة خالص، لو جت أم كلثوم مصر حتلاقي نجاح كبير، خسارة إنها تحصر شغلها في الريف بس... تعالوا مصر.... واقعدوا هناك... وأؤكد أن ربنا هيوفقكم، وحتكونوا حاجة تانية غير كده.

لم تصدق أم كلثوم ما سمعته:

«بصراحة لم أصدق أن الذي يقول ذلك، هو الشيخ أبو العلا أحسن وأشهر مغني في ذلك الوقت..

ونظر الشيخ أبو العلا لوالدها:

«يا شيخ إبراهيم... أنا موش بأقول الكلام ده مجاملة علشان ما أنا في بيتك. لكن دي شهادة أنا مسئول عنها. أمام ربنا.. حرام يا شيخ إبراهيم تضيع مستقبل بنت

زي دي.. ربنا إداها الموهبة.. دي في رأيي أحسن من كتير عندنا في مصر.

فرد عليه الشيخ إبراهيم: يا شيخ أبو العلا.. أنت عارف مصر.. وعيشة مصر.. إحنا على قدنا.. مالنا ومال الزيطة اللي هناك.

ـ والتفت الشيخ أبو العلا إلى والد أم كلثوم.. قائلا:

«في مصر ناس بتحب اللون اللي بتقدمه بنتك، اللونْ الوقور، وعلى فكرة اللون ده له معجبين كتير.. أنا برضه بأغنيه، وبيغنيه الشيخ إسماعيل سكر. بس الفرق بين اللي بتقدمه بنتك إننا بنلحن الكلام بطريقة نقدر نقف بيها أمام الأغاني التانية».

رد الشيخ إبراهيم:

«ربنا يعمل اللي فيه الخير يا شيخ أبو العلا.. دا كل شيء قسمة ونصيب.. أوعدك أنني حافكر في حكاية مرواحنا مصر.. وأبعت لك جواب على طول برأيي»..

وأخذ الشيخ إبراهيم عنوان الشيخ أبو العلا ليراسله، وبعد أن انتهي الحديث، التفتت أم كلثوم إلى والدها، ولكنها وجهت كلامها للشيخ أبو العلا قائلة: «أريد سماع صوت الشيخ أبو العلا.. أريد أن أتأكد أنه موجود فعلاً في بيتنا.. أريد أن أسمع كل ما عنده«وسكتت » ليخيم الصمت على الجميع لينطلق صوت الشيخ، وتصف أم كلثوم جماله: «وكأنه صوت كروان... كنت مشدوهة بعذوبته ونقاوته»..

تضيف: غنى في هذا الوقت الكثير..

ومنها «أفديه إن حفظ الهوا أو ضيعا» طلبت إعادتها لأحفظ منه اللحن وطريقة الأداء.. لقد كان الشيخ أبو العلا.. على الطبيعة أحسن صوتًا وأكثر عذوبة من الأسطوانات التي سمعتها له من قبل..

لبى الشيخ إبراهيم البلتاجي نداء الانتقال إلى القاهرة الذي أطلقه الشيخ زكريا أحمد وصمم عليه الشيخ أبوالعلا محمد، وبعد فترة من إنتقال العائلة المكونة من الشيخ إبراهيم وأم كلثوم وأخيها خالد ووالدتها، واستقرارهم في عابدين قدمت

أول حفلة لها في سرادق في شارع خيرت بالقرب من جريدة (اللواء) التي كانت تصدر في ذلك الوقت.. وفي هذا الحفل الذي نظمه متعهد حفلات اسمه محمد أبو زيد، شارك الفنان حسن فائق بمنولوجات والمعروف أنه كان يلاقي اضطهادا سياسيًا بسبب منولوجاته الوطنية خاصة بعد نفي سعد زغلول إلى جزيرة سيشيل، وقدم منولوجًا عن ذلك اسمه: مصر تناجي سيشيل.

وتوالت حفلاتها بنجاح كبير، رغم المضايقات الكثيرة وتقول عن هذه المرحلة:

«كنا راضيين بأي شيء.. لأن الذي يرزق الجميع هو الله.. لقد كان كل همي أن أقف على قدمي في القاهرة.. وأثبت وجودي.. (الفلوس) كانت آخر حاجة نفكر فيها.. من أجل ذلك لم ندقق مع المتعهدين الذين ضحكوا علينا في بداية عملنا..وكان والدي يصدقه ويتنازل له عن جزء من الأجر المتفق عليه، فبعد أن يكون الاتفاق على سبعة جنيهات يصل إلى أربعة.. كان ذلك يحدث بالرغم من أننا كنا نكتشف كذب ما يقول.. فأحيانا كانت الصالة تضيق بالجمهور.. فيأتي المتعهد بمقاعد إضافية.. وأحيانًا يطلب المتعهد الحضور مبكرًا قبل ميعاد الحفل بأكثر من ساعتين ثم يطلب منا أن نطل على الصالة.. فنراها شبه خالية.. وتبدأ المساومة مع والدي..ولكنني كنت أفاجأ وأنا على المسرح أن الصالة مليئة بالجمهور.. ومع مرور الأيام تنبهنا إلى هذه الحيل، فلم يعد لها مكان»..

وهناك من التفاصيل الكثيرة تتعلق بالاستقرار النهائي في القاهرة وبدء نشاطها الفني فيها، وتم ذلك في عهد السلطان فؤاد الذي تولي الحكم خلفا للسلطان حسين كامل (١٩١٤ – ١٩١٧) وتحول فؤاد من سلطان إلى ملك يوم ١٤ مارس عام ١٩٢٢م وعلى الرغم من هيمنة الاحتلال الإنجليزي وتحكمه في كل شيء رأى فؤاد أن اليوم الذي تحول فيه من سلطان إلى ملك جعل من مصر دولة «متمتعة بالسيادة والاستقلال»!

كان المشهد الغنائي وقتئذ بلا هوية، ويلخصه الكاتب الصحفي صلاح عيسى، بأنه المشهد الذي انتهى فيه العصر الكلاسيكي للغناء الذي لمع فيه عبده الحامولي و« ألمظ » و«محمد عثمان» و«سلامة حجازي».. يقول صلاح عيسي «بعد يا ملك قلبي بالمعروف» و«سلامي عليك يا زمان» انتقل «الفرانكو آراب».. من المسرح إلى الغناء. وتقدمت «منيرة المهدية» لتتصدر المشهد الغنائي بصوتها القوي الذي تخلله بحة غجرية بدائية في قرارها نداء حسي لا تخطئة عين.. وانتشرت الأغاني الهابطة التي تؤجج الشبق للجنس، باعتباره موضوعًا في ذاته، لا صلة له بأية عاطفة إنسانية، باعتباره – كالمر – مفتاح الفرح، لقوم يعيشون آخر أيام أعمارهم، ويريدون أن يعيشوا في غيبوبة خمر،وغيبوبة حس، لتكون البرزخ بين فورة الحياة، وعدم الموت.

يضيف عيسى: على حناجر المطربات والمطربين، من «منيرة المهدية» إلى «نعيمة المصرية»، ومن «الست وحيدة» إلى «الست رتيبة»، ومن «صالح عبد الحي» إلى«عبد اللطيف البنا» انتقلت كلمات المداعبة الجنسية من غرف النوم إلى غرف حفلات الغناء في الصالات والمسارح، وتحولت إلى اسطوانات طبعتها شركة بيضافون، وبيع منها ألوف من النسخ، لتسمعها السيدات المخدرات في البيوت، أما «الست منيرة» و«الست نعيمة»، و« الست توحيدة » وبقية الجوقة، فسوف يغنون أغاني من نوع «ارخي الستارة اللي في ريحنا أحسن جيرانك تجرحنا / يا فرحانين يا مبسوطين/ يا مفرفشين يا مزأططين بالقوي يا حنا».. وبعد أن يصف عيسى هؤلاء بـ «جوقة مطربات الحرب العالمية الأولى»، يستكمل قراءة المشهد بذكره واحدة مما قدمته الست نعيمة المصرية «ما تخافش عليا، أنا واحدة سيجوريا (أي: مضمونة باللغة الإيطالية)، في العشق يا أنت واخده البكالوريا »أما منيرة المهدية: «من إيدي وداني ع الموسكي / وسقاني كونياك على ويسكي، وقال يا منيرة آنستي / مادام شربنا.. نبات الليلة / وخدني ودخلني الأودة / لعبنا سوا وبقت موضة.. حط إيده على

شعري يامه يا شعري / قمت أنا اتخضيت / وحط إيدي على حاجبي / يامه يا حاجبي/ قمت أنا أتلذيت». وفي طقوطقة أكثر إباحية قدمت الست رتيبة: «خدني في جيبك بقا / بين النهود والمنطقة»، أما عبد اللطيف البنا فلخص المرحلة في مونولوج بيقول مطلعه: « الستات دول لذتنا. والبنات هما همزتنا».

ساد هذا اللون (الطقاطيق) من الغناء في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولي في مناخ اجتماعي، وسياسي تصفه الباحثة الأمريكية فرجينيا دانيسلون: «أقبل المصريون من أفراد الطبقتين العليا والمتوسطة، متابعة الجديد في مجال الغناء بشراء الاسطوانات المسجلة، وتذاكر الحفلات الفنية، وصدر ما يزيد على اثنتي عشرة من المجلات المختصة بالموسيقي، والمسرح، أو المجلات التي أفردت بين صفحاتها أبوابا مهمة لأخبار الفن والنقد الفني، واتسعت رقعة الإقبال على النشاط الفني لتشمل مؤسسات تجارية مثل المسارح وشركات تسجيل الاسطوانات بالإضافة إلى الأفراد والعائلات».

ويقول الشاعر الغنائي سيد حجاب:

«صحيح أن كثيرا من المغنين والمغنيات أسهموا بأصواتهم، وأغنياتهم في ثورة ١٩١٩م، لكن الغناء المصري كان منقسما على نفسه تتنازعه عدة إتجاهات وطرائق.. كان هناك الإنشاد الديني «الإسلامي والقبطي» الذي تعود جذوره الى مصر الفرعونية، وكان هناك غناء النخبة من الأتراك والمستتركين، كما كان هناك غناء الغجر والعوالم الذي يملأ المقاهي وعلب الليل. وكان هناك الغناء الشعبي الفولكلوري الذي لاشك أن أم كلثوم قد سمعته، أو شاركت فيه في طفولتها القريبة، وكان بكل صنف من هذا الغناء قواعده وأصوله وجمالياته، ولم يكن هناك نمط واحد من الغناء تجمع عليه الأمة بكل طبقاتها، ومستوياتها الثقافية المختلفة، صحيح أن الأمة بكاملها أجمعت على عشق ألحان سيد درويش لكن الهم الأساسي لسيد درويش كان حلمًا موسيقيًا. ولم يلتفت كثيرًا لحل هذه الأزمة الغنائية، فنحن

الآن حين نسمع ما تبقى من تسجيلات صوتية لألحان سيد درويش سيدهشنا هذا التباين الواضح بين مصرية الألحان والموسيقى وبين أسلوب غنائها الذي يتراوح ما بين غناء الغجر والعوالم في أصوات حياة صبري، ومنيرة المهدية. وما بين الغناء على طريقة الأتراك ، والمستتركين في أدوار سيد درويش العشرة».

كان في قلب المشهد الغنائي من الأصوات النسائية أسماء مثل.. توحيدة.. منيرة المهدية.. فتحية أحمد.. فاطمة قدري.. فاطمة سري.. وحياة صبري، والمنشدة الدينية سكينة حسن، وبين هؤلاء، وأم كلثوم بدأت الحرب، ولم تكن الأدوات متكافئة بين الطرفين، فأم كلثوم لم تكن تملك سوي جمال صوتها.. أما الأخريات فلهن الرصيد التاريخي، والخبرة في المكائد، والمعجبين، ولم تكن الحرب بين الطرفين لتكريس زعامة بدلا من أخرى، وخنق صوتًا غنائيًا على حساب آخر، أو دفن موهبة تنبت من أرض قاحلة.. وإنما هي الحرب التي تتكرر في التاريخ دائمًا، وهي حرب الانتقال من مرحلة بمعالمها الحضارية، والتاريخية إلى مرحلة أخرى جديدة. وما حدث مع أم كلثوم كان تعبيرًا عن ذلك، فهي وضعت أقدامها في التوقيت الفارق في التاريخ، توقيت لمرحلة شهدت ثورة ١٩١٩م بكل فورانها الشعبي، ورغم أن الثورة لم تحقق الاستقلال لكنها أسست لقيم وطنية ونهضوية جديدة يعبر عنها الناقد كمال النجمي: « أيقظت ثورة ١٩١٩م شخصية الشعب المصري، وأن أصداء تأثيرها، كتأثير الثورة العرابية، وحادثة دنشواي، ظلت تتردد في ربوع مصر على مدي سنوات، وفي مجال الثقافة التعبيرية أدت ثورة ١٩١٩م وكذلك الاتجاهات الاجتماعية التي ساعدت الثورة على تقويتها إلى تدعيم اعتزاز المصريين المتنامي بتراثهم الوطني».. ويضيف النجمي: «يتميز المصريون بطريقتهم في الغناء.. وهجر المطربون هذه الطريقة لمئات من السنين، وعاش الشعب يغني لنفسه بينما كان المطربون المحترفون يغنون للسلاطين والأمراء والمماليك، ثم للباشوات الأتراك..

فهمت أم كلثوم مقتضيات المرحلة الجديدة، وبدأت في التعاطي معها، وكان عام ١٩٢٦م هو نقطة التحول في مسيرتها الغنائية حيث أدخلت تطويرا جديدا على فرقتها الغنائية تمثل في إدخال آلات حديثة في التخت الذي يصاحبها ،وتتذكر ذلك قائلة:

«في أواخر عام ١٩٢٦م.. وكنت وقتها بالإسكندرية.. التقيت هناك بعازف العود المعروف مصطفى رضا.. وتحدثنا عن الفن.. واللون الذي أقدمه.. ثم تناول الحديث بيننا فكرة إدخال الآلات الحديثة في «التخت » الذي يصاحبني في الحفلات..وأبدي مصطفى استعداده للاشتراك مع الفرقة الموسيقية التي تصاحبنى..

وتحمس والدي للفكرة... واشترط في سياق الحديث أن يكون التطور إلى الأقوى والأحسن.. بحيث لا يكون تقليدًا لأي «تخت» آخر موجود في القاهرة..

وبصراحة.. كنت أفكر في تطوير «التخت» قبل لقاء مصطفى رضا.. كنت أفكر في ذلك.. قبل أن أجد نفسي في يوم من الأيام مرغمة على ذلك..

وقبل أن ينصرف «مصطفى رضا» كان قد اتفق مع والدي على أسماء أعضاء «التخت»، وهم إلى جانب مصطفى، محمد العقاد، وسامي الشوا، ومحمود رحمي، ومحمد القصبجي وآخرون، ولم يبخل والدي بشيء في سبيل التعاقد مع كل هؤلاء، لما يتمتعون به من مكانة فنية في ذلك الوقت، وقد استفدت كثيرًا من تكوين «التخت» على هذا النمط، فقد كان الشيخ محمود رحمي ،يدربني على عزف العود، وحفظ أكبر كمية من التواشيح لتكون بمثابة أرشيف، يساعدني في المستقبل وأجدت بالفعل العزف على العود، وفكرت يومها في تلحين الأغانى، وجربت حظي في تلحين قصيدة لأحمد رامي، بعنوان «يا نسيمَ البحر ريان الندى» ولأشبع رغبتي في التلحين أقدمت على التجربة مرة أخري في أغنية لرامي أيضًا بعنوان: «على عيني الهجر»، بعدها آمنت بالتخصص وفضلت الاقتصار على الغناء فقط وقد استفدت كثيرا من تذوقي للشعر،ومعرفة بحوره وأوزانه التي تعلمتها عن الشاعر

أحمد رامي وقراءاتي المتعددة لكتب ودواوين الشعراء..

هذا التجديد الذي بحثت عنه أم كلثوم كاستجابة للتحدي الحضاري الذي فرض نفسه.. زاد من حملات الغضب ضدها ممن رأوا أن استمرارها يحتوي على خطر محقق عليهم، وتأسيسًا على ذلك نظم هؤلاء حملات صحفية مغرضة ضدها، على أمل منهم أن تترك المطربة الجديدة القاهرة، وتعود إلى قريتها طماي الزهايرة، وتترك لهم الميدان كما كان من قبل.

تقول أم كلثوم عن هذا الجانب:

كان هدف هذه الحملات أن تبعث اليأس في نفسي.. وتقتل آمالي في المستقبل لأعود إلى «طماي».. وأترك لهم القاهرة ميدانًا رحبًا يرتعون فيه.. لقد تناولت هذه الحملات في البداية الأغاني التي أقدمها.. وأدعوا أنها لا تناسب جمهور القاهرة. وإنها تناسب رواد الليالي والموالد في الأرياف.. وبصراحة لم يؤثر هذه الأسلوب في إيماني بالله.. وبالمستقبل لأنني كنت أعرف طريقي الذى اخترته مع والدي وأخي واقتنعنا به.. وكانت باكورته أغنية من كلمات المرحوم علي الجارم ولحن أحمد صبري النجريدي..

«مالي فتنت بلحظك الفتاك وسلوت كل مليحة إلاك»

يومها أحسست بتجاوب الجمهور.. وانفعاله باللون الجديد.. وتوقعت أكثر من حملات الصحف والمجلات.. لذلك لم تكن تلك الحملات بالشئ غير المتوقع..

في هذا السياق يمكن فهم شراسة المعارك التي حيكت ضد أم كلثوم من المغنيات المحسوبات على المرحلة التي كانت الستائر توشك على الإسدال عليها لبدء مرحلة جديدة، تؤسس هوية للغناء وترصد الدكتورة نعمات أحمد فؤاد التي تصدت لكتابة سيرة أم كلثوم هذه المعارك قائلة:

كان الصراع الفني من (١٩٢٠ – ١٩٣٠م) صاخبا، ولم تكن أم كلثوم طرفا بارزا في هذا الصراع – على الأقل في أوله – فقد كانت صغيرة لا تلحظها العين،

فقد حدث في عام ١٩١٨م، أن أخذ جلساء فاطمة قدري التي كانت يؤمئذ مطربة ذائعة الصيت، يتحدثون عن فتاة مسكينة اسمها أم كلثوم، فتاة يقولون عنها: أنها تغني، وأن لها صوتا لا بأس به، ولكنها لا تغني كما يغني الناس، بل هي (توتد) للنبي عليه الصلاة والسلام، وتنشد الأناشيد في موالد الريف، وتلبس العقال.

وأخذ الحاضرون من الفلاحة الصغيرة مادة للتنذر والضحك والتسلية، مرة يطلقون النكات على اسمها، ومرة يتساءلون عن سر العقال.. ومرة يتساءلون عن الجبة التي تلبسها، وتزعم أنها (بالطو) وهل هي بنت أم ولد، وترتفع القهقهات مهما كانت النكتة سخيفة، وبينما هم يضجون بالضحك، طلعت عليهم مطربتهم، فاطمة قدري، فهبوا وقوفًا، وأدوا التحية. وبعد أن اطمأن بهم المجلس،استأنفوا الحديث، فتساءلت الست فاطمة من طرف أنفها من هي أم كلثوم هذه، فقصوا عليها قصتها من جديد، فارتسم على وجهها تعبير من تذكر شيئًا سمعت به قبلاً.

آه لقد سمعت بالبنت أم كلثوم، ولا مانع من أن أراها، وسرعان، ما تطوع (المطيباتية) بإحضارها لكي تحظى بمقابلة المطربة المشهورة فاطمة قدري. وحين جاءت (البنت أم كلثوم). دخلت تتعثر في خطواتها، فيها انكسار المساكين من أهل الريف، وفيها حياؤها، على الرغم من أنها كانت قد قطعت شوطًا في القرى والمحافظات، ولكن القاهرة وأهلها في أعين الريفيين شئ آخر – قربي – قالت: فاطمة قدري.

(قربت) أم كلثوم، تقدمت من ست الحسن والجمال، حائرة مرتبكة ليس لديها ما تقوله للست فاطمة قدري التي تعرف مصر كلها قدرها.

ثم انصرفت أم كلثوم، بعد أن أعطت المجلس مادة أغزر للسخرية والتفكه والضحك، أما هي فلعلها كانت تحلم باليوم الذي تصبح فيه مثل فاطمة قدري.

وتضيف نعمات أحمد فؤاد: كانت نعيمة المصرية من رأيها أن «منير المهدية» لا

يعلى عليها، وأن فتحية أحمد لا بأس بها على ألا تغني من أنفها، أما أم كلثوم فكانت تقول عنها: أنه لا يتوقع لها مستقبلاً، وتقول نعمات:

«كانت الفترة بين ١٩٢٦ - ١٩٣٠ تتميز بعملية تصفية للمطربات الكثيرات اللاتي ظهرن في العقد الثالث من القرن العشرين.. تصفية كانت نتيجتها أن انحصرت المقارنة واعجاب المعجبين بين ثلاث:

منيرة المهدية - فتحية أحمد - أم كلثوم.

أحست منيرة المهدية سلطانه الطرب أن عرش الغناء بدأ يهتز من تحتها، وصلت درجة قلقها وغيرتها إلى أنها إرتدت ملاءة لف سوداء. ووضعت على وجهها برقعا. وارتدت شبشبًا في قدمها حتى تبدو كبنات البلد، وصحبت معها الممثل محمد بهجت، وذهبت إلى مسرح رمسيس، حيث كانت تغني أم كلثوم، وإشترت تذكرتين في أعلى التياترو (وهي أرخص مقاعد المسرح، ولما شهدت قدرة أم كلثوم الغنائية وسيطرتها العجيبة على الجمهور، لم تستطع تحمل أكثر من وصلة واحدة، وانصرفت إلى عوامتها تفكر ماذا تفعل؟ حتى إهتدت إلى حيلة شيطانية وذلك بإيقاع ناقد صعيدي شاب اسمه محمد عبد المجيد حلمي صاحب مجلة المسرح، وكانت مجلة فنية شهيرة في غرامها، وبدأ في الحملات الصحفية ضد أم كلثوم وكانت الذروة في قوله « أن أم كلثوم قدمت وهي بنت صغيرة شكوى لمحكمة السنبلاوين مؤداها أن شابا من القرية اغتصبها، ووعد بنشر نص الحكم، ولم ينشره طبعًا ؛ لأنه كان كذبة كبيرة. لكن هذه القضية بالتحديد دعت والدها إلى التفكير جديًا في العودة إلى قريته وترك القاهرة الملعونة نهائيًا ورغم توسلاتها له إلا أنه رفض نهائيًا حتى بعثت العناية الإلهية بمن يعيد الأمور إلى نصابها ، تقول أم كلثوم:

«فجأة دق الباب.. وأسرع إليه الشيخ خالد يفتحه.. وكان القادم..أمين المهدي صديق العائلة ترافقه أسرته، جاء بعد أن سمع بإصرار أبي على مغادرة القاهرة،

ونظرت إلى أمين المهدي، وكأنه مبعوث العناية الإلهية الذي جاء ليخلصني ويقنع والدي بالبقاء في مصر.. التفت أمين المهدي إلى أبي، وقال موجها إليه الحديث.. «وأنت يا شيخ إبراهيم.. بيهمك الكلام الفارغ اللي مكتوب في مجلة المسرح، وعارف لما تسافر أنت وبنتك، يبقى معناه إيه ؟.. معناه إن الكلام صحيح.. كانت هذه الكلمات كافية لكي يعدل والدي عن رأيه، ولكن الحملات الصحفية لم تتوقف.. بل عقدوا مقارنة بيني وبين فتحية أحمد.. ثم بيني وبين منيرة المهدية وفتحية.. وكانت النتيجة أنني الثالثة، ولم أهتم بالنتيجة، وإنما صممت ألا أكون في الموقع الذي وضعوني فيه..كنت أسعى جاهدة؛ لأن يفرضني فني على صفحاتهم ولم أستعجل الأيام».

أين كان أستاذها ومكتشفها الشيخ أبو العلا محمد من كل هذا ؟

تجيب أم كلثوم.

في هذه الأيام كان «الشيخ أبو العلا» يلازمنا.. يحضر إلينا في لوكاندة «جوردن هاوس» كل ليلة.. يغني لي وأغني له.. حتى حفظت منه كل أغانيه وألحانه.. كان يرافقني في كل حفله أذهب إليها.. كان الشيخ أبو العلا.. في منزلة والدي.. لا تزال نصائحه حتى اليوم أعمل بها (قبل رحيلها).

وغاب الشيخ أبو العلا يومين على غير العادة.. وفي اليوم الثالث ذهبت إلى منزله أسأل عليه.. فوجدته مريضًا.. فعدت والدموع تبلل خدي.. وأخبرت والدي.. فرافقني أنا وأخي خالد لنقضي معه هذه الليلة مكثنا معه حتى نام.. كنا نذهب إليه كل يوم إلى أن أسترد صحته.

وفي الايام التي ثقل فيها لسانه.. كان يحرص أيضا على الحضور إلينا.. وكان يغني لي.. وعندما تغيب الكلمات منه.. أو يتعثر نطقها يقول لي: أنت عارفة أنا عايز أقول إيه.. فقد كنت أحفظ أغلب أغانيه..

إنني لا أنسى يوم أن قال لي : لن نفترق أبدًا يا «أم كلثوم»؛ لأنني أعتبرك ابنتي.. أنا مسئول عنك وعن نجاحك زي الشيخ إبراهيم بالضبط.

وفي ليلة مظلمة.. لم يطلع لها قمر.. جاءني نبأ وفاة الشيخ أبو العلا.. كان ليلة الأربعاء ٥ يناير ١٩٢٧م كنت في ذلك الوقت قد انتقلت إلى الزمالك (حي).. خرجت من الشقة هائمة على وجهي لا أدري ماذا أفعل؟ وكان يرافقني أخي خالد.. وسامي شوا.. كنت أريد أن أبكي.. ولكن الدموع لا تطاوعني. لقد تحجرت في عيني.. سرت على قدمي من الزمالك إلى شارع فؤاد.. ضاعت الطرق أمامي وفقدت كل تفكير.

كنت أسير من شارع إلى شارع.. كل شيء أمامي كان مظلمًا.. فقد مات الرجل.. الذي وقف بجانبي.. وقدم لي أكبر عون وأكبر مساعدة.

حسمت أم كلثوم معاركها مع الأخريات بالانتصار عليهن بالضربة القاضية، فهل يمكن القول أن المعطيات السابقة وحدها كانت السبب في هذا الانتصار الساحق؟ ولماذا تعلق بها البسطاء والفلاحون مبكرًا، ورأو فيها ما لم يروه في غيرها؟

ولماذا سجلت انتشارها بهذه السرعة في بداياتها؟ هل لذلك علاقة بمجريات الجوانب السياسية والاجتماعية في الفترة التى بدأت منها في طماى الزهايرة؟ ثم انتقالها إلى القاهرة؟ وهل كان لأن أم كلثوم فهمت مقتضيات المرحلة الجديدة في تاريخ مصر ؟

الكاتب والروائي الراحل فتحي غانم له رؤية خاصة تقدم إجابة عن مجمل هذه الأسئلة.

يقول: «لم تكن أم كلثوم في ذلك الوقت، في الفترة بين عام ١٩١٥ وعام ١٩١٨ وهي فترة ظهورها كمغنية في الريف، وقبل انتقالها إلى القاهرة، تغني كالمطربات الشهيرات في ذلك الوقت ولا تقلدهن، بل ربما لم تكن سمعت باسم منيرة المهدية

أو باسم الشيخ سلامة حجازي.

ولم يكن غناء المحترفين في مصر للناس العاديين، بل كان قاصرًا على طبقة الأمراء والأعيان الذين يقيمون الحفلات في بيوتهم، أو يترددن على صالات الرقص والبارات.

وفي ذلك الوقت، كان الفلاح المصري يعاني عذابًا لم يشهد له مثيلاً في حياته، كان الإنجليز يصادرون ما شيته ودوابه التي هي كل ثروته وحياته، ثم بدأ الإنجليز يسوقون آلاف الفلاحين مسخرين للحرب التي كانت بينهم وبين الأتراك في الشام، وأرسلوا حوالي عشرين ألفًا من الفلاحين المصريين إلى فرنسا عام ١٩١٦، بعد أن اكتشفوا قوتهم في العمل، وشدة مثابرتهم تحت ظروف الحرب القاسية، وأحست كل قرية في مصر بالضياع وفقدان الناس والمال، يحترقون في أتون حرب لا شأن لهم بها، وفي هذه الحالة النفسية المريرة، بدأ الفلاحون يعبرون عن مأساتهم – سواء المرتحلون خارج مصر، أو الباقون فيها – بأغان ليس لها صلة بغناء المحترفين في مصر.

يضيف غانم: كان المغني في مصر يثير الناس ويطربهم، بشئ اسمه « الهنك والرنك » وهي الميوعة والطراوة في الغناء، ابتكرها محمد عثمان منذ أيام الخديوي إسماعيل وحفلاته الباذخة، إذ يقضي المغني عشر ساعات متتالية وهو يتلاعب بصوته مرددًا جملة أو شطرًا من قصيدة.

وكانت منيرة المهدية تثير حواس المستمعين، ببحة في صوتها فيها طابع جنسي، يشبه بحة الأغاني التي يغنيها الأمريكيون اليوم في أغانيهم الراقصة.

أما أم كلثوم فقد غنت مع الفلاحين، على طبيعتها وسجيتها، غنت بلا قواعد وبلا هنك أو رنك وبلا بحة.. أو تلاعب.. أطلقت صوتها معبرا عما تحس به، بلا خضوع لتقاليد أو مزاج.. أطلقت صوتها وكأنها تغني لنفسها.. وإذا بالفلاحين

يطربون لسماعها ويجدون فيها تعبيرًا عن الانطلاق الذي يتمنونه في حياتهم.

وهنا يجب أن نسجل لأم كلثوم أنها استحقت منذ ذلك الوقت، التفضيل الذي حباها به الفلاحون على غيرها من الأصوات التي كانوا يسمعونها، وهذا التفضيل راجع لأمر شخصي في أم كلثوم، وحتى لو هيئت الظروف لأصوات جميلة أخرى أن تبرز، لما كان جمال الصوت وحده كافيًا، إذا خضع هذا الصوت الجميل لقواعد المحترفين في الغناء وتقاليدهم، بل كان لابدَّ أن ينطلق الصوت الجميل ثائرا من كل قيد.. حتى يتجاوب مع حالة المستمعين النفسية، وهذا هو ما فعلته أم كلثوم.. وحدها.

يضيف غانم :لقد إستجابت أم كلثوم في غنائها المنطلق إلى مشاعرها التي اتفقت مع مشاعر الفلاحين، ولكنها لم تتفق مع مشاعر هواة الطرب من الأعيان الأغنياء، وليس أدل على ذلك مما كتبه النقاد عندما ظهرت أم كلثوم لأول مرة في القاهرة.

كتبوا يصفون صوتها في الصحف.

«إنها ترسل الغناء إرسالاً بغير قطعة من قطع الطرب تمهد لها سبيل الانغام»!

قال ناقد آخر:

«زيادة على حسن الصوت ورخامته، يوجد شئ اسمه الفن، وأم كلثوم تسير مع طبيعتها فقط، وهذا لا يكفي في الواقع وليس فنًا».

وقال ناقد ثالث :

«إن في صوتها جفافًا – يقصد لا ميوعة فيه – ولا يمر صوتها بالآذان، فما تكاد تنفرج شفتاها، وما يكاد الإنسان يحس أن النغمة تكون في مرورها بالأوتار حتى تنفلت من الأذن، ولكن يخفق بها القلب».

يقول غانم: جميع هؤلاء النقاد– ويؤسفني ألا أعرف أسماءهم إذ لم يوقعوا كلماتهم – كانوا يفضلون منيرة المهدية على أم كلثوم.

ومنيرة كانت تمثل الجنس الصارخ في الصوت، وفي معاني الأغاني. وكانت تستجيب لجمهور سهرات فيها خمر، وحشيش، وصيحات فيها عربدة وشهوة، ونكات جارحة مخجلة.

وكانت أم كلثوم – مغنية موالد الفلاحين – لها صوت طبيعي، ينطق الكلمات سليمة، بلا عوج أو التواد، وبعيد تمامًا عن الأصوات الجنسية فضلاً عن خلوه من صنعة التكلف في التلاعب بالصوت وترديد الكلمات، بصرف النظر عن معناها.

ومن الغريب أن تختار هذه الفلاحة المغنية هذه الطريقة في الغناء وتتمسك بها بتأييد من جماهير المستمعين الفقراء.

ولا تحاول أن تتعلم طرق الغناء الأخرى السائدة في ذلك العصر، متفقه في ذلك مع الشيخ سيد درويش وفي نفس الوقت- دون أن تلقاه أو تتعلم على يديه – وهو الموسيقى الذي كفر أيضًا بفن المحترفين، وبدأ ينادي بأن طبيعة المصريين في الغناء أقوى من فنهم، وبينما كان سيد درويش يجهد نفسه للتلحين بطريقة جديدة تخالف مألوف العصر، وتتفق مع المشاعر الثائرة الجديدة التي تجتاح الناس، كانت أم كلثوم تطبق أفكار سيد درويش فعلاً بغنائها الريفي بين الفلاحين.

ويقطع غانم بالقول: لا أريد أن أتهم بالمبالغة إذا قلت إن ألحان سيد درويش الثائرة على الصنعة القديمة، والمتأثرة بالطبيعة والسجية المصرية، وكذلك صوت أم كلثوم وطريقتها في الأداء الطبيعي، كانا يرمزان إلى رغبة حقيقة كامنة في النفوس للانطلاق والتجرد من القيود السياسية، والاقتصادية التي تضغط عليهم، ولما حقق لهم هذا الحلم- من ناحية الفن – سيد درويش في ألحانه، وحققت أم كلثوم في غنائها أقبلوا عليها في إعجاب.

و يضيف غانم :بدأ الأغنياء يسمعون عن أم كلثوم،وكانت الأنباء تتناقل إلى اليهم من خدمهم وأعوانهم بأن هناك فلاحه تغني بصوت ملائكي، وتحرك

الفضول في نفوس بعض هؤلاء الأعيان، فإستدعوا أم كلثوم إليهمَ ليتحققوا من صحة النبأ.

رسمي باشا محافظ دمياط، كان لا يجد في المدينة نوعًا من التسلية يتفق مع مركزه ومنصبه، وفي إحدى نوبات السأم استدعى أم كلثوم إليه واستمع إليها مع ضيوفه، فهزوا رؤوسهم في إعجاب، ولكنهم لم يجسروا على مقارنتها بمنيرة المهدية العظيمة.

وتعود أم كلثوم من مثل هذه الحفلات، بعد أن تأكل طبق مهلبية، أو تقضم قطعة لحم، بعيدًا عن المائدة التي تقام للمدعوين، فهي ليست أكثر من فلاحة لها صوت جميل.. وأين يجتمع مجلس الوزراء في عوامة لها راسية على شاطئ النيل.

وفي أثناء تردد أم كلثوم على بيوت أعيان الفلاحين، بدأت تسمع عن القاهرة، وحدثها توفيق بك زاهر من أعيان السنانية، عن توقعه لنجاحها لو ذهبت إلى القاهرة.

ويطرح غانم رؤية مغايرة حول الفضل في اكتشافها.. يقول: عندما يتحدث الكتاب عن أم كلثوم يؤكدون دائمًا أن توفيق بك زاهر اكتشف موهبتها، ونحن نعرف الآن أن هذه الرواية ليست حقيقية، إن الذين اكتشفوا أم كلثوم هم فلاحو القرى.. ومنهم الخفير الذي أعطاها عشرة قروش لتغني في فرحه، وبائع السجائر أحضرها لتغني في حفلة أقامها مقابل جنيه واحد، وأمثالها من بسطاء الناس، أما الأغنياء، فقد تسلموها من بين الناس يدفعهم الفضول أولاً.. ثم نوع من الحماس للشئ الجديد المثير.

ونجح وفيق بك زاهر في إقناع أم كلثوم بالسفر إلى القاهرة، واستطاع أن يضيفها في بيت آل عبد الرازق في شارع الدواوين.

وكانت فرقة للكشافة النوبية تقيم حفلاً في مقرها بجوار البيت، فأرسلوا أم كلثوم لتغني فيه.

وبدأت أم كلثوم تغني قصيدة وقورة، وغريبة عن جمهور حفلات القاهرة، وما كاد صوتها يرتفع بمطلع القصيدة.

مولاي كتبت رحمة الناس عليك.. فضلاً وكرمًا

حتى ارتفع أحد السامعين صائحًا:

- كتب الغلب علينا يا أختي.

وضج الناس بالضحك.وبكت أم كلثوم

ولو قدر لي أن أكون ناقدًا فنيًا شهد ظهور أم كلثوم لأول مرة في حفلة غنائية عامة في مدينة القاهرة لكتبت في ذلك الوقت النقد التالي لأم كلثوم:

«ظهرت بالأمس مغنية جديدة تدعى أم كلثوم.. أقبل على سماعها جمهور كبير أغلبه من السوريين والأفرنج، وبعض الشبان من أهل القلم والثقافة، وقد وقفت أم كلثوم على خشبة المسرح في ملابس صبي عربي.. البالطو والكوفية والعقال، ومن حولها بطانة من المشايخ وصفهم أحد الأفندية بجواري بأنهم كالأصنام الجامدة، وقد علمت أن هؤلاء المشايخ خالد والد الفتاة الشيخ إبراهيم وأخوها الشيخ خالد وقريب لها اسمه الشيخ صابر، ويدور الهمس بأن هذا الشيخ الأخير طيب أم كلثوم، ولكن أحدًا لم يؤيد هذه الإشاعة بعد.

واستطاعت هذه الفتاة العجيبة أن تغني بغير آلات تخت بصوت واضح جميل قوي، ويبدو أنها تأثرت كثيرًا بتلاوة القرآن الكريم الذي حفظته في الكتاب في قريتها، وهي لا تجيد صنعة الأنغام والتلاعب بها، ولا تعتمد على شيء غير صوتها وصوت بطانتها، وهو مزعج ونشاز، ولا يقارن بصوت أم كلثوم، ويخيل لي أنها لن تستمر في الغناء بصحبة هذه البطانة، وإلا حكم عليها بالفشل، وأسعدني أن أعلم أنها بدأت تعلم العود لتغني هي وتعزف عليه، وربما كان هذا خيرًا لها وللسامعين.

وأجمع أغلب السامعين على سوء اختيار المغنية لأغنيات بعيدة عن ذوقهم،

فقصائدها بعيدة عن الرقة. مليئة بالوقار، وقد غنت بالأمس قصيدة.

مولاي كتبت رحمة الناس عليك.. فضلاً وكرامًا

فسخر منها أحد المستمعين وصاح:

- كتب الغلب علينا يا أختي

ومع ذلك استمرت المغنية الصغيرة في الغناء والذي لا يعلمه الحاضرون أنها ما كاد تنتهي من القصيدة حتى أسرعت إلى حضن والدها الشيخ إبراهيم، وأجهشت بالبكاء.

وعلى أية حال خرج الكثيرون من الحفل، وهم لا يخفون إعجابهم بصوت أم كلثوم، وسمعت أكثر من شاب مثقف يقسم في تهور واندفاع بأن سيكون لهذه الفتاة شأن في عالم الطرب.. وأن طريقتها في الغناء خير من أسلوب الغناء عند منيرة المهدية».

ويضيف غانم: «تلاحظ على هذا النقد – وقد جمعت ما فيه من معلومات وأخبار من صحف، ومجلات ذلك العصر – كأنه يشير إلى جمهور جديد لأم كلثوم غير الجمهور الذي اعتادته هي بين قرى الفلاحين وغير الجمهور الذي اعتاد أن يسمع الطرب، والغناء في القاهرة إنه جمهور السوريين والإفرنج، ثم الشباب المثقف من أولاد الأعيان، وأثرياء الزراعيين في الريف، وهو في حقيقته جمهور الطبقة المتوسطة في المدينة وهي الطبقة التي بدأت تنمو وتتسع مصالحها في مصر».

ويرصد فتحي غانم كيف تولدت العلاقة بين صوت أم كلثوم منذ بدايتها والطبقة الوسطى التي بدأت في نموها، يقول:

«في خلال الحرب العظمى وبعدها، نزح كثير من أبناء الفلاحين إلى القاهرة ليتعلموا ويتحولوا إلى موظفين يقبضون المرتبات الشهرية من الحكومة، كذلك إزدهرت التجارة التي كان يسيطر عليها الأوروبيون، وبعض أبناء الشام».

و يضيف :«هذه الطبقة كانت تعمل سواء في دواوين الحكومة، أو في أعمال التجارة، ولم يكن لديها متسع من الوقت كي تسهر الليل كله في الحفلات والليالي الملاح، مثل الأعيان في سهراتهم في البيوت، أو في الصالات والبارات، بل كان هؤلاء الموظفين والتجار لهم يوم أجازة يستطيعون فيه أن يستمعوا إلى الغناء ولاشك أنهم رحبوا بغناء أم كلثوم السريع – بالنسبة لغناء الآخرين في ذلك الوقت – فضلاً عن اهتمامها بالمعاني التي تؤديها بصوتها، وهو ما يتفق مع مستوى عقلية هذه الطبقة».

وبعد أن يشير غانم الى أن الطبقة المتوسطة هي التي زاملت أم كلثوم في صعودها الفني، يقول: « منذ جاءت أم كلثوم إلى القاهرة، ابتعدت نهائيًا عن طبقة الفلاحين الأجراء إلا في أغانيها ذات المعاني القومية أو الاشتراكية التي تمس مصالح هؤلاء».

ويضيف غانم ، إذا أردنا أن نفهم طابع أم كلثوم الفني منذ أن انضمت إلى الطبقة المتوسطة برحلتها من الريف إلى المدينة، فلابد لنا من دراسة الطبقة المتوسطة التي عاشت فيها أم كلثوم وغنت لها.

وأهم ما يميز الطبقة المتوسطة هي أنها تقوم على أساس مبدأ البحث عن الربح.

والطبقة المتوسطة تتكون من أفراد يعيش أغلبهم في المدن، ويبحثون عن الثروة المادية عن طريق التجارة أو إمتلاك الدكاكين أو المصانع الصغيرة أو الكبيرة أو من احتراف المهن المختلفة كالمحاماة والطب والهندسة، أو من الالتحاق بالوظائف الحكومية.

وأفراد الطبقة المتوسطة يكتسبون كل صفاتهم من السوق، أي: أن المصلحة المادية هي التي تحرك مشاعرهم وانفعالاتهم وعواطفهم وأفكارهم، فهم يثورون وينقلبون إلى وطنيين؛ لأن مصلحتهم المادية تقتضي أن يثوروا وأن يصبحوا وطنيين، وقد يتراجعون في ثورتهم إذا ما وجدوا أنهم سيصابون بأزمات مالية لا يطيقونها،

فإذا ما استقرت أحوالهم حصنوا أنفسهم بالوقار المكتسب، فتحدثوا عن مثاليات الشرف والفضيلة والعفة والتدين.

والفائز في الطبقة المتوسطة، هو من يجمع مالاً أكثر من غيره، لذلك تهتم الطبقة المتوسطة بالحديث عن الشخصيات ومقدار ما تكتسب من مال، أكثر من حديثها عن القيم التي يعيش من أجلها الإنسان. فمثلاً ليس هناك حديث في هذه الطبقة عن الفن بقدر الحديث عن شخصيات الفن وقدرتها على إكتساب المال من فنها. وليس هناك حديث عن الموسيقى والغناء في ذاتهما، بل الحديث عن منيرة المهدية وكم كسبت، وأم كلثوم وكم تكسب.

ولذلك لم يعن أحد بدراسة تطور الموسيقى عندنا، وحصرنا حديثنا عن الموسيقى، في تتبع الشخصيات الفنية التي ظهرت متتالية في هذا المجال الفني.

وبعد أن بدأت أم كلثوم الغناء في القاهرة بسنوات قليلة، جذبت أنظار النقاد إليها فلم يلاحظوا فنها، ولم يدرسوا خطواتها الجديدة في الفن، بل اقتصروا على مناقشة واحدة، وهي : هل تصلح أم كلثوم كخليفة لمنيرة المهدية أم لا ؟

يضيف غانم :«كان حديث الصحف يدور حول هذه المناقشة، فتقرأ مثل هذه القصة »كنا جلوسًا، فطلع علينا نذير يهتف، لقد ماتت منيرة المهدية، بغتنا جميعًا وكان أحدنا يشرب السحلب، فاندفق عليه ومرت برهة قصيرة ترحمنا فيها على السيدة منيرة وذكرنا صوتها الجميل وجهادها في المسرح ثم انتقلنا فجأة إلى الحديث عمن يخلفها، فتحية أحمد، فاطمة قدري، أم كلثوم، نعيمة المصرية، وقام جدال عنيف، ونسى الجميع منيرة، ثم بعد ساعات علمنا أن منيرة المهدية لاتزال على قيد الحياة، وفي الحال نسينا فتحية وفاطمة وأم كلثوم، وعدنا نتحدث عن منيرة المهدية ».

هذه هي الطبقة المتوسطة وهؤلاء هم نقادها الذين استقبلوا أم كلثوم في القاهرة.

وقد انتصرت الطبقة المتوسطة بعد ثورة عام ١٩١٩م عندما أجبرت الملك على

إعلان الدستور، وتثبيت حق هذه الطبقة- من المثقفين أولاد البورجوازية الزراعية - في تولي الحكم، وزادت الطبقة المتوسطة مع انتشار التعليم وحلول المصريين مكان الأجانب في الوظائف. ومع نمو هذه الطبقة المتوسطة كان فن أم كلثوم ينمو ويزداد وينتشر، يضيف غانم: ويلاحظ القارئ أني أربط الفن بشخصية أم كلثوم، فهكذا تشاء تقاليد الطبقة المتوسطة التي جعلت الغناء والطرب وأم كلثوم قمة واحدة وشيئا واحد.

وأصبح فن أم كلثوم وشخصيتها يعكسان معًا رغبات ومثل الطبقة المتوسطة.

فليس عبثًا أن ينفق المذيع وقته في وصف فستان السهرة الجديد الذي تلبسه أم كلثوم ولون منديلها الذي تمسك به أثناء الغناء، كما تتحدث الصحف عن الفراء الثمين الذي تتدثر به، فكل هذه المظاهر مهمة وضرورية في تأكيد مركز الفنان في الطبقة المتوسطة، وبغير الملابس الفاخرة اللائقة، والمجوهرات الثمينة، والمسكن الفخم، والسيارة التي من أحدث طراز، يعتبر الفنان أو الفنانة في أعين الناس في مركز متواضع، وليس جديرًا بالاهتمام.

ومنذ أن بكت أم كلثوم من سخرية أحد المستمعين في حفلتها الأولى في القاهرة، تعلمت درسها الأول عن المجتمع الجديد الذي كانت على وشك الدخول فيه، إنه مجتمع كسب المال وانتهاز الفرصة، والمهارة والشطارة، وسيطرة الفرد، وأنانيته فيكفي أن تجول فكرة عابرة بخاطر أحد المستمعين، حتى يطلقها غير عابئ بشيء، فقد دفع ثمن تذكرته وما دام قد دفع الثمن، فهو حر فيما يفعله، وسيد لنفسه. هذا هو منطق المتفرج. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح أيضًا منطق الفنانة التي جاءت من الريف.

فما دام صوتها جميلاً والناس تعجب به، وتدفع المال من أجل سماعه، فهي حرة وسيدة لنفسها في عالم الغناء. والجمهور يتبعها ويستسلم إلى تصرفاتها في الألحان

كيفما تشاء بنفس الطريق التي كان الجمهور يتبع بها زعماءه السياسيين.

وسيطرت أم كلثوم على سامعيها، فأعلنوا ثقتهم بها ووضعوها على قمة فن الغناء والطرب بغير منازع .

يضيف فتحي غانم :

كان أساس العلاقة بين أم كلثوم وجمهورها، شيئًا يشبه الصفقة.

فأم كلثوم عليها – من ناحية – أن تغني بصوتها الجميل، الأغاني المختلفة بحسب المناسبات، الوطنية والدينية أو العاطفية، تبعًا لمزاج الجمهور وحالته النفسية.. والجمهور عليه – من ناحية أخرى – أن يدفع الحب والمال الذي تطلبه أم كلثوم.

وبهذه الصفقة أصبحت أم كلثوم نفسها، واحدة من أبرز أفراد الطبقة المتوسطة.

وهي على علم أن جمهورها يهتم قبل كل شئ بشخصيتها هي، ممثلاً في صوتها، قبل أن يهتم بكلماتها أو بألحانها، ولذلك فرضت أم كلثوم صوتها على اللحن كما كان لها الحق الأول والأخير في اختيار الكلمات التي تغنيها، وتعديلها مهما كان الشاعر الذي يؤلف أغانيها، شوقي، أو رامي، أو بيرم التونسي.

وهذا هو تفسير اهتمامي بالمغنية في دراسة الموسيقى في هذه الفترة من حياتنا الفنية، فقد خضعت لها الألحان والكلمات.. كما لا نعدو الحقيقة، إذا قلنا: إنها شاركت في تلحين وتأليف أغانيها، بما أحدثته فيها من تغييرات مختلفة.

وليس أدل على ذلك، من سماعك لأم كلثوم وهي تغني اللحن الواحد، فتطيل فيه لمدة ساعتين إذا أرادت وتختصره لربع ساعة إذا أرادت، فصوتها أهم عندها، وعند المستمعين إليها أيضًا من اللحن ذاته، وما يكاد صوتها يرتفع بالغناء حتى تخفت الآلات الموسيقية.

لذلك نشهد في غناء أم كلثوم، معركة فذة بين الصوت من ناحية والموسيقى من ناحية أخرى. وربما كانت هذه المعركة غريبة عند من يفهم الموسيقى على نحو ما

يفهمه الغربيون مثلا. فاللحن الذي يكتبه موسيقى غربي، يجب أن تحترمه المغنية، مهما كان الموسيقي عظيما كـ « بيتهوفن » أو « شوبرت » أو تافها مثل مؤلفي موسيقى الجاز.

والموسيقى يكتب لحنه فتعزفه الآلات بدقه، وتتبعه المغنية في خضوع تام، فصوتها لا يعدو أن يكون آله صوتية من بين آلات الفرقة الموسيقية.. أو إذا كانت المغنية موهوبة، فهي مثل الممثل المسرحي الذي يؤدي الدور الذي كتبه المؤلف، دون أن يتكلم بأفكار وكلمات من عنده.. فللموسيقى السيادة ؛ لأنها الأصل. وقد يغني اللحن الواحد عشرات المغنين فلا يميز الواحد عن الآخر. إلا إخلاصه في أداء اللحن الذي وضعه الموسيقى.

أما أم كلثوم، فقد تعجبها ، أو تعجب الجمهور جملة من اللحن، فتظل ترددها لفترة طويلة لمجرد اللذة التي يشعر بها السامعون من الصوت الجميل، وهو يؤدي هذه الجملة بالذات.

وهذا يعني كما يقول غانم: أن الإنطلاق والحرية اللذين بدأت بهما أم كلثوم في غنائها بين الفلاحين، أصبح إنطلاقًا يعبر عن نزعة فردية، مقياسها هو الشعور باللذة والنغم الجميل يعبر عنه الصوت الجميل.

وبعد أن كانت أم كلثوم نفسها تمثل الطبيعة الجديدة للشعب المصري، وكان النقاد القدامى يهاجمون حلو غنائها من الصنعة أدخلت أم كلثوم الصنعة على غنائها، فقطعت الألحان التي تغنيها وخرجت عنها لتتلاعب بصوتها حسب مزاجها بعيدًا عن اللحن المرسوم الذي وضعه الموسيقى.

وهذه الظاهرة ملموسة في فنون الطبقة المتوسطة، والتي يعبرون عنها بـ« الفن من أجل الفن »، أو بـ « الفن من أجل اللذة أو الجمال ».

واللوم- فيما حدث- لا يقع على أم كلثوم، فهي مغنية ذات صوت جميل، وإنما

يقع اللوم على العقول المفكرة التي زاملتها في رحلتها الفنية، وهي عقول رجال سياسية، ورجال اقتصاد، وأدب، وصحافة.

وكان تشجيع هؤلاء جميعًا، ونقدهم وتقديرهم لأم كلثوم، لا يمثل في غير إعجابهم بالصوت الجميل والربح الوفير الذي يمكن أن تحصل عليه، ولا شئ أكثر من هذا..فكانوا بذلك مثالاً واضحًا لعقلية الطبقة المتوسطة التي لا تفكر إلا في المال، وتكيف معتقداتها ومشاعرها بمقدار ما تحصل عليه من ثروة، ولا أعرف أحدًا من أصدقاء أم كلثوم دفعها إلى مغامرة فنية، والفنانون بطبيعتهم يحبون المغامرة ولو ضحوا بالمال من أجلها، ولاشك أن أم كلثوم كانت لتتردد في الإرتقاء بفنها لو وجدت من ينصحها بذلك، حتى لو كان ذلك على حساب ما تكسب من مال.. ولكن ما حدث هو إحجام أم كلثوم عن المغامرة غير المضمونة فلم تواصل الفن المسرحي الذي إزدهر في مصر، وأقبل عليه الشيخ سيد درويش، ومنيرة المهدية نفسها، وإن كانت اضطرت إليه بعد تحديد ساعات السهر في الصالات بأمر السلطة العسكرية الإنجليزية مما جعلها تلجأ إلى السهر في المسرح.. وكان مفترضا في أم كلثوم أن تبدأ عهد الأوبرا في مصر، وهي قادرة – لاشك في ذلك- على أن تخلقه وتوجده، ولكن أحدًا لم يكن يهتم بتطور الموسيقى وفن الغناء، بل تركز الاهتمام في شخص أم كلثوم واقترن الغناء بالمغنية واستطاعت وبصرف النظر عن لون الغناء، كما استطاع الزعماء الوصول إلى الحكم بأسمائهم بصرف النظر عن المبدأ السياسي.

وهكذا وقف التطور حتى دخلت مرحلة جديدة، هي مرحلة ثورة ٢٣ يوليو، وهي المرحلة التي ارتفعت فيها أم كلثوم إلى ظاهرة قومية للأمة العربية.

رؤية فتحي غانم التي فضلت أن أذكرها كاملة لأهميتها ، هي رؤية لاتسحب من رصيد أم كلثوم الذي تكون تدريجيًا منذ قدومها إلى القاهرة، ويمكن تلخيص

هذه الرؤية في أن الارتقاء الحقيقي للفن والموسيقى والغناء يأتي من جماعيته، وليس فرديته، لكن أم كلثوم اختارت أسلوب الأغنية ذات الطابع الفردي ، ورغم هذا لم يخلو هذا الأسلوب من ميزة يراها كمال النجمي في:« أنه حمل سمة الطابع القومي المشترك في طريقة الغناء»، وترد أم كلثوم على ما ذكره فتحي غانم، وينقله هو أيضًا بقولها متساءلة:

- «هل أنا مسئولة حقا عن اختفاء الغناء المسرحي في مصر ؟

هل صحيح أننا عرفنا الأوبرا والأوبريت في أيام الشيخ سلامة حجازي ومنيرة المهدية ثم جئت أنا فأبطلت هذا الفن المسرحي ولم أستمر فيه ؟»

وتجيب: «إن لي رأيا فيما كان عليه الغناء المسرحي في مصر، إنه لم يكن أوبرا ولا أوبريت لا غناء مسرحيًا بالمعنى المفهوم، كان مجرد أغان فوق المسرح لا تنسجم مع القصة المسرحية، بل هي تقطع سياق القصة، وتقف المغنية أو المغني ليؤديا دورهما، فتصبح الأغنية في جانب، والموسيقى في جانب، والقصة نفسها في جانب ثالث، ولا يربط بين هذه العناصر الثلاثة- الأغنية والقصة والموسيقى – أية صلة غير إجتماعها بالمصادفة في مكان واحد فوق خشبة المسرح».

و تضيف :«لم أرض عن هذا الأسلوب في الغناء، فإما أن تكون لدينا أوبرا وأوبريت بطريقة فنية سليمة، أو امتنع عن الظهور على المسرح، إن وجدت يجب ألا تكون تقليدا للأوبرا الأجنبية».

وتقول :«إن الموسيقى يجب أن تعبر عن روحنا الشرقية ولا يمكن أن نفرض على جمهور المستمعين ذوقا والأسلوب الأوروبي، فذلك لأن جمهور الصور واللوحات الفنية محدود ومحصور في طبقة ضيقة من المثقفين، أما الموسيقى والغناء فجمهورهما هو الشعب كله على اختلاف طبقاته وثقافاته وأعماره.

إن الذي يدرس الموسيقى الأوروبية كالذي يدرس لغة أجنبية يجب أن يستفيد

منها.. ولكن من المضحك أن يطالب بأن تكون هذه اللغة الأوروبية هي لغتنا.

ولقد استمعت إلى الموسيقى الأوروبية وشاهدت الأوبرا الأفرنجية فلم أهتز لها، ولم أحس بصدى لها في نفسي كمصرية شرقية، وأعتقد أن هذا هو شعور الآخرين، فالذين يترددون على دار الأوبرا يهتمون باستعراض الملابس والأزياء والظهور في المجتمعات، أكثر من اهتمامهم الحقيقي بالموسيقى والغناء، وأنا لا أحب هذا التظاهر الذي يعكس مركب النقص وعدم إحساسنا بشخصيتنا العربية».

وتضيف أم كلثوم: «يعجبني الهنود الصينيون، لأنهم يحتفظون بشخصيتهم في موسيقاهم، فعندما شاهدت الأوبرا الصينية استمعت إلى موسيقى وغناء لا يمكن أن يصدر إلا عن الصينيين ويعبر عن حياتهم ومشاعرهم وكذلك الموسيقى الهندية تعتمد على آلات خاصة بها، ولا تحاول تقليد أحد، وهذا هو سبب نجاح الموسيقى الهندية والأوبرا الصينية في العالم كله.. إن كل بلد يجب أن يضيف إلى الموسيقى شيئا من عنده لا أن يقلد غيره .

وأخشى أن يكون المجددون للموسيقى الشرقية يقعون في خطأ التقليد، أو الاقتباس للموسيقى الأوروبية، وأنا أفضل الاستماع إلى السيمفونيات الأجنبية من أصحابها الأجانب بدلا من تقليدها، وحتى الموسيقى الراقصة أفضل الاستماع إليها من مصادرها الأجنبية، ولا أوافق على تقليدها في مصر وتقديمها للجمهور على أنها موسيقى مصرية تعبر عن شخصيتها المصرية».

وتضيف أم كلثوم :نحن نستطيع بالموسيقى الشرقية والآلات الشرقية أن نقدم أوبرا صادرة من تراثنا وحياتنا وتبهر العالم كله، وفكرتي عن هذه الأوبرا تتلخص في النقاط التالية:

- الاعتماد على التراث الموسيقي القديم، ولا أقصد به الألحان القديمة بذاتها إنما نستلهم روحه ونربطها بواقع حياتنا.. وهو يجمع بين الموسيقى والغناء والرقص

في الأندلس وفي أيام العباسيين، وإخراج تابوهات تستمد أصولها من هذا التراث وتؤلف لها قصة مناسبة.

- إعداد أصوات مختلفة لتشترك في الغناء وإعداد كورس غنائي مدرب.
- المحافظة على الآلات الشرقية والمقامات الموجودة في الموسيقى الشرقية، ولا توجد في الغربية، وأن نضع آلاتنا الموسيقية في مصر، لأن الآلات النحاسية والخشبية التي تصنع في الخارج لا تستطيع أن تؤدي ربع المقام.

لو تحققت هذه الظروف كلها، فسترى مولد الأوبرا المصرية كفن حقيقي.

أما قصة المال الذي رأى فتحي غانم أنها حصلت عليه بشخصها بصرف النظر عن لون الغناء فترد عليه قائلة:

أما كلامك عن المال فأقول: إني غامرت بالمال في سبيل فني، غامرت بالمال يوم قررت أن أغني المعاني الدينية والوطنية، لقد نصحني الكثيرون بأن أعدل عن هذا النوع من الغناء، وكانوا يظنون أن الجمهور لا يهتم إلا بالأغاني العاطفية أو الخفيفة، ولكني صممت على تقديم أشعار شوقي وفيها « ريم على القاع بين البان والعلم » وفيها « الاشتراكيون أنت إمامهم » وهي معان وألفاظ بعيدة تماما عن معاني « تعاليلي يا بطة » و« تعالي يا شاطر نروح القناطر».. إن ما قدمت لجمهوري كان يحمل قيمًا دينية ووطنية، وكان من الممكن ألا أنجح في إقناع الجمهور بأن يسمع لمثل هذه الأغاني، ولكني نجحت في ذلك، وهذا هو أعظم إنتصار لي، وكم كنت سعيدة في إحدى الليالي وأنا خارجة من مطعم في الشاطبي، فسمعت وأنا أركب عربتي صوتا يغني « ابا الزهراء » وكان الصوت صادرا من كبارية على الكورنيش، وأحسست أن وصول هذه المعاني إلى ذلك المكان، وإنتشارها على هذا النحو، دليل على إرتقاء الغناء في مصر، فما كان أحد يتصور منذ زمن قريب أن تنتشر بين الناس غير الأغاني الخليعة المبتذلة.

ويفتح تعليق أم كلثوم علي ما ذكره فتحي غانم الحديث عن تطور سماتها الغنائية

منذ تجولها في قري ومراكز وجه بحري حتى مجيئها إلى القاهرة ، فمع نهايات عصر السلطان حسين كامل كان تجولها في القرى لإحياء الموالد، والأفراح بغناء ديني سائد وقتئذ ، ثم السلطان فالملك فؤاد الأول (١٩١٧- ١٩٣٧م) ومعه يمكن القول أنها عاشت ولسنوات في مرحلة البحث عن مشروعها الغنائي الذي سيؤسس شخصيتها الفنية فيما بعد.

ويعتبر المؤرخون أن عهد الملك فؤاد الأول كان تتويجا لتطور طويل للفنون الحديثة في مصر بدأ في عصر إسماعيل، واختفي معه هذا اللون من الفنون البدائية الذي عرفته مصر من قبل مثل خيال الظل والأراجوز، والمقصود بالتتويج هنا أن تلك الفنون خلت في بنية الثقافة المصرية بعد أن ظلت غائبة عنها لوقت طويل وتأسس في هذه المرحلة نادي الموسيقى الشرقي، وعاد يوسف وهبى عام ١٩٢٣م من بعثته في دراسة المسرح في إيطاليا، وقدم في عام ونصف بعد عودته ٣٥ قصة مسرحية، وأصبحت كما قال الكاتب محمد التابعي: « مهنة التمثيل من المهن التي لا يأنف منها الشبان المتعلمون كما كان الحال من قبل » وفي عام ١٩٢٧م دخلت صناعة السينما مصر، ففي القاهرة أسست السيدة عزيزة أمير شركة « إيزيس فيلم.. وأعدت سيناريو باسم نداء الله، أدخلت عليه بعض تعديلات فيما بعد، وأطلقت عليه اسم « ليلي » وفي الإسكندرية أسس الشقيقان إبراهيم وبدر لاما شركة « كوندور فيلم » وأعد سيناريو باسم « قبلة في الظلام » وكان أول السيناريوهات التي اشتغلا بإخراجها »، وفي ٣ نوفمبر عام ١٩٣٠م تم افتتاح معهد فن التمثيل الجديد ليستقبل في شهر أكتوبر من العام التالي أول دفعة دراسية وعددها ٣٠ كان من بينهم رفيعة الشال وروحية خالد، وزوزو حمدي الحكيم، وعبد السلام النابلسي، ومحمد عبد القدوس.

وفي ٣١ مايو عام ١٩٣٤م بدأ البث الإذاعي للإذاعة الحكومية، وكان ضمن

فقرات الافتتاح فاصل موسيقي للآنسة أم كلثوم « أبدعت فيه ما شاء لها صوتها الساحر وفنها الممتاز ».

في هذا السياق كان مشروع أم كلثوم الغنائي يتأسس بدءا من الشيخ أبو العلا، ثم الدكتور أحمد صبري التجريدي، وجاء القصبجي لتغني له من كلمات أحمد رامي عام ١٩٢٤ م:

إن حالي في هواها عجب

أي عجب

ليس يرضيني رضاها

ثم يشقيني الغضب

وبعد هذا اللحن جاء لحن « أن كنت أسامح، وأنسى الأسية » وكان ثورة في عالم التلحين تجاوز كل ما قدمته أم كلثوم من قبل للقصبجي أو لغيره.

وفي معنى الوطنية السائدة حينئذ لم تغرد أم كلثوم خارج السرب، فهي ككل المصريين رأت في سعد زغلول زعيم الأمة ورمزها وفي ليلة ٢٧ أغسطس عام ١٩٢٧م كانت تغني في كازينو البسفور بالقاهرة، وفوجئت أثناء غنائها بأن جميع المتفرجين يهرولون إلى خارج المسرح حتى وجدت نفسها تغني لفرقتها، فتوقفت عن الغناء لتسأل عن سبب هروب الجمهور، فقيل لها: أن الزعيم سعد زغلول وافته المنية في تلك الليلة، فإمتنعت منذ تلك الليلة عن الغناء لفترة من الوقت حدادًا على زعيم الأمة، وعندما عادت مرة أخرى كانت عودتها بقصيدة « إن يغب عن مصر سعد » التي نظمها أحمد رامي ولحنها محمد القصبجي من مقام النهاوند، ويقول مطلعها :

إن يغب عن مصر سعد

فهو بالذكرى مقيم

ينصب الماء ويبقى

بعده النبت الكريم

خلدوه في الأماني

وأذكروه في الولاء

أندبوه في الأغاني

أعذب الشكوى البكاء

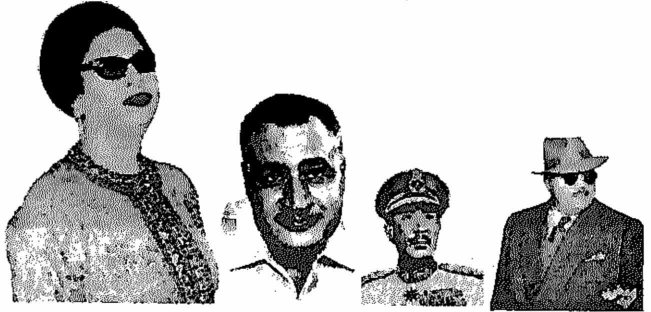
وبيع من الأسطوانة التي حملت هذه القصيدة عدد جعلها تحتل المركز الثاني في توزيع اسطواناتها في ذلك العهد، بعد أسطوانه أغنية « إن كنت أسامح وأنسى الأسية ».

واظبت أم كلثوم بعد ذلك ولمدة طويلة على أن تفتح غناها في كل حفلة بهذه القصيدة. وهو ما يعد امتزاجًا حقيقيًا مع الحالة الوطنية التي كانت تجيش في نفوس وقلوب المصريين، وعلى كل الأحوال لم تقترن هذه المرحلة في حياة أم كلثوم بمقاربة الحاكم ،فالملك فؤاد لم يكن يتحدث العربية، وإنما كان يتكلم الإيطالية والتركية ولم تكن أم كلثوم ضمن جوقة مطربين يسمع إليهم بصفة خاصة، بل كانت واحدة ضمن عشرات الفنانين الذين يحتشدون أحيانًا في ركابه في بعض عواصم المحافظات لتقديم الحفلات الغنائية كما حدث في مدينة المنيا عام ١٩٣٠م ولا يوجد ما يشير إلى أنه كان « سميعًا » عاشقًا للغناء، أو له مطرب مفضلا، وذلك على العكس تمامًا من والده الخديوي إسماعيل الذي عرف عنه عشقه للفن ولصوت عبده الحامولي والمظ، ورعايته الخاصة للحامولي.

هكذا بدأت أم كلثوم..وظلت تفتخر بتاريخها الطالع من المعاناة التى أعطتها فهمًا خالصًا للحياة والوطن والدور، وكلما رأت الفرصة مواتية للتعبير عن انحيازها تفعل.. وتبحث في الكلمات عما يطابق الزمن.. وبالتالي يمكن القول: أن بحثها عن أبطال مثل الذين عاشوا حصار الفالوجا وتحدثت عنهم كما جاء سابقا.. كان طبيعيًا وتلقائيًا قدر تلقائيتها الشخصية كما هو واضح في حديثها عن ذكرياتها.

2

الحب والهجر..
وغدر الملك



تحكي أم كلثوم في مقالها النادر بمجلة الهلال أكتوبر عام ١٩٧١م في الذكري الأولى لرحيل جمال عبد الناصر قصة لقائها الثاني به وقصة علمها بوقوع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م...تقول:

كان المؤذن قد انتهي لتوه من آذان الفجر، حين اتصل بي ابن أختي، وكان يؤمئذ ضابطا بسلاح الإشارة، وقال لي أبشري.. لقد حقق الله سبحانه وتعالي الأمل الكبير الذي طالما كنت تحلمين به.. لقد قامت الثورة.. اسمعي الإذاعة.

كنت يومئذ اصطاف بالإسكندرية، وهرعت إلى الراديو، وسمعت «أنور السادات» بصوته القوي المؤمن، يبشر الناس بقيام الثورة، ويتلو البيان الأول الذي خرجت مصر على صيحته تتنسم أنفاس الحرية.. كان شيئًا كالأحلام، بل أجمل من الأحلام، نهضت على الفور، وأعددت عدتي للسفر إلى القاهرة، اتجهت إلى مطار الإسكندرية، وهناك وجدت بعض أعضاء الوزارة القائمة «يومئذ»، وزارة «نجيب الهلالي».. يتأهبون لركوب الطائرة لتذهب بهم إلى القاهرة.. وسألني أحد الوزراء: لماذا أنت ذاهبة إلى القاهرة؟!، قلت له بمنتهي الصرامة: قل لي أنت: لماذا أنتم ذاهبون إلى القاهرة؟ قلت له هذا؛ لأنني كنت واثقة أنهم ذاهبون يحاولون الوقوف في وجه القدر. ولكن يد الله كانت فوق أيديهم، وبقيت الثورة، واستقرت في أعماق التاريخ، أما هم، فقد ذهبوا مع الريح، ونزلت من الطائرة، فذهبت إلى إدارة الجيش بكوبري القبة رأسًا، لأهنئ الأبطال الثائرين على الظلم والبغي والطاغوت، الذين وثبوا ليضعوا نهاية تاريخية لعهد الظلام، وكنت أتصور، وأنا أتسرب إلى مبني إدارة الجيش أنني لن أعرف منهم أحدا.. ولكنني عندما قلبتُ عيني في وجوه هؤلاء الأبطال، لم ألبث أن تبين أنني أعرف من بينهم تلك الوجوه الحبيبة المؤمنة.. وجوه أبطال الفالوجا الذين احتفيت بهم في بيتي منذ أربع سنوات، وفي طليعتم وجه «جمال عبد الناصر»، وتصافحنا للمرة الثانية، وقد ازداد في عينيه هذه المرة بريق

الإصرار على النصر، وعدت إلى بيتي في القاهرة، واتصل بي الأستاذ الشاعر أحمد رامي، وسألته أن يعجل بنظم تحية أقدمها للثورة لنظم لي الأغنية التي مطلعها:

«مصر التي في خاطري وفي فمي

أحبها من كل روحي ودمي

بني الحمي والوطن

من منكمو يحبها مثلي أنا»

ذكرت أم كلثوم هذه الحقائق بعد قيام الثورة، وأعادت ذكرها بعد عام من رحيل عبد الناصر، غير أنها لم تذكر جوانب القلق التي أعترتها منذ أن سمعت خبر الثورة في الراديو وهي في الإسكندرية..كان قلقها ممزوجًا بالخوف على ما حدث.. الخوف من أن يظهر كما قالت: «من يحاولون الوقوف في وجه القدر».. وتكشف قصة لسعد الدين وهبة كان هو طرفها شخصيًا هذا القلق الممزوج بالخوف.

يقول سعد: «كنت أعمل ضابطًا بمرور الإسكندرية في يوليو ١٩٥٢م، وفي الوقت نفسه كنت أدرس في كلية الآداب، وسمعت البيان الأول للثورة بصوت أنور السادات من راديو سيارة في مدخل الطريق الزراعي بين القاهرة والإسكندرية عند نقطة «حجر النوبتجية»، وكنت قد تلقيت في منتصف الليل إشارة بأن حالة الطوارئ ستعلن في الإسكندرية السادسة صباحًا، وعلي كضابط مرور أن أوفر عددًا من سيارات اللوري تحمل عساكر بلوكات النظام -الأمن المركزي حاليا- استجابة لحالة الطوارئ وكان من الصعب أن نجد سيارة لوري في منتصف الليل؟ ذهبت بالموتوسيكل إلى هاتف المحافظة وسألت عامل الهاتف أن يفهم أكثر من ذلك، هداني تفكيري أن أذهب إلى مدخل طريق القاهرة لأسأل القادمين من القاهرة عما يجري هناك، وسمعت البيان الأول لثورة يوليو، أو الحركة المباركة، كما كنا نسميها في أشهرها الأولي».

يواصل سعد الدين وهبة سرد حكايته: «بدلتي الرسمية، والموتوسيكل الحكومي الذي أركبه ساعداني على التردد على مواطن الأخبار، فذهبت إلى (بوليكلي)، وإلى رأس التين ـ المقر الصيفي لمجلس الوزراء في الإسكندرية وقصر الملك ـ وإلى المنتزه ـ قصر الملك أيضا ـ وفي يوم ٢٦ (يوليو) ذهبت في ركب سليمان حافظ (وكيل مجلس الدولة) من بوليلكي إلى قصر التين، وكان يحمل في يده وثيقة تنازل فاروق عن عرش مصر.. بقيت طبعًا في حديقة القصر، ثم عدت أتقدم سيارة سليمان حافظ، بعدما وقع فاروق على التنازل.. كان ذلك قبل الظهر، وكان محددًا لمغادرته الإسكندرية السادسة مساء، ولم يكن هناك بين جماهير مصر من يعلم ذلك إلا المسئولون طبعًا.. ومن فرحتي أردت أن أذيع النبأ، فذهبت إلى كلية الآداب جامعة الإسكندرية حيث كانت لجان تصحيح أوراق الإمتحان مجتمعة، وكنت منقولًا من السنة الأولي إلى السنة الثانية والنتيجة لم تظهر بعد، وأبلغت من وجدته من الأساتذة: د.إبراهيم شريف.. ود. ثابت الفندي وغيرهما، ثم غادرت كلية الآداب إلى نادي ضباط الجيش بالسلسلة، والقريب من كلية الآداب بالشاطبي (إدارة جامعة الإسكندرية الآن) وهناك وجدت بعض ضباط القلم السياسي أمام النادي، ومن بينهم اليوزباشي سيد فهمي (وزير الداخلية في السبعينات وحتي مظاهرات يناير ١٩٧٧م) فوقفت معه نتناول بالحديث الأحداث الجارية، وفجأة وجدنا سيارة سوداء تقف بالقرب منا، وصوت سيدة تنادي منها:

يا حضرة الضابط.. يا حضرة الضابط..

وأشار لي سيد فهمي:

روح شوف الست دي عاوزه إيه.

ذهبت إليها.. وعندما اقتربت من السيارة، بادرتني بالسؤال:

هو خرج ولا لسه؟

سألتها: من؟

أجابت: الملك.

قلت: لسه، إنها هيخرج الساعة ستة..

فرفعت يدها إلى السماء، وقالت بصوت مرتفع:

ربنا يحميهم ويوفقهم.

يضيف سعد الدين وهبه :«لم يكن الصوت غريبًا، وعندما صاح بهذا الارتفاع، وتأملت محدثتي، عرفتها، كانت أم كلثوم التي شكرتني وانصرفت».

علي الرغم من قلق أم كلثوم على الحركة الوليدة كما سميت آنذاك. وهو القلق الذي صب في خانة فرحتها وتأييدها لها، الأمر الذي جعلها تأتي من الإسكندرية رأسًا إلى مقر الضباط للتهنئة.. على الرغم من هذا إلا أن شيئًا ما حدث كاد أن يعصف بفرحتها بالحدث الكبير، وكان من الإذاعة..

اعتمدت الإذاعة المصرية في الأسبوعين الأولين من عمر الثورة على تقديم رصيدها من الأغنيات الوطنية القديمة التي سجلها كبار المطربين والمطربات ومن تلك الأغنيات «مصر تتحدث عن نفسها»، والتي تغنت بها أم كلثوم لأول مرة عام ١٩٥١م وقصيدة «فلسطين»، و«نشيد الجهاد» وأغنية «أحب عيشة الحرية»، وتغني بها محمد عبد الوهاب قبل عام ١٩٥٢م، وأما الأغنية الوطنية التي سجلت بعد نجاح الثورة مباشرةً فهي قصيدة «صحوة مصر» نظم الشاعر على الجارم، وتلحين محمد القصبجي وغناء المطربة شهر زاد، وكانت في بدايتها الغنائية وقدمت شهر زاد أيضا أغنية «الله أكبر» كلمات محمد على أحمد ولحن حسين جنيد وقدمتها في ١٤ أغسطس. وقدم محمد قنديل أغنية «الراية المصرية» تأليف محمد إسماعيل جاد في ٢٦ أغسطس وكان مطلعها:

هلا لك في الوجود زينة

يا أغلي من ضي عينيا

يا راية مصر يا غالية

تعيش وتسلمي لينا

وقدم قنديل في شهر سبتمبر أغنيته الشهيرة «ع الدوار»

أما أم كلثوم، فقدمت وكما ذكرنا على لسانها من قبل أغنية «مصر التي في خاطري».

وعلي الرغم من هذا الزخم الغنائي الذي تسابق إليه الجميع إلا أنه وبعد أن قررت الثورة تعيين رقيبًا للإذاعة اختفي صوت أم كلثوم من الإذاعة، وكأن بلدوزر داس على تسجيلاتها الغنائية، واختفي صوتها بقرار تصور من اتخذه أنه يملك إحالة فنان بقامة أم كلثوم إلى المعاش، أو حبس صوته الغنائي في صندوق مغلق لا يمكن فتحه!

يقول المهندس محمد الدسوقي ابن شقيقة أم كلثوم: «كنت أعمل في ذلك الوقت مهندسًا في الإذاعة، ولاحظت بعد قيام الثورة أن الإذاعة لم تعد تذيع أغاني أم كلثوم، وكان السبب في ذلك وجيه أباظة (أحد الضباط الأحرار) وأوكلت إليه الثورة في البداية مهمة تسمي «أركان حرب الإذاعة» وشعرت أم كلثوم بأن هناك «حاجة»، وكان أخي الأكبر دسوقي ضابطًا في الجيش، ودفعة المشير عبد الحكيم عامر، فذهب لمقابلته، وقدمه عبد الحكيم عامر لجمال عبد الناصر، وأخبره أخي بأن الإذاعة منعت أغاني أم كلثوم».

ولما علم عبد الناصر أن حجة منع أغانيها هي أنها حسب رأي أركان حرب الإذاعة من العهد البائد، كان تعليقه الشهير: «إذا كنا نستطيع هدم الأهرام، وأبو الهول لأنهما من العهد البائد، يبقي نهدم أم كلثوم».. وعلى الفور تم تصحيح الوضع وعادت أغاني أم كلثوم».

لم يقف تصرف عبد الناصر عند حد تصحيح الوضع واعتبار أم كلثوم صرحًا لا يمكن هدمه كالأهرامات وأبو الهول

يقول محمد الدسوقي: «بعد أيام فوجئت بأم كلثوم تقل لي: عبد الناصر سوف يتعشي عندنا ما تروحش!

قلت لها: أهلًا وسهلًا

وحضر فعلًا جمال عبد الناصر، وتعشي مع أم كلثوم، وكنت معهما، وعرفنا منه أنه معجب للغاية بصوت أم كلثوم، ولا يعمل إلا على صوتها.. وبعد العشاء حضر صلاح سالم، ثم حضر جمال سالم، وبمجرد أن دخل ووجدنا في الصالون.. قال: أنتم قاعدين كده من غير حراسة.. فردت أم كلثوم: الحارس ربنا».

كان قرار أركان حرب الإذاعة بمنع أغاني أم كلثوم من الإذاعة هو جزء من المشهد، الذي بدأت ملامحه في التكوين عبر تفاصيل سابقة أخري تؤكد في مجملها أن عسكرة الفن كعسكرة المشاعر كلاهما يؤدي إلى الجمود، وأنه حين تضع المسئولية في أيد من لا يفهمها على الدنيا السلام ، ويروي الإعلامي الشهير أحمد سعيد رئيس إذاعة صوت العرب من ١٩٥٤ حتى عام ١٩٦٧ ، والمذيع الأشهر في عهد جمال عبد الناصر، جانبًا من هذه التفاصيل التي لا تخلو من الطرافة.

يقول أحمد سعيد:

«في ٣١ مارس ١٩٥٣م توجه إلى مبني الإذاعة ضابط المخابرات فتحي الديب المسؤول عن دائرة الشئون العربية في جهاز المخابرات المصرية لمقابلتي وإبلاغي بقرار إنشاء برنامج صوت العرب وترشيحي للعمل فيه».

صعد الديب إلى مبني الإذاعة حيث يوجد أحمد سعيد، وتصادف أن ثلاثة من كبار المذيعين في تاريخ الإذاعة المصرية كانوا موجودين، وهم جلال معوض، ونادية توفيق وهمت مصطفي، كان الثلاثة يتبادلون القفشات حول آخر ما فعله

الرقيب، وإستمع الديب إلى ما يذكرونه بشغف بالغ سجله أحمد سعيد في أوراقه الخاصة التي قدر لي الاطلاع عليها بشكل خاص، ومنها أنقل حرفيًا :

تردد الجدران الزجاجية للحجرة ضحكات متداخلة يقطعها فتحي الديب وهو يرمق الزميلتين همت مصطفي، ونادية توفيق .

-الديب : الأختين زميلكم .

-جلال معوض : همت مصطفي المذيعة ونادية توفيق البرامج الثقافية ، أصلنا كنا بنراجع اسكريبت السهرة بتاعة أعمال الثورة اللي ح تتذاع الليلة دي .

-يرمق فتحي الديب الإذاعيين الأربعة بنظرة امتزج فيها التعجب بدهاء التلبس : يبقي لازم السهرة فيها حاجة تضحك ، طب ما تضحكوني معاكم.

ويمضي الحوار بين الديب والمذيعين الأربعة كطلقات حوارية سريعة تصل إلى هدفها الحقيقي، ولكن بعد مراوغات ، أما الهدف، فكان تصرفات الرقيب الذي عينته الثورة على الإذاعة ، وكانت ذروة تصرفاته مع أغنية لأم كلثوم طلب الديب أن يعرف قصتها بالضبط .

-أحمد: شوف يا حضرة اليوزباشي ، بعد اللي عمله إمبارح الصاغ الرقيب ، أنا ما ظنش عندكم عقاب لنا في الإذاعة أبشع من إنكم بتخلونا نتعامل معاه يوميًا.

ينفجر فتحي الديب ضاحكًا متسائلاً :ليه هو عمل إيه ؟

-يرد أحمد : قولي له يا نادية .

- نادية : لا ولا حاجة ، بس منع إذاعة غنوة لأم كلثوم .

- فتحي : ماهي أم كلثوم كان لها غنوة بتحيي الملك .

- همت : لا ده منع أغنية ولدي الهدي ، فالكائنات ضياء .

- فتحي : ولدي الهدي ! طب ليه ؟

-همت : مش الثورة لغت الملكية والألقاب .

- فتحي : ده صحيح .

- همت : هوه كمان شاف من حقه أن يلغي قصيدة غنائية .

-تتجه همت مصطفي بحديثها إلى نادية توفيق :مش تحكي يانادية ، ولا أنت محرجة عشان انت مسيحية والحكاية عن مدح أحمد شوقي للرسول عليه الصلاة والسلام .

- يهتف فتحي الديب في استفسار قلق : احكي لي يا أستاذة نادية .

-نادية توفيق: إمبارح كانت على برنامج السهرة قصيدة «ولد الهدي» لأم كلثوم.. وتنفيذًا لتعليمات السيد الصاغ الرقيب كان المفروض نبعت له نص أبياتها بالكامل عشان يراجعه ويعتمده أو يعتمد أي أغنية أخري.

-فتحي الديب: وبعدين ؟

-نادية توفيق: زميلنا الأستاذ أحمد خميس، وهو شاعر أصلاً وجد أن أبيات القصيدة معروفة، وأنها في مدح النبي وتحية مولده، أتاري الصاغ الرقيب بيراجع البرنامج اليومي، واكتشف أنه لم يعرض عليه أبيات القصيدة، وسأل عن المسؤل أمس فقالوا له: أحمد خميس فكلمه وعنفه، وطلب فورًا نص القصيدة، وقرأها مرتين وعلم بقلم في إيده بدايرة، وكتب جنبها كلمتين، ووقع عليها، ثم قال: «يتوقف إذاعتها، وحطوا بدلاً منها حاجة من اللي أنا سبق واعتمدتها؛ عشان نازل لمجلس الثورة».

-فتحي : وإيه اللي حوطه بدايرة من كلامها ، وكتب ايه جنبها ؟.

- نادية : خرجت من مكتبه من غير ما أبص في الورقة ، لقيت باب الأسانسير بيفتح دخلت فيه ورفعت الورقة عشان أشوف اللي عمله ، وأشكر الرب أني ما رفعتها وشفت الدايرة حوالين إيه والكلام اللي جنبها وأنا جوه في مكتبه .

- فتحي : ليه .

- نادية : لا ولا حاجة

-جلال : قولي يا نادية ولا يهمك ، ما انت لازم تترفدي معانا عشان نبقي عاملين حتى في الرفت وحدة وطنية

ويثبت احمد سعيد في مذكراته ان وجه فتحي الديب اكتسي لحظة بضيق غير أنه سرعان ما بدده متسائلاً في لهفة :أعرف بقى الصاغ عبده عمل إيه في ورقة النص .

-أحمد سعيد: قصيدة شوقي فيها بيت الشعر اللي بيقول فيه : «الزمت باب أمير الأنبياء»، وحضرته عمل دايره بقلمه الأحمر حول عبارة أمير الأنبياء وكتب جنبها «لا تذاع ألم تعلموا أن الثورة ألغت الملكية وألقاب الأمراء».

ويسجل أحمد سعيد رد الفعل على فتحي الديب قائلاً: أنه بدا وجهه مجمدًا على مشاعر إنسان منسحق للحظات، تسمرت خلالها حدقتي عينيه ، ثم انفجر في ضحك هستيري! وخرج من جيبه منديلاً ليجفف دموع الضحك ،وهو يقول للمذيعين الأربعة :« قولوا لي: إن التأشيرة دي تشنيعة» .

- وقبل أن يتسابق الجميع في تأكيدها وصحة حدوثها، أوقفهم صوت فتحي الديب هاتفًا :

دي مصيبة ما تخطر على بال!

-يعقب جلال معوض : عشان تعذرنا .

- يتساءل فتحي الديب : واتمنعت القصيدة .

- يجيب أحمد سعيد: أحمد خميس لما نادية أعطت له الورقة هاج وماج ، ودخل على الأستاذ صالح جودت مراقب السهرة إمبارح وأعطاه الورقة ،والأستاذ صالح رجل شاعر، ومهذب، ورقيق اتصل تليفونيًا باللواء الرحماني مدير الإذاعة يستأذنه في ان يطلع له في أمر عاجل ومهم ونزل من عنده بعد ثواني بوعد إلغاء أمر المنع

وعرفنا انه استدعي الصاغ الرقيب وقعد عنده ساعة زمن قال له فيها: إيه ما نعرفش ، إنما خرج من عنده وشه متعكر، ونزل مارجعش غير النهاردة الصبح ، وأرسل لجميع الأقسام تعليمات بأنه لن يقبل مراجعة حاجة إلا إذا اتعرضت عليه قبلها بيوم ما عدا الأخبار والتعليقات .

خرج الرقيب الرائد من الإذاعة بعد ذلك، وتم تعيين عبد المنعم السباعي، وهو شاعر وكاتب أغاني ، ورغم ما حدث نحو أم كلثوم من إجراءات في الإذاعة إلا أن هذه الإجراءات لم تؤسس علاقة تناقض بين أم كلثوم والعهد الجديد، الذي اهتم رمزه الأول عبد الناصر بما حدث لها وقرر على الفور معالجته، بل ذهب إليها كنوع من الاعتذار لها واعتبرها خالدة خلودِ الأهرامات وأبو الهول، ويبقي أن تعبير «العهد البائد» الذي تم استخدمه ضدها يقذف ببعض اللبس في بحيرة التاريخ ويطرح تساؤلاً :

هل كانت أم كلثوم ابنة للعهد البائد بكل عوراته؟ أم أنها تعايشت معه دون اندماج؟

هل كانت تستعد لدخول المرحلة السياسية الجديدة بمفهوم التعايش مع أي سلطة سياسية شأنها في ذلك شأن بعض الفنانين الآخرين؟ أم أنها كانت تنتظر من هذه السلطة شيئًا مختلفًا عما قبل؟

الشاعر الغنائي الكبير أحمد شفيق كامل، أحد شعراء أغنيات أم كلثوم له رؤية خاصة، يحددها في قوله :

«لم تكن أم كلثوم ابنة مخلصة للعهد البائد كما جاء في رواية متع أغانيها.. صحيح أنها غنت في مناسبات خاصة للملك،وأيضًا فعل عبد الوهاب (الفن والشباب)، وبحماس الشباب أنا مثلًا لم أكن مستريحًا لما كتبه رامي لأم كلثوم بعد الثورة مباشرة « يا دولة الظلم، انمحي وبيدي».

يضيف شفيق :« بشئ من التأمل وشهادة للتاريخ أري، أنه لابد من فهم هذه القضية في سياقها الصحيح، وأعني بذلك أن أم كلثوم مطربة، والمطرب ملك لمن يطلبه، كما أن الفن قبل الثورة لم يكن له عقيدة ،بمعني أنه لم يكن هناك تيار غنائي سائد يقود الوطن نحو الاستقلال، فحكاية المطرب ملك لمن يطلبه ،كانت قبل الثورة تحمل معني واحدًا هو «أن الملك موجود وهو الذي يطلب».

رؤية الشاعر أحمد شفيق كامل تجد صداها في صفحات التاريخ..

جاء في صحيفة الجمهور المصري في فبراير ١٩٥٢م، نقدًا لاذعًا لأم كلثوم بسبب حفلتها الشهرية التي قدمت فيها أغنية «رق الحبيب»، وقصيدة «رباعيات الخيام» بينما كانت تعيش مصر جرح معركة رجال الشرطة في القناة مع كتيبة مدرعة من الجيش البريطاني، واستشهد فيها رجال من الشرطة.

قالت صحيفة الجمهور المصري في مقال قاسي، لم يحمل اسم صاحبه الحقيقي:

«ما كنا ننتظر من مطربة الشرق أن تذيع في الظروف الراهنة الفاجعة، غنوتها الغزلية الجديدة الذائبة حنينًا وصبابة وشوقًا، ولا قصيدة عمر الخيام السابحة في بحار الخمر والهوي، ولا تلك الأغنية الثالثة «رق الحبيب» التي سمعها الناس من قبل مرات، فكانت هذه الأغنية على جمالها، أسوأ ما اقترفته مطربة الشرق من الذنوب في حفلتها الأخيرة، فلم يطرب مصري واحد لهذه الأغنية الهزلية المترفة في الليلة التي كانت فيها أرواح الشهداء تصعد إلى بارئها في ميدان المعركة المحتدمة بمنطقة القناة ».

لم يكن مجرد تقديم هذه الأغاني السبب الوحيد في توجيه هذه الانتقادات الجارحة إلى أم كلثوم، ويكشف الناقد والمؤرخ كمال النجمي أنه هو صاحب هذا المقال الذي لم يحمل توقيعه الحقيقي ، وأن الأسباب الحقيقية التي جعلته قاسيًا إلى حد كبير على أم كلثوم أنها غنت مونولوجها الشهير «رق الحبيب»، بناء على

«تليفون» تلقته في أثناء استراحتها في غرفتها بمسرح الأزبكية، وبعد أدائها الوصلتين الأولي والثانية، وكانت إحداهما «رباعيات الخيام»، والثانية أغنية لا يتذكرها،ويقول: إن القصة بحذافيرها كما كان يتداولها الوسط الصحفي حينذاك، هي أن الملك فاروق كان قد هجر الملكة ناريمان، أو خاصمها لسبب من الأسباب، ثم عاد إليها في تلك الليلة بعد الهجر والخصام، فطربت الملكة لهذا الرضا الملكي السامي، وأحبت أن تستمع من أم كلثوم في حفلتها لأغنية تكون لسان حالها (أي حال الملكة) في سرورها بوصال فاروق بعد الهجران، فلم تجد ناريمان أبلغ تعبيرًا وتصويرًا لحالها من أغنية «رق الحبيب» مع أن أم كلثوم كانت قد انقعطت عن تقديم هذه الأغنية في حفلاتها بعد أن قدمتها مرة بعد مرة في سنوات متوالية في عقد الأربعينيات.

يضيف النجمي علمنا نحن الصحفيين ، أن ناريمان اتصلت بأم كلثوم في مسرح الأزبكية، وطلبت هذه الأغنية، ولم تكن أم كلثوم مستعدة لغنائها، بل كانت نسيت بعض كلماتها، فاجتمعت وفرقتها الموسيقية، وملحن الأغنية وقائد الفرقة محمد القصبجي، وأجرت بروفة استعادت بها حفظها للأغنية، ولهذا تأخر رفع الستارة في الوصلة الثالثة.

يضيف النجمي: لم تكن أم كلثوم قد غنت شيئًا من تلحين القصبجي في حفلة عامة منذ سنوات حتى طلبت منها الملكة ناريمان أغنية «رق الحبيب» وهي من أبدع ألحانه، فبكي القصبجي تأثرا من «هذا العطف السامي» على أغنيته، واعتبر الإعجاب الملوكي ردًا لاعتباره عند أم كلثوم بوجه خاص، ولم يفت بكاء القصبجي في تلك الليلة صحافة ذلك العهد، فأومأت إليه بعض الصحف بتلميح يشبه التصريح، وقالت: بكي القصبجي تأثرًا بما حظي به من «العطف السامي».. وعرف أذكياء القراء أن ذلك معناه، أن أم كلثوم، إنما قدمت تلك الأغنية بطلب من القصر

الملكي العامر!

لم تكن هذه الحكاية هي الوحيدة في فصل العلاقة بين أم كلثوم والقصر الملكي، وإذا كان عهد الملك فؤاد الأول اتسم في هذا الجانب بما يمكن وصفه بأن «كل واحد في حاله»، بمغني أن القصر يحكم كما يريد، وأم كلثوم تغني في سياق مشروعها الغنائي، ولم يكن هناك مقصد منها، أومن أحد لتوظيفها لصالح مشروع سياسي ما، نقول إذا كان الأمر كذلك مع فؤاد الأول، فإنها مع ابنه الملك فاروق الأول كان الأمر مختلفا، فالعديد من الشواهد تؤكد أن أم كلثوم غنت له، ففي الساعة العشرة من مساءً الخميس ٢٩ يوليو ١٩٣٧م وبمناسبة رفع الوصاية عنه ومباشرته لسلطاته الدستورية ،غنت قصيدة من لحن رياض السنباطي وكلمات الشاعر أحمد رامي يقول مطلعها:

جل من هناك بالملك السعيد / يا مليك النيل في العصر الجديد / نعمة أسبغها الله على / عهدك الزاهي وواديك الرغيد .

وفي مذكراته «فاروق كما عرفته» يقول كريم ثابت المستشار الصحفي للملك فاروق: إن فاروق لم يكن يميل إلى الموسيقي العربية، والغناء العربي، ولا يعني بسماعها، ولم يكن يحب سوي بعض «الطقاطيق» العربية، إما على سبيل التسلية أو لأنها كانت تحتوي على تحية له في الحفلات التي كان يشهدها، ويروي كريم ثابت عن فاروق: «لما ذهب مرة إلى النادي الأهلي، ليسمع أم كلثوم في حفلة من حفلاتها ذهب إليه في الحقيقة لمأرب سياسي، وليس لسماع كبيرة مطربات الشرق، فقد كانت وزارة الوفد التي تألفت في ٤ فبراير ١٩٤٢ متربعة يؤمئذٍ في دست الأحكام، وقد ذهب في مناوأتها لفاروق إلى منع إذاعة القرآن الكريم في قصر عابدين في أثناء شهر رمضان ،ففكر أحمد حسنين «باشا» – وكان رئيسًا للديوان الملكي – مع بعض أصدقائه في مناورة يغيظون بها الوزارة، وهي أن يذهب فاروق إلى النادي الأهلي،

بينما أم كلثوم تغني، والإذاعة «مفتوحة»، فيردد الراديو صدي أصوات التصفيق والهتافات وحدث ذلك فعلاً.

ويضيف ثابت: «في تلك الليلة أنعم فاروق على أم كلثوم بنشان الكمال من الطبقة الثالثة، وبعد أربع سنوات من ذلك التاريخ وقع نظره في إحدي المجلات على صورة تمثل أم كلثوم جالسة في فندق «سان استفانو» إلى مائدة واحدة مع السيدة زينب الوكيل، فغضب لمجالستها حرم مصطفي النحاس «باشا» عدوه السياسي في ذلك الحين، وجلب بواسطة بوليسه الخاص الصورة الفوتوغرافية الأصلية للصورة المنشورة في المجلة، وأرسلها إلى لأطلع عليها « أم كلثوم »، وأعاتبها على ذلك فلم أفعل»، يضيف ثابت « حاولت أن أقنعه بأن أم كلثوم ليست موظفه في القصر، فتقاطع من يقاطعه القصر، فأبي أن يقتنع بهذا الرأي، ولم يرض عنها بعد ذلك.

ويزيد كريم ثابت في قوله عن الملك فاروق :« كان يعتقد أن صوته جميل، وأن له «سحبة» لا يدركها كثيرون، وأنه يحسن الغناء»، ويعلق ثابت :« الحقيقة أنه لم يكن صوته جميلاً، ولم يكن له «السحبة» التي أراد أن تكون له، ولم يكن يحسن الغناء، بل لم يكن له أقل إلمام بأصول الغناء وقواعده» ، ويضيف ثابت : «قال لي مرة بعدما صاحب أنشودة كانت تذاع بالراديو: «هل تعرف يا كريم، أنه لو لم أكن ملكًا لأمكن أن أكون مغنيًا « فقلت له على الفور: لا معلهش يا مولانا.. خليك ملك أحسن!».

يضيف ثابت :«وكان قبل ذلك بمدة قد قال لي: «لو لم أكن ملكًا لاستطعت أن أكون ميكانيكيًا».

ومن واقع التسجيل الصوتي للحفل الذي يشير إليه كريم ثابت، والذي يحتفظ به المؤرخ الموسيقي د. نبيل حنفي محمود، ومن واقع ما ذكرته أم كلثوم لمجلة

الصباح في عددها الصادر يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٤٤م، يأتي. نبيل حنفي بالقصة كاملة قائلاً: « كان هذا الحفل في مساء الأحد ٢٤ سبتمبر عام ١٩٤٤م وكانت مناسبته حلول عيد الفطر المبارك، وكان مكان الحفل حديقة النادي الأهلي في حي الجزيرة بالقاهرة، وغنت مونولوج (رق الحبيب)، وقالت أم كلثوم لمندوب مجلة الصباح عما حدث في تلك الليلة، وعن إحساسها قبل أن تغني: «لا أكتمك أنني قبل أن أبدأ الغناء في تلك الليلة النادرة الوجود، كنت عادية. شأني في ذلك كشأني في كل حفلة أغني فيها، وكنت قد أعتزمت بمناسبة حلول عيد الفطر أن أغني في الوصلة الثانية، الأغنية المحبوبة للجمهور «يا ليلة العيد أنستينا.. وجددت الأمل فينا» وكان الجو جميلاً مبهجًا للنفس، والجمهور الذي حضر الحفلة كان نخبة ممتازة» ، ثم تصف أم كلثوم ما كان من أمر رئيس الديوان الملكي أحمد حسنين باشا، والذي كان جالسًا بالصف الأول قبالتها في ذلك الحفل، عندما مال أحدهم ليهمس بحديث في أذنه بينما كانت أم كلثوم تسترسل في غناء طقطوقة «يا ليلة العيد»، وبعد أن نهض رئيس الديوان الملكي، جاء الأستاذ فكري أباظة ليعلن- كما هو واضح في الشريط المسجل للحفل – أن جلالة الملك قد شرف الحفل، وتصف أم كلثوم لمجلة الصباح شعورها إزاء تلك المفاجأة قائلة : «وقبل أن أتوقف عن الغناء دوي الهتاف من الشباب الممتلئ بحب الفاروق حامي وادي النيل، وسرعان ما تملكتني فرحة لا أقوى على تصويرها، ورهبة لم أشعر بها طيلة حياتي الغنائية، ونظرت بعيني وأنا في هذا الموقف لهذا الحب العميق الذي تصوره قلوب تكاد تجن بحب الفاروق، وتجلت أمام ناظري الذات الملكية في مشيتها نحو الصف الأول ترعاها العناية الصمدانية، ووقفت أمام الميكروفون، وأمام الملك، وهنا وهبتني العناية الصمدانية من لدنها قوة وشجاعة فواصلت الغناء». ويوضح د. نبيل: «كان ما غنت أم كلثوم في تلك الليلة، وأبدعت فيه من واقع الشريط المسجل، المقطع الأخير من طقطوقة

«يا ليلة العيد»، والذي تترنم فيه بالشطرات التالية :

يا نيلنا ميتك سكر / وزرعك في الغيطان نور

يعيش فاروق ويتهني / ونحيي له ليالي العيد

وإزاء الإعجاب الشديد من جمهور الحفل وتصفيقه المتواصل أعادت أم كلثوم ذلك المقطع، وكررته مرات عديدة، وعندما اختتمت تلك الوصلة، فإنها كانت من الذكاء بمكان عندما اختتمتها بمقطع أغنية «حبيبي يسعد أوقاته»، وهو المقطع الذي تتغني فيه : «والليلة عيد / ع الدنيا سعيد، وعز وتمجيد لك يا مليكي».

وعما حدث بعد الحفل تستكمل أم كلثوم حديثها لمجلة الصباح، قائلة: «ثم نزلت الستار، ونظرت من طياتها إلى جلالة 'الملك، فوجدت جلالته في مكانه، وجاءني من يبشرني بالمثول بين يدي جلالته، وخطت قدماي نحو المكان السامي الذي تجلت فيه الديمقراطية بأسمي معانيها، ولثمت اليد الكريمة، لحظات مرت سراعًا كانت هي السعادة كلها، بل تقدير علوي سينير الطريق إلى آخر نسمة في الحياة.

وتقول مجلة الصباح في وصف ما حدث بعد أن صافحت أم كلثوم يد الملك وقبلتها: »أنبأنا الأستاذ مصطفي أمين بك (الكاتب الصحفي الراحل) في المذياع، تعطف جلالته السامي بمنح الآنسة أم كلثوم إبراهيم نيشان (الكمال)، ويحمل شريط الحفل المسجل صوت مصطفي أمين يزف الخبر ، ويحمل كلمة ارتجلتها أم كلثوم من وحي الموقف، وقالت فيها: «سيداتي سادتي.. تعطف صاحب الجلالة مولاي الملك المحبوب بتشريفه هذه الحفلة فوق ما تستطيع أن تعبر عنه نفس، فإني لا أجد من الكلمات ما أعبر عن شعوري إزاءه، وإني أضرع إلى الله أن يمد في عمر الفاروق، ويحفظه للبلاد ذخرًا وللفن نصيرًا »(*).

(*) – جريدة القاهرة – العدد ٢٥٣ – ١٥ فبراير ٢٠٠٥م مقال «أسطورة حفلات الست» د. نبيل حنفي محمود.

هل يؤكد ما سبق مقولة الشاعر أحمد شفيق كامل: «المطرب ملك لن يطلبه، والملك هو الذي كان يطلب»، وبالتالي قدمت أم كلثوم بعضًا من فنها بأوامر ملكية؟. أم أنها كانت تقدم ما تقدمه وتنتظر الرضا الملكي أولاً وأخيرًا؟. والاحتكام في هذا إلى ما حدث في حفل النادي الأهلي بحضور الملك، وما قالته أم كلثوم عنه يعطي التباسًا أكثر مما يعطي إجابة شافية، فأم كلثوم لم تكن مقاومة لسلطة سياسية وإنما فنانة لها مشروع غنائي تجاوب معه الشعب بكل طبقاته، وإذا كانت هي نظرت إلى الملك فاروق بوصفه حاكما له الطاعة حتى يسير مشروعها كما تحب، فإن الملك وجد في حفلتها الغنائية الوسيلة المثلي لمخاطبة الشعب وكسر طوق الحصار المفروض عليه من حكومة الوفد، ولما وجدها تجلس مع زينب الوكيل زوجة مصطفي النحاس غضب عليها، ولم يرض عنها، ويعود هذا التفسير إلى القول بأن الملك هو الذي كان في احتياج إليها ويشير إلى ذلك سعد الدين وهبه بقوله:

«هناك من الحكايات العديدة التي روتها لي أم كلثوم ما يؤكد أنها لم تكن من الأصل إحدى المفضلات لدي الملك،وكانت هي تحاول قدر ما تستطيع صنع المواقف التي تؤكد استقلالية شخصيتها، كان الملك ذات مرة موجودا في الحلمية بالاس (أحد النوادي الليلية في الأربعينيات) وتصادف وجودها، وطلبها على مائدته، لكنها رفضت، وحين شعر أنه فقد بعضًا من شعبيته، منحها نيشان الكمال حتى يكسب رضا الناس، وهذا النوع من النياشين كان مخصصًا للأميرات ولزوجات رؤساء الحكومة، ولأن أم كلثوم فلاحة ثارت أرستقراطيات المجتمع، وقررن إعادة الأوسمة التي حصلن عليها احتجاجًا على ما فعله الملك، لولا أن السيدة صفية زغلول أرملة الزعيم سعد زغلول ساندتها وهنأتها، وكانت هي الأخرى حاصلة على وسام معها».

يضيف سعد: شوف.. لا يمكن التقاط واقعة من هنا، وأخرى من هناك للتدليل على شيء غير حقيقي. لم تكن أم كلثوم مغنية قصر، أو مغنية باشاوات، هي ظلت حتى آخر يوم في حياتها تذكر بكل فخر وحنين أنها بنت طماي الزهايرة، فلاحة، من أصول فقيرة، لا تنتمي إلى الملوك في شيء ،كما أنها وهي صغيرة كانت متمردة وعنيدة جدًّا،هي حكت لي وأنا أعد فيلمًا سينمائيًا عنها لم ير النور، أنها كانت تغني في الأزبكية وهي صغيرة، وهتف الجمهور: «يحيا سعد.. يحيا سعد»، وطالبها بأن تغني لسعد، فرفضت، وصعد أبوها إلى المسرح وضربها بالقلم، حتى تلبي رغبة الجمهور لكنها رفضت وبكت، ودخلت خلف الكواليس، ولما سئلت بعد ذلك، أجابت: أنا أحب سعد، لكن ما أغنيش بالأمر، هي حكت لي إن الجمهور كاد يتهجم عليها، وأن صفعة أبيها كانت لتهدئة الناس، ورغم ذلك صممت على موقفها، «كرامة يعني زيادة عن اللزوم»، أما حكاية أغانيها للملك ، فهي حاجات «هايفة»، لا تذكر.

ويعطي المؤرخ كمال النجمي صورة مكملة لما ذكره سعد الدين وهبه، وذلك من باب الحس الوطني الذي تمتعت به قائلًا:

«غنت أم كلثوم قصيدة «سلو قلبي»، لأحمد شوقي في الأربعينات (القرن الماضي) وقال فيها:

وعلمنا بناء المجد حتى أخذنا إمرة الأرض اغتصابًا

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابًا

حين غنت أم كلثوم هذه الأبيات، كانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها، ونهض الشعب المصري يعرض على المحتلين مطالبه الوطنية في جلاء قواتهم على أرضه، واستكمال استقلاله، وكانت كلمة «المطالب» تعني المطالب الوطنية، ولهذا كان البيت الذي يذكر فيه شوقي، وما نيل المطالب بالتمني يثير

حماسة مستمعي أم كلثوم، فيعلو هتافهم وتصفيقهم في كل مرة يستمعون فيها إلى هذا البيت الذي لحنه السنباطي تلحينًا حماسيًا رائعًا، وهكذا اختلطت الحماسة الوطنية بالأشواق الدينية في هذه القصيدة التي كانت باكورة الحقيقة لشعر شوقي على حنجرة أم كلثوم، وتحولت أم كلثوم إلى داعية من دعاة الجلاء بسبب هذه القصيدة التي ألهبت حماسة الجماهير حتى قال محمد عبد الوهاب تعليقًا عليها آنذاك: «يصفق الجمهور»، ويهتف لأم كلثوم، كأنها زعيمة وطنية لا مطربة».

يضيف النجمي:

«عقب الحرب العالمية الثانية، انشغل الرأي العام في مصر بقضية الوحدة بين مصر والسودان، وفي عام ١٩٤٦ اختارت أم كلثوم من ديوان شوقي قصيدة كان قد نظمها في العشرينات، عندما أطلق الشبان الرصاص على سعد زغلول لاعتزامه السفر إلى لندن، من أجل مفاوضة الحكومة البريطانية حول قضية الجلاء، واستقلال السودان، وتبدأ القصيدة بفرح لنجاة الزعيم والتهليل لشفائه من جرحه البسيط:

نجا وتماثل رباتها ... ودق البشائر ركبانها

تحول عنها الأذى وانثني ... عباب الخطوب وطوفانها

ثم يمضي في أبياته البليغة:

وفي الأرض شر مقاديره ... لطيف السماء ورحمانها

بدأت أم كلثوم غناءها بهذا البيت، ثم ألحقت به الأبيات التي قالها شوقي عن السودان، وكان سعد زغلول يعتزم أن يجعله في جدول المفاوضات، ويرى كمال النجمي في ذلك، أن أم كلثوم كانت تبحث عن كلمات أغانيها عما يطابق الزمن، وفهم طبيعة المراحل الاجتماعية والسياسية، وإذا كان مزاج السميعة قد تبدل أثناء الحرب العالمية الثانية، كما سبقت الإشارة، فإن أم كلثوم فهمت هذا التحول

بطريقتها، ومزجته بما يثير الحماسة.

يتداخل الشخصي بالعام لدي أم كلثوم في هذه المرحلة ،فإذا كانت قد حصلت على نيشان الكمال، فإن هذا يدخل في نطاق التقدير العام لما قدمته من فن، غير أن سلب ما هو طبيعي لدي الإنسان لابد أن يشعر معه بالقهر مهما كان التقدير العام من حوله، وأم كلثوم عاشت الحالتين، حالة التقدير العام لفنها،وحالة القهر الشخصي لمشاعرها، والذي تجلي في رفض الملك زواجها من خاله شريف باشا صبري بعد أن تبادلا الحب ، وأيضًا زواجها من الموسيقار محمود الشريف ، وهناك تفسيرات كثيرة لقصتها مع شريف باشا صبري، منها ما قيل أنها كانت انتصارًا للبنت الفلاحة البسيطة التي استطاعت بجاذبيتها الجديدة أن تكسر الحواجز ، وتفرض على الأسرة المالكة سطوة من بنت طالعة من هؤلاء الفلاحين الذين هم في نظر هذه الأسرة خدامًا وأجراء ليس أكثر، ولم يخرج رفض الملك عن هذا التفسير .

وإذا كان هذا هو سبب رفض الملك فاروق لزواج أم كلثوم من خاله شريف باشا صبري ، فلماذا رفض زواجها من الموسيقار محمود الشريف وهو من نفس طبقتها ؟! وحسب روايته في مذاكراته الشخصية لقصة غرامه مع أم كلثوم سنصل إلى دلالات عميقة ،تكشف إلى أي مدى كانت تنظر إلى القصر والملك بعدم الارتياح.

يصف الشريف قصتهما معا بوصف رومانسي حالم: «لم نترك مكانا في ضواحي القاهرة إلا وفيه بصمات سهراتنا وخمواتنا، عشنا أياما كالحلم، كانت تبدو وكأنها فتاة في سن العشرين، تحرك في داخلها الحب معه كل إنسانيتها وتغير كل شئ ، الحياة، الألوان، تغيرت حتى ألوان ملابسها، حتى نقابة الموسيقيين لم تسلم من هذا التغيير فقد خلع مبناها زيه القديم ولبس ثوبًا من طلاء جديد ،كنا كعصفورين نحلق في سماء ربيع دائم تملؤه الخضرة والحب، وكان شعارنا كما عبرت عنه أم كلثوم «أنا وأنت والحب وبس».

وفي موضع آخر يقول: «في جلسة من جلسات الصباح الخالدة، وعلي إحدى روابينا الخضر كانت تطعمني، وبدأ اهتمامها بي في شكل غير عادي، قالت لي بالحرف الواحد: «هل تسمح لي أن أتولي الإشراف على حياتك وشئونك. فأنا أراك تنتحر»، لم يكن يمر يوم دون أن نلتقي، اعتادت قدماي على فيلا أم كلثوم، أحيانًا أكون ضيفًا على الغداء، أو ضيف سهرتها الوحيد، كل منا يفرغ ما في جعبته من أسرار، ويتسابق كل منا في أن يفتح قلبه للآخر، حتى أننا كنا نتشاجر كالأطفال حول من يحكي قصته قبل الآخر». «كنت أختار لها فستان السهرة والبروش والإيشارب، وكان كلما اقترب ميعاد حفلتها الساهرة الشهرية تزداد قلقًا وخوفًا وترددًا ، كانت تفكر في قرار الاعتزال بجدية».

ويحدد الشريف بداية تعارفهما من خلال مجلس نقابة الموسيقيين وعبر الإذاعي محمد فتحي، ويشير إلى أنها أعطته كلمات أغنية «لسه فاكر»، وأعد لحنها بالفعل، واستمعت إليه دون تعليق وهو ما يعني عدم تحمسها له، ثم أسندته فيما بعد لرياض السنباطي.

يضيف الشريف: «بعد عام ونصف بين رعشات الأيدي واضطراب الشفاه، ولم يكن أحد خلالها يعرف حقيقة العلاقة.

ماذا بعد كل هذا الحب؟ سألتها وهي في قمة السعادة: إيه رأيك؟

ـ لم أكمل ما أريد قوله.. قالت: موافقة.

ـ قلت لها: موافقة على إيه؟

ـ ردت ببديهة حاضرة: موافقة على اللي انت بتفكر فيه.

ـ وإيه اللي أنا بافكر فيه؟.. ضحكنا. ثم بادرتها قائلًا: وفاطمة (زوجة الشريف وكانت مريضة)

ـ مالها فاطمة؟

لا أستطيع التخلي عنها،وأنت تعرفين محنة مرضها، وليس لها في العالم سواي.

قالت: بالعكس، إبقاؤك على فاطمة شيء يرفع مكانتك في نظري، ويزيد اطمئناني إليك؟ أنا عارفة الموقف كويس.

وبعد لحظة صمت أردفت قائلة: لعلمك، ولو أني كنت عايزة أعملها لك مفاجأة، أنا منذ أيام اتصلت بصاحب العمارة المجاورة للفيلا، وحدثته بخصوص شقة في العمارة تنقل فيها الأسرة علشان يبقوا كلهم جنبنا، وعشان تبقي جنبي، وجنبهم طول الوقت.

قلت: إذن متي؟

قالت: سأرسل إلى أخي خالد، واستدركت الموقف بقولها:

- ليس بقصد المشورة، ولكن من باب المجاملة، حتى أشعره باهتمامي به وبأنه في الصورة.

يضيف الشريف: تمت الخطوبة في ليلة رأس السنة الهجرية ووضعت دبلة الخطوبة في يدها، نقشت على دبلتي «لا إله إلا الله» وعلي دبلتها «محمد رسول الله». ورنت أول زغرودة في فيلا أم كلثوم، وحضر الخطبة الإذاعي محمد محمود شعبان (بابا شارو)، ومن الموسيقيين محمد عبده صالح عازف القانون في فرقتها، وأمير الكمان أحمد الحفناوي، وصديقي الموسيقي عبد الرءوف عيسي، ومنشد الكورال محمد نبيه، وكانت هديتي لها خاتمًا ماسيًا مطعمًا بالبلاتين كان في إصبعي، كانت قد أعجبت به، فأهديته إليه على الرغم من أنه خاتم رجالي، أما هديتها لي فكانت ساعة والدها الذهبية القديمة، وهي ساعة سويسرية لها غطاء من الجلد.

رغم تكتم الخبر إلا أنه تسرب إلى صحيفة «أخبار اليوم»، ورن جرس الهاتف في الفيلا، وكان المتحدث مصطفي أمين.

- مبروك!

- شكرًا.

ـ الخبر صحيح إذن.

ـ نعم.

ـ متي يتم الزواج؟

ـ قريبًا.

ـ وهل تعتزلين الغناء؟

ـ الأمر له وما يريد.

في صباح اليوم التالي كتبت أخبار اليوم القصة تحت عنوان «زواج أم كلثوم» بقلم الصحفي مصطفي أمين.

يشير الشريف في مذكراته، وفي أكثر من موضع إلى أن عمق العلاقة بينه وبين أم كلثوم وصل إلى درجة مبادرتها أكثر من مرة لزيارة شقته في حي السيدة زينب، وتعارفها عن قرب على أمه وشقيقته وزوجته فاطمة التي تعاني مرض القلب وحار الأطباء في تشخيص علاجها، وتعمقت العلاقة مع الأسرة إلى حد أن أم كلثوم كانت تفضل وجبات الطعام من أخيه حسن، والذي اشتهر بها، ويشير أيضًا إلى أنها في إحدى زياراتها لمنزله، لم يكن هو موجودًا في المنزل حيث كان يقوم بتسجيل أغنية في الإذاعة، وفوجئ بعد عودته أن سيارة أم كلثوم موجودة أمام منزله، والناس تلتف حولها، ولما صعد مسكنه وجدها بالإضافة إلى عدد من الأطباء الآخرين منهم الدكتور حسن الحفناوي صديق عائلته، وزوج أم كلثوم فيما بعد، جاءوا جميعًا لإجراء الكشف على زوجته فاطمة، وكان الشريف السبب في تعريف الحفناوي على أم كلثوم.. كما يشير إلى أنه ومع تفاقم حالة زوجته المرضية، وتأثير ذلك سلبيًا عليه، نصحه عبد الوهاب بأن يبحث الأمر ويضع حدًا لذلك، في إشارة من عبد الوهاب بأن الشرع يجيز له وضع حد لحياته مع زوجته ما دامت هي مريضة، وهو بهذا القدر من السوء، ورفض الشريف هذا، وأثار هذا إعجاب أم

كلثوم وعقبت عليه قائلة: «أنت بتكبر في نظري أكثر بسبب تمسكك بفاطمة».

الرومانسية الحالمة التي يحكي بها الشريف، وكلمات الغرام التي ينقلها عنها تطرح تساؤلا لماذا الشريف بالذات هو الذي استطاع أن يخطف قلبها؟ هل جاء كرد فعل منها على رفض الملك لزواجها من خاله شريف باشا صبري، بمعني أنها بحثت عن البديل من طبقتها التي خرجت منها؟ أم أن شخصية الشريف حملت سمات أثرت فيها على هذا النحو؟.

الفنان كمال الطويل يجيب على هذا السؤال بإيجاز، لكنه قوي ولافت ، يقول : « محمود شريف حقيقة في حياة أم كلثوم لا يستطيع أحد إنكارها، وإن تأثيره عليها كان قويًا بالغًا، لأنه كان شخصية «خشنة» تختلف عن الشخصيات المحيطة بها، وكانت هذه النقطة بالتحديد مصدر انجذاب أم كلثوم نحوه».

المهم، كيف كانت ردود الأفعال على خبر الخطوبة الذي جاء في أخبار اليوم؟

ينقل الشريف ردود الفعل على أصعدة مختلفة بدءًا من القصر الملكي مرورًا بمحمد القصبجي المولع بحب أم كلثوم دون استجابة منها، انتهاءً بأم كلثوم نفسها، ويشير بطريقة عابرة إلى حكاية مجهولة عن مقتل ضابط في رأس البر، وتثير هذه الحكاية علامات استفهام لا يقدم الشريف نفسه إجابة عنها.

عن القصبجي يقول الشريف: « كان يحب أم كلثوم حبًا مكتومًا لم يبح به، وبعد إعلان الخطوبة جاء إلى فيلا أم كلثوم، وكنت أقضي معظم أوقاتي معها، يحمل مسدسًا مهددًا بقتلي إن لم أفسخ الخطوبة، تقدمت أم كلثوم منه وسحبت المسدس من يده ثم طردته»، يضيف الشريف «كان أخطر حب لأم كلثوم هو حب القصبجي، فقد كانت تدركه بنفسها وتتجاهله، ولكنه كان يطاردها في صمت». ويكشف الشريف: «حكي لي الفنان أحمد الحفناوي أن القصبجي كان يشكو لي من أنه يتكلف يوميًا خمسة جنيهات ثمنًا لتاكسي لكي يتتبع باستمرار خط سيرنا أنا وأم

كلثوم » ويضيف: « كانت هي تعرف ذلك، وتقصد عندما تراه يتتبع مسيرتنا أن تقطع القاهرة بسيارتها طولاً وعرضًا، حتى ترهقه، كانت تقول لي: خلينا نحرق قلبه ع الفلوس اللي بيدفعها عشان يبطل يتجسس على الناس»

أما رد الفعل على صعيد القصر الملكي فيقول عنه الشريف: في صباح اليوم التالي للخطوبة، وبعد أن نشرت الخبر «أخبار اليوم». دق جرس الباب في فيلا أم كلثوم وكان القادم مصطفي أمين، جاء يقول لأم كلثوم: إن الملك فاروق غير راض عن تلك الخطوبة، أجهشت أم كلثوم بالبكاء، وبادرت مصطفى أمين بقولي: دي خطيبتي أمام الله والرسول والناس، ما له الملك ومالنا؟

-رد مصطفي أمين : أحسن لك تنفذ الرغبة الملكية.

-قلت بتحد: ما فيش حد يقدر يفرق بيني وبين خطيبتي.

-جففت أم كلثوم دموعها، وقالت موجهة كلامها إلي:

-أمرنا لله يا محمود، مافيش نصيب، لازم تنفذ الأمر.

-ليه يا ثومة.

-أنا خايفة عليك.

- من إيه.

-أحسن يقتلوك.

-يقتلوني إزاي؟

-زي ما قتلوا الضابط بتاع رأس البر.

-سألت مصطفي أمين:

-إيه حكاية الضابط ده؟

-رد قائلًا: دي حكاية ثانية مش موضوعنا دلوقتي.

كتبت «أخبار اليوم» في اليوم التالي، أن أم كلثوم فسخت الخطوبة عندما علمت أن محمود الشريف له زوجة أخري لم تكن تعلم عنها شيئًا، ويعلق الشريف: «لم أعلق بكلمة، ولم ترد أم كلثوم على الرغم من علمها بالحقيقة كاملة، فقد أثرت أن تنحني برأسها إلى أن تمر العاصفة».

بعد فسخ الخطوبة بأشهر أصيبت أم كلثوم بجحوظ في عينيها نتيجة نشاط متزايد في الغدة الدرقية،ويحكي الشريف نقلاً عن صديقتها الأميرة سميرة أباظة، أن أم كلثوم كانت تتنزه في إحدى الأمسيات على شاطئ النيل في الزمالك، وهمت بأن تقذف بنفسها في النيل، لكن قريبتها وسكرتيرتها الخاصة سنية إسماعيل التي كانت برفقتها هرولت إليها، وعادت بها إلى المنزل.

عاد محمود الشريف إلى محرابه وإلى ألحانه، لا يصرح بشئ إلى الصحفيين: «لم أذكر أم كلثوم التي كنت أحترمها وأقدرها، لم أذكرها بكلمة سوء، وطويت الحلم الذي كاد أن يجمعنا لنعلن من جديد ميلاد المسرح الغنائي».

كان الشريف كما يشير في مذكراته قد أقنع أم كلثوم بأهمية استثمار صوتها في التصدي لعمل مسرح غنائي بدلًا من اقتصارها على الأغنية الفردية، لكن كما ذهب حلمه في الزواج بها، تبخر حلمهما في المسرح الغنائي، واستخلص هو من قصته معها معاني عديدة، أبرزها أن ما حدث لا يقف عند حدود التجربة الفردية فقط، وإنما يتسع ليشمل أبعاد سياسية، يعبر عنها بقوله:

«ظل زواج أم كلثوم حديث العظماء، والأمراء والقادة، تركوا خلفهم معاهدة صدقي - بيفن، وما جرته من مظاهرات واشتباكات دامية، لم يلتفتوا إلى الهتافات العدائية ضد الملك والملكية في الإسكندرية يوم رفع العلم على قلعة كوم الدكة، تركوا كل هذا وانشغلوا بأمر زواج أم كلثوم ومحمود الشريف، وكأن الدنيا انقلبت حين تزوج فنان بفنانة، ولم تنقلب حينما كانوا يساومون من أجل بيع مصر كلها

للأجنبي، استقرت كل تلك الأفكار في نفسي، وتأكد لي سخف الأغاني التي كانت تردد اسم فاروق الحب، والإجلال والتكريم، بينما الجماهير تهتف بسقوطه في شوارع القاهرة والإسكندرية، وتكشف لي أن الجماهير كانت في طريق والقادة والمغنين كانوا في طريق آخر بعيدًا عن الناس، وعما يعتمل في نفوسهم، وقبل قيام ثورة يوليو بسنوات وجدتني أختار كلمات ذات مغزي خاص لألحنها.. رددتها كل جماهير الشعب من الإسكندرية إلى أسوان، وعشقتها كأنها أغنية عاطفية، ولكنها لم تكن كذلك، فقد كانت تعبيرًا صادقًا عن معاناة الشعب وعن مدي صبره على كل المهازل التي ترتكب باسمه.. كنت أرددها بعشق خاص، وحفرت في نفسي مجري معاديًا لكل ما هو ملكي وكل ما يصدر عن القصر:

تقول الأغنية:

«يا عطارين دلوني
الصبر فين أراضـــيه
ولو طلبتوا عيوني
خدوها بس ألاقيـــه
سألتهم عنـــه
العطارين قالـــــوا
المر فيه منه
والصبر مش موجود
حا أعيش بأوهامي
طول ما المراد موجود
وأقول لأحلامي
الصبر مش موجود»

يري الشريف في هذه الأغنية تعبيرًا صادقًا عن نفاد الصبر والتوق إلى التغيير المنتظر حدوثه، يقول: «كانت التظاهرات التي ملأت الشوارع طوال السنوات السابقة للثورة تنبيء بشيء ما لا بد أن يحدث، وقد حدث بالفعل في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م».

والمؤكد أن قهر مشاعر الحب حين تمارسه سلطة سياسية يكتسب طعم العلقم.. خاصة إذا كانت سلطة من النوع الذي كان يساوم من أجل بيع مصر كلها للأجنبي. وقهر السلطة لمشاعر أم كلثوم تم في تجربتين هما الأكثر دراما في حياتها ، الأولي رفض الملك زواجها من خاله حتى لا يختلط الدم الملكي بدماء الفلاحين على الرغم من قيمتها التي علت وقدرها الذي سكن القلوب، والثانية، حين رفض الملك مشاعرها التي ذهبت إلى واحد من طبقتها جاء إلى القاهرة من باكوس الحي الشعبي في الإسكندرية، محملًا بعبق سيد درويش وبيرم التونسي.

كما لا يعرف أحد قصة هذا الضابط الذي قتل في رأس البر، هل كان حبًا آخر لها، تم التعامل معه بآلية أخري من القهر ،هي آلية القتل كما قالت أم كلثوم للشريف حين أبلغها مصطفي أمين أمر الملك بعدم إتمام الزواج؟ هل يمكن في ظل هذه الخصوصيات ألا تحمل أم كلثوم في قلبها كرها مشبعًا ضد القصر والملك حتى لو غنت لفاروق أغنية وفي أي مناسبة؟

والمؤكد تأسيسًا على ما سبق أن حساب أم كلثوم على العهد البائد هو نوع من حساب توحد التواجد الزمني فقط، أما التوحد بمفهوم الإنتماء، فقد كان مؤجلًا لزمن آت يتطابق وتتطابق معه..

والمؤكد أيضًا أن سجلها بكل تناقضاته لم يكن غائبًا عن أذهان قادة ثورة يوليو ١٩٥٢م، فهم جميعًا أبناء الطبقة الوسطي، الطبقة التي انحازت للتغيير، والطبقة التي يمكن اعتبار أم كلثوم منها، وهم جيل صنع وجدانه فن أم كلثوم وعبد الوهاب، ومن الطبيعي أنهم كانوا حريصين على حضور حفلاتها الشهرية كما أن

قائد الثورة جمال عبد الناصر مثلاً عرف عنه أنه كان محبًا للموسيقي والفن، وهناك من يؤكد أنه حاول تعلم العزف على آلة القانون، وانتسب للدراسة في معهد الموسيقي لهذا الغرض، والعهدة في هذه الرواية على وكيل وزارة الخارجية الراحل السفير وفاء حجازي، كان عبد الناصر عاشقا لأغنية «همسة حائرة» لمحمد عبد الوهاب.. وهاويًا بجدارة للقراءة في شتي العلوم والمعرفة.. يضاف إلى هذا التكوين الشخصي لعبد الناصر كثائر، فكما تقول سير الثوار أن في تكوين شخص الثائر جزء رومانسي حالم.. وهناك من يسحب هذه الجزئية في التكوين الشخصي لعبد الناصر على مشروعه السياسي لانتصاراته وانكساراته.

هذه المعطيات تكشف كيف كانت طبيعة التعامل بين أم كلثوم، وعهد ما قبل الثورة، طبيعة يخيم عليها الحذر والشك، كما تظهر ملامح طبيعة التقاء أم كلثوم بمرحلة الثورة ،طبيعة مهيأة للالتقاء بثورة ضد العهد البائد،طبيعة توحدها مع مرحلة رمزها شخصية بحجم وقيمة جمال عبد الناصر الذي أظهر حميمية في تصرفاته الأولي نحوها يتوافق فيها التقدير الشخصي بالعام، ومعرفة القيمة، وربما إدراكًا منه لدور لها سوف يأتي في معاركه الداخلية والخارجية نحو الاستقلال الوطني الذي أشعل به حماس الوطن العربي من محيطه إلى خليجه في الخمسينات، والستينيات من القرن الماضي،فكيف تكون هذا النسيج؟!

يقول الموسيقار عمار الشريعي: كانت أم كلثوم بحكم تربيتها ونشأتها الشخصية، وانغماسها في الطين المصري الذي استمر معها حتى موتها، بذرة جيدة لتبني فكر الثورة.. شئ مؤجل في شخصيتها ظهر مع يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

عمار الشريعي يضع رؤيته في سياق أشمل يتمثل في الاحتياج المتبادل بين الثورة وأهل الفن، وفي مقدمتهم أم كلثوم، دون أن يقف حائلاً في ذلك ارتباط بعضهم بالعهد الملكي.

يقول: عمار حين قامت الثورة، كان يوجد بالفعل كوادر فنية راسخة، ونذكر من هذه الكوادر أو القمم، أم كلثوم، وعبد الوهاب، وفريد الأطرش ، وكان أمام القيادة الجديدة (الثورة) ثلاثة اختيارات هي :

الاختيار الأول : الاعتماد علي ما هو موجود وبالتالي الوقوع في محظور فقدان المصداقية ، لأن من غنوا .

أما الاختيار الثاني: فهو تخليق قيادات خاصة بها تحمل فكرها، وبالتالي تحمل لها ما قد تفعله من خير، أو شر أي تحمل مصداقيتها بشكل كامل.

أما الاختيار الثالث: فتمثل فيما يمكن تسميته بإمساك العصا من الوسط، بمعني خلق قيادات جديدة واستمالة القيادات السابقة، وهو ما حدث بالفعل.

يضيف عمار: كانت الشخصية المصرية بالفعل مؤهلة للثورة، وتشمل الفنانين أيضًا، والدليل على ذلك أن عبد الوهاب قدم قبل الثورة رائعة كامل الشناوي «نشيد الحرية»، وقدمت أم كلثوم عقب الثورة «صوت الوطن» لرياض ورامي، وقبل الثورة قنبلة «مصر التي في خاطري» وقدمت ليلي مراد «الاعتماد على الإله القوي» لمدحت عاصم، وقدم محمد قنديل «ع الدوار» أي: كان هناك استعداد واحتشاد من جماهير الفنانين المصريين لاجتياج الثورة، ثم تأييدها.

يواصل عمار: لو تأملنا تاريخ عبد الوهاب، وأم كلثوم مع العهد الملكي سنجد أن الاثنين كانا ينظران إلى الملك على أنه ملك.. غير أن عبد الوهاب في اعتقادي كان الأقرب لتأييد الثورة من زاوية قد لا ينتبه إليها البعض كما اعتقد، وهي أنه غازل الملك مرارًا.

وقدم له قصيدة «الفن» من كلمات الشاعر صالح جودت، وقدم أيضًا «الشباب» و « هل السلام » ولم يرد الملك على هذا الغزل بنيشان، أو لقب كما فعل مع أم كلثوم

ويوسف وهبي، والمعروف أن هذه الأشياء كانت تمثل لعبد الوهاب قيمة كبيرة، وتأسيسا على ذلك وحسب رأيي فإن عبد الوهاب كان بداخله شعور غير متعاطف مع الملك، وهذا ما جعله يتعاطف مع الرأي العام، ويقدم « نشيد الحرية »، أما أم كلثوم فكان الأمر بالنسبة لها مختلفًا، فهي سيدة تربت ونشأت في التربة المصرية ولم تغادر أبدًا طماي الزهايرة، فلاحة، ريقها بيجري على طبق المهلبية الذي تناولته وهي طفلة صغيرة، أي أنها بذرة جيدة لتبني أفكار الثورة.

يضيف عمار ،في رأيي أن أغنيتها العاطفية كانت تحمل هذه الإشارات، فمن يقدم أغنية « أصون كرامتي من أجل حبي » يؤكد أن لديه شعورًا بعزة النفس، قد يقول القائل: أنها غنت «عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك»..

أرد عليه فورًا أنها قالت: « وتجيب خضوعي منين ولوعتي في هواك »،كما أنها قالت في أول الأغنية: «حرمتني من نار حبك، وأنا حرمتك من دمعي»، يعني أتألم من غير بكا، كما يعني فهم الأغنية على أن الحب فيها يمكن أن يكون مستباحًا أو خانعًا، لكن رد الحبيب ليس خانعًا في معظم الوقت.

يستخلص عمار أن تركيبة أم كلثوم كانت بذرة جيدة لتبني فكر ثوري، وللتعامل معه، والمشاركة فيه.

ويدلل على رؤيته بتسجيل استمع إليه في الإذاعة لأغنية «صوت الوطن»، وكانت في أول حفلة لضباط الجيش بعد الثورة، وشارك فيها أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش، وحصل خلالها مشادة بين الضباط وفريد بعد أن دخل خشبة المسرح، وقال «مساء الخير يا باشاوات»، فهاجوا غضبًا، لأن الثورة كانت قد أصدرت قرارًا بإلغاء الألقاب قدمت أم كلثوم في هذا الحفل قصيدة « صوت الوطن » بإحساس يفوق الوصف، يقول عمار: لم أستطع مقاومة البكاء وأنا أسمعه، وفي المقطع الأخير: «نحبها من روحنا ونفتديها بالعزيز الأكرم».. تركت أم كلثوم

الضباط، ومنهم عبد الناصر يرددونها معها في غناء يدفع القلب إلى ترك الضلوع.. هذا الأداء من يسمعه يتأكد أن شيئًا مؤجلًا في شخصية أم كلثوم ظهر مع لحظة الثورة.. هذا الشيء هو التكوين الثوري الفطري، والذي سيظهر فيما بعد في معارك وطنية عديدة مثل العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م، ومرحلة ما بعد ١٩٦٧م، كما سيظهر في العلاقة التي توطدت بينها وبين عائلة عبد الناصر، بعد أن لخصت فيه أو وجدت فيه كل المعاني النبيلة الإنسانية والسياسية.



3

والله زمان يا سلاحي



سألت الدكتور: خالد جمال عبد الناصر.. ما هي حقيقة علاقة بيت، وعائلة عبد الناصر بأم كلثوم؟

أجاب خالد وكنت في لقائي معه بمنزله بضاحية مصر الجديدة:

أم كلثوم منذ كنت في الخامسة من عمري تقريبًا، كانت تأتي دائمًا إلى منزلنا، وتحرص على حضور عيد ميلادي، وعيد ميلاد باقي إخوتي.. كانت صداقتها قوية بالوالدة.. وكان الوالد دائمًا مشغولًا، وبالتالي كانت مقابلاته لها حين تأتي إلى البيت في منشية البكري قليلة، هذا رغم حبه الشديد لصوتها، وتقديره واحترامه لشخصها، وسوف أذكر شيئًا أقوله لأول مرة.. وهو أنها كانت موجودة في منزلنا للمشاركة في احتفال عيد ميلاد شقيقي عبد الحميد في عام ١٩٥٦م، وتلقي عبد الناصر أثناء ذلك خبر بدء العدوان الثلاثي على مصر، وترك الاحتفال وخرج.

يضيف خالد: «كان للوالد طقوسًا خاصة كل صباح.. أهمها سماعه لإسطواناتها حين يقف أمام المرآة لحلاقة ذقنه.. كان يدندن بصوته بالأغنية التي يسمعها عبر الأسطوانة، ويتصور مثلا أننا لا نسمعه، بينما كنا جميعًا ننصت إليه.. ونتبادل الضحكات.. خاصة حين يندمج في مقطع معين من الأغنية.. كان حريصًا على دوام الحضور لحفلاتها.. إنها العلاقة الخاصة، والتزاور كان يتم باستمرار مع الوالدة، تحية كاظم».

كان خبر العدوان الثلاثي الذي تلقاه جمال عبد الناصر أثناء الاحتفال بعيد ميلاد ابنه عبد الحميد، وبحضور أم كلثوم.. هو تتويج لأربع سنوات حاسمة مضت في عمر ثورة يوليو.. كان العالم الخارجي يترقب خطوات القادة الجدد.. والقادة من جانبهم يحاولون تثبيت الخطي.. كان كل شيء يبشر بأن هناك شيئًا جديدًا.. شيئا ليس كما سبق..

علي الصعيد الداخلي بدأت الملامح الاجتماعية لمشروع الثورة بإلغاء الألقاب

وإصدار قانون الإصلاح الزراعي، وتحديد ساعات العمل، وتشكيل هيكل إنتاجية متعددة..كان هذا يتم بسواعد شابة فتية.. على الصعيد الديمقراطي كانت الرؤي موزعة بين عودة الجيش إلى ثكناته، واستدعاء الأحزاب السياسية القديمة للممارسة دورها، وبين ضرورة استمرار الضباط في مسيرتهم، وكاد الخلاف حول ذلك أن يقضي على الحدث الذي تفجر يوم ٢٣ يوليو، وتم حسمه فيما عرف بأزمة مارس ١٩٥٤م.. أما دعائم الاستقلال الوطني فكانت خطوته الأولي خروج الإنجليز من مصر.. كانت المفاوضات تتم حول هذا بينما الأعمال الفدائية تشتغل ضد المعسكرات الإنجليزية على خط القناة.. وعلي صعيد الفن.. بدأت الأغنية في العثور على مسارها الوطني.. المسار الذي يعني ارتباطها بمعارك الوطن.

أدارت الثورة هذه المعركة بمنحي استقلالي، أكد منذ البداية الحساسية المفرطة ضد أي تدخلات خارجية.. وكان مشروع بناء السد العالي هو النقطة الحاسمة في مشروع الثورة، وما أعقبه بتأميم القناة فالعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م.

في فرنسا يوم ٢٢ أكتوبر تم الاتفاق بين فرنسا وبريطانيا وإسرائيل على توزيع الأدوار في العدوان على مصر، وذلك في اتفاق مكتوب عرف باتفاقية «سيفر».

ويقول محمد حسنين هيكل: «في ٢٩ أكتوبر تلقي جمال عبد الناصر وهو في بيته حيث كان يشارك في احتفال عيد ميلاد ابنه عبد الحميد أول أنباء العدوان بالهجوم الإسرائيلي على سيناء.. وفي مساء يوم ٣٠ أكتوبر طلب جمال عبد الناصر » إعداد حقيبة له، وذهب إلى مقر مجلس قيادة الثورة في «الجزيرة» ليعمل ويعيش فيها، وكانت وجهة نظره أن جميع المحاربين الآن بعيدون عن أسرهم وهو واحد منهم، ومن ناحية أخري لم يكن يريد أن يكون في هذه اللحظات مع زوجته وأبناءه، وأن تتأثر قراراته ولو من بعيد بأية مشاعر قرب عائلي بما يحمله من عواطف وانفعالات».

وعلي الرغم من إعداد عبد الناصر لحقيبته والذهاب إلى مقر مجلس الثورة بعيدًا عن انفعالات الأسرة، وأسوة بباقي جميع المحاربين، إلا أنه وبعد سنوات من هذا الحدث، حاول البعض الاصطياد في «الماء العكر» والقصد بـ «الماء العكر» هنا هو الحملة المغرضة على جمال عبد الناصر، حيث قال البعض:« أن أم كلثوم خبأت أبناء عبد الناصر في منزلها بالزمالك أثناء الأزمة»،وذهب هؤلاء باستخفاف وسطحية إلى أن هذا كان نوعًا من اختبار أم كلثوم من زاوية الولاء للعهد الجديد!

ويكشف د. خالد عبد الناصر أصل هذه الواقعة قائلًا: لا.. لا.. لم نذهب إلى بيت أم كلثوم بقصد العيش فيه طوال فترة أزمة ٥٦..والحكاية بالضبط أننا كنا متواجدين أنا وباقي إخوتي لدي خالتنا في الزمالك وحين علمت أم كلثوم وكانت جارة لخالتي.. حضرت إلينا، وطلبت منا أن نذهب معها كنوع من الزيارة إلى منزلها، وأتذكر ما قالته لخالتي بالضبط: «هاتوا الأولاد يلعبوا عندنا شوية»..كما أذكر أنني سألتها بتلقائية الطفولة: «عندك طبلة وعود نلعب بهم» فأجابت: «آه يا حبيبي عندي كل حاجة تحبوها.. وإن ما كانش موجود أجيبها لكم»، وبالفعل ذهبنا معها إلى منزلها، وقضينا، ما يقرب من ساعتين نلعب على العود والطبلة ثم عدنا إلى منزل الخالة. وبعد ذلك كانت تمر يوميًا على بيت خالتي للاطمئنان أو تتصل تليفونيًا وتلك هي القصة بالضبط».

تلقت مصر الإنذار البريطاني ـ الفرنسي ، ومنذ اللحظة التي بدأ فيها القصف الجوي.. كما يقول هيكل: «بدأت أعصاب بعض القيادات تتوتر.. وتعالت صيحات تطالب بالقتال إلى آخر طلقة، وإلى آخر رجل ـ كان رأي «جمال عبد الناصر»، أن أخطر المشاعر التي يجب أن تقاومها في هذا الساعة هو « الانفعال»، وأن الأمة لا تحتاج الآن إلى شهداء قدر حاجتها إلى أبطال، وأن فهمه للتاريخ قد علمه أن الأمم لا تستشهد، وإنما يمكن أن يستشهد بعض الأفراد منها. أما الأمة،

فإن عليها أن تقاتل، وأن توفر لنفسها أكبر ضمانات ممكنة لتحقيق النصر، ولهذا فإنه لا يريد من حوله عصبية تؤدي إلى ضياع القدرة على التفكير المتزن.

في يوم الجمعة أول نوفمبر ذهب جمال عبد الناصر في سيارة جيب مكشوفة لأداء صلاة الجمعة وسط الناس، ووقف على منبر الأزهر مشحونا بكل تراث الوطنية المصرية وبعمق إرادة التحدي حين تأتي في لحظة لا يمكن الفكاك من التعامل معها بمسئولية.. خطب على المنبر قائلا:

«إننا جميعًا سوف نقاتل، ولن نستسلم وسوف أقاتل معكم إلى آخر قطرة من دمي، وسوف يقاتل كل الشعب الذي أصبح السلاح في يده جنبًا إلى جنب مع الجيش»، ولما خرج من الأزهر، تدفقت القاهرة كلها إلى طريق موكبه في صيحة واحدة مدوية «حنحارب.. حنحارب».

كانت الأحداث متسارعة، وشحذ الهمم يتم على قدم وساق وعبد الناصر يوجه ببراعة بوصلته إلى الجماهير حتى تكون طرفًا أصيلًا في قضيتها، ووجد الفن نفسه في محطة الأحداث ويصفها الموسيقار كمال الطويل بقوله: «كانت الأحداث تمر كالحلم، وشعرنا جميعًا أنها معاركنا، وأن الرجل الذي يقودنا هو من لحمنا ودمنا، ولهذا بحثنا جميعًا عن بعض، عبد الحليم حافظ، محمد الموجي، صلاح جاهين، أحمد شفيق كامل، أم كلثوم، الكل جاء إلى الميدان دون توجيه من أحد، بدأت الأغنية تأخذ طريقًا آخر جديدًا بمعني تشكيل تيار غنائي يلتحم مع معارك الوطن».

كانت أم كلثوم واحدة من كتيبة الأبطال الذي احتاجهم عبد الناصر في هذه اللحظات وكان قد سبق لها حتى عام ١٩٥٦، أن قدمت أغاني وطنية مواكبة لأحداث الثورة مثل قصيدة «صوت الوطن» وغنوة «الجلاء» مع محمد الموجي عام ١٩٥٤ ، غير أن انفعالها بالعدوان الثلاثي ولد نشيدًا وطينًا رائعًا هو «والله زمان يا سلاحي» أشعار صلاح جاهين وألحان كمال الطويل، واتخذته مصر سلامًا وطنيا

حتى توقيع اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨.

يظل هذا النشيد علامة فارقة في تاريخ الغناء الوطني عامة، وأم كلثوم خاصة، بالإضافة إلى أن قصة ولادته، والظروف التي مر بها علامة مضيئة في كيفية التعاطي الشخصي من أم كلثوم لقضايا الوطن.

يحكي كمال الطويل قصة هذه الساعات العصيبة التي اقترب فيها من أم كلثوم قائلاً: «كان العدوان الثلاثي يواصل هجماته البربرية على مصر، والنار تشتعل بداخلي. كنت في حيرة ماذا أعمل في هذه الظروف العصيبة، أخي في الجبهة يحارب. وأنا أجلس في المنزل اتصلت بصلاح جاهين الذي أعتبره «جبرتي الثورة».. قلت لصلاح: «أنا في دماغي مزيكة هأقولك شكلها» كان شكل المزيكة هو مقدمة «والله زمان يا سلاحي» رد صلاح: «اقفل التليفون يا كمال».. وبعد فترة قليلة اتصل بي ليقول لي اسمع: «والله زمان يا سلاحي / اشتقت لك في كفاحي».

يضيف الطويل :اتصلت بي أم كلثوم في نفس الوقت ،وكانت على نفس حالتي، سألتني: ماذا تفعل؟، قرأت لها كلمات جاهين، فطلبت مني الذهاب إلى منزلها فورًا، وهناك وجدت عازف الكمان أحمد الحفناوي،وعازف القانون عبده صالح،وعازف الإيقاع إبراهيم عفيفي.. كانت على أتم الاستعداد في كل شيء،فرقتها موجودة ولياقتها الحماسية في قمتها، والحالة العامة للبلد تضفي علينا جميعًا هذا الحماس، وأذكر وقتها أن صفارات الإنذار انطلقت تنذر بغارة جوية، وجلسنا جميعًا على ضوء الشموع بينما الغارة الجوية مستمرة. خرجت أم كلثوم فجأة من الصالون إلى « البلكونة ».. قمت وراءها مسرعًا.. قلت لها: «ادخلي بدل ما شظية تصيبك»، فردت بتأثر وحماس: «شظية إيه يا كمال.. أنا نفسي أمسك طيارة أفعصها بصوابعي!».

بهذه الحالة أقدمت أم كلثوم على اللحن وغنته.. يقول الطويل: غنت أم كلثوم «والله زمان يا سلاحي»، بإحساس فاق تخيلي، وبعد الانتهاء من إعداد اللحن طلبنا

التسجيل في الإذاعة فنصحونا بالتسجيل في استديو مصر خوفًا من ضرب الإذاعة، لأنها في العادة تكون هدفًا أوقات الحروب، كما أن شهية الأعداء قد تزداد لضربها، في حالة معرفتهم أن أم كلثوم متواجدة فيها.. لكن أم كلثوم رفضت النصيحة وقالت في حسم: «أموت في الإذاعة أحسن ما يقول حد أن أم كلثوم هربت».

يضيف الطويل: كان اللحن نوعية جديدة أقدمها كملحن شاب، والسبب أنني تخيلت أم كلثوم وهي تعبر عن الجندي المصري، والمفروض أن الإيقاع المناسب لذلك هو إيقاع ٢/ ٤/ المعبر عن الحماس، والتوهج في نقل خطوات الجنود، غير أنني وضعت اللحن بإيقاع ثلاثي.. لدرجة أخافت أم كلثوم في البداية.

سألتني: أنا أعرف أقول ده يا كمال؟

قلت لها: تقولي طبعًا.

وبعد انتهاء التسجيل لا أنسي تعليقها: «أنت أرهقتني قوي يا كمال».

يضيف الطويل:

بعد العدوان الثلاثي تصادف أن أعلنت الحكومة عن مسابقة لوضع نشيد وطني، فتقدم ٦٧ متسابقًا، ولم أتقدم أنا للمسابقة وبالرغم من ذلك، أخبرني الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل باختيار «والله زمان يا سلاحي» سلامًا وطنيًا، واستمر كذلك حتى توقيع اتفاق كامب ديفيد، وتم تغييره بناء على طلب من مناحم بيجن رئيس الوزراء الإسرائيلي للرئيس أنور السادات.

ثلاثة أشياء يمكن التوقف عندها في رواية كمال الطويل حول نشيد «والله زمان يا سلاحي» ،أولها الانغماس المباشر من هذه الكتيبة الفنية في الحدث دون أي حسابات، وعلينا أن نتخيل قيمة ذلك في الوقت الذي كان فيه أساطين السياسة من العهد البائد، يواصلون اجتماعاتهم السرية استعدادًا للعودة إلى الحكم بيقين منهم أن العدوان الثلاثي سوف ينجح في خلع عبد الناصر من الحكم والقضاء على ثورته.

لم تترك أم كلثوم نفسها لحسابات التأني والتروي فيما ستسفر عنه الأحداث، والقيمة الأصلية عندها في ذلك هي البلد والوطن، وليس شخص عبد الناصر، فالاعتداء كان على مصر وليس اعتداءً على عبد الناصر.

ثانيها، يقول الشاعر أحمد شفيق كامل: كانت أم كلثوم في كل الأحداث السياسية التي تمر بها مصر، لا تمل من الاتصال بكل الناس، تسألهم، تستفسر منهم، تبادر بالعمل، على هذه القاعدة كان اتصالها بكمال الطويل، وإبداع نشيد، «والله زمان يا سلاحي».

ثالثها، التلقائية الوطنية المدهشة من أم كلثوم في التعاطي مع قضايا الوطن خاصة إذا كانت قضية بحجم العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م، غير مبالية بأي مخاطر قد تحل عليها، فأي عظمة في تعبيرها لكمال الطويل في « بلكونة » منزلها: «شظية إيه، أنا نفسي أمسك طيارة، وأفعصها بصوابعي»، وأي عظمة، حين رفضت التسجيل في ستديو مصر، ورأت بعفويتها، ماذا سيكون حكم التاريخ لو فعلت ذلك، فقالت: «أموت في الإذاعة أحسن ما يقول حد: إن أم كلثوم هربت ».

انتهت الحرب، وحمل العدوان الثلاثي عصاه ورحل،ولم يكن الانتصار لمصر فحسب بل لكل شعوب العالم الثالث،غربت الشمس عن الإمبراطورية البريطانية التي لم تغب عنها عشرات الأعوام، التهبت مشاعر الثوار في كل مكان من كوبا إلى أفريقيا، وكانت آلة الإعلام المصري أثناء الحرب تمارس دورها لمقاومة مفاهيم الغرب الخاطئة بتصوير عبد الناصر على أنه هتلر جديد، وكذلك إضعاف الروح المعنوية لبقايا الاستعمار في مصر، واستخدم الإعلام في معركته موجة إذاعية عرفت فيما بعد بإذاعة أم كلثوم، وتكشف قصتها التي أحيطت بسرية تامة مدي تقدير عبد الناصر لأم كلثوم.

يروي عبد القادر حاتم وزير الإعلام الأسبق، والمسئول عن الآلة الإعلامية

لمصر أثناء مفاوضات الجلاء ثم العدوان الثلاثي على مصر، قصة هذه الإذاعة قائلًا:

- أنشأ الملك فاروق في سنواته الأخيرة ومع ازدياد الاضطرابات والقلاقل محطة إذاعية كانت عبارة عن عربة كبيرة، أي إذاعة متنقلة، وكان يستهدف بذلك استخدامها في الطوارئ حال حدوث أي اضطرابات تهدد الملكية، وظلت الإذاعة المتنقلة دون استخدام حتى قامت الثورة، وعرفنا بأمرها، وفكرنا في تحويلها إلى استديو، ولم يكن يعلم بأمر هذا الموضوع سوي عبد الناصر وزكريا محيي الدين، وأحمد باشا كامل (قريب صدقي باشا) وأخته جيهان، وأحمد كمال محمود، ومحمود عمر مدير جريدة الإيجيبشيان، وأنا، ولما بدأت الثورة الدخول في مفاوضات الجلاء مع الإنجليز، رأي عبد الناصر أن المفاوضات لن تنجح إلا بممارسة أساليب ضغط قوية عليهم، على أن يتم ذلك في سرية وتكتم، وتمثلت هذه الأساليب في إشعال وتنشيط العمليات الفدائية في مدن القناة، وكذلك استخدام الإعلام.

يضيف حاتم: أسند عبد الناصر لي أمر توظيف هذه الإذاعة، واستثمارها كأداة إعلامية سرية ضاغطة على الإنجليز، وبدأ بثها الإذاعي دون أن يعلم أحد بمكانها، بعد نقلها إلى مكان ما في الصحراء، ووضعنا على خريطة البث الإذاعي برامج باللغة الإنجليزية تستهدف إضعاف الروح المعنوية لجنود الاحتلال، منها مثلا، تمثيلية تقوم فكرتها على وجود جندي بريطاني في الصحراء، دون أن يعرف سببًا لوجوده، في نفس الوقت يوجد جندي أمريكي تابع لحلف الأطلنطي في بريطانيا، ويتعرف هذا الجندي على زوجة نظيره الإنجليزي الموجود في صحراء مصر، ويقضي وقته معها، في إشارة إلى أن هذا الإنجليزي ترك بيته وأسرته لآخرين يعبثون به، دون أن يكون قادرًا على الدفاع عن البيت حيث المسافات الطويلة.

ويوضح حاتم أن الهدف من بث هذا النمط من البرامج كان إخماد الروح المعنوية للضباط والجنود الإنجليز بوصفهم احتلال، وإشعارهم أنهم يحاربون

لهدف غير شريف، والثمن الحقيقي الذي يتقاضاه هو ضياع أسرته، وفي سياق ترغيب هؤلاء الضباط والجنود لسماع الإذاعة كنا نبث موسيقي عالمية هادئة بين برنامج وآخر، ثم نقطع البث فجأة لإذاعة أخبار عن احتمالات انفجارات تحدث في بعض المعسكرات الإنجليزية، ويتم تحديدها بالاسم، مما يؤدي إلى اضطراب نفسي بالغ لجنود الحراسة عليها حتى لو لم يقع الانفجار.

أدت هذه السياسة الإعلامية إلى إزعاج بالغ ومتواصل للاحتلال وصل إلى درجة أن السفارة الإنجليزية اشتكت مر الشكوى لقيادة الثورة منها، في الوقت الذي أنكرت القيادة معرفتها بمكان، أو هوية الإذاعة، مثلما كانت تنكر معرفتها بالعمليات الفدائية الدائرة على خط القناة، واستمر الأمر على هذا النحو حتى عدوان ٥٦.

يضيف حاتم: بعد جلاء الإنجليز، وفشل العدوان الثلاثي، وكنت مديرًا لمكتب جمال عبد الناصر لشئون الصحافة والإعلام، تدارسنا أمر مصير هذه الإذاعة بعد أن أدت مهمتها بنجاح، وانتهي الوضع على أن نخصصها لأم كلثوم على أن يتم بث أغانيها عليها لمدة خمس ساعات يوميًا تبدأ من الساعة الخامسة مساء حتى العاشرة، وأذكر أن أم كلثوم سألتني أكثر من مرة عن حكايتها، ولم أقدم لها إجابة، نفس الأمر فعلته هي مع عبد الناصر، وكان يكتفي بابتسامة فقط، والحقيقة أنها كانت قلقة في البداية من هذه الخطوة خوفًا من إصابة الناس بالملل من كثرة أو دوام إذاعة أغانيها، وفي أكثر من مرة عبر لي عبد الناصر عن سعادته بالإذاعة؛ لأنها كما يقول نالت إعجاب الناس، وأصبح لها مستمعوها، ويقول حاتم: أذكر أيضًا أن عبد الوهاب غضب من هذه الخطوة، وكان يقول لي: «ما دام عملتم محطة باسم أم كلثوم، أنا عايز محطة باسمي، وكنت أنكر له معرفتي بأمرها».

ويضيف حاتم: «أخذنا موجة مختلفة لتشغيل إذاعة أم كلثوم عن الموجات التابعة لمنظمة الإذاعات العالمية، وهي المنظمة التي تنضوي تحتها كل إذاعات العالم».

الاعلامي أحمد سعيد يروي قصة مختلفة عن هذه الإذاعة قائلا: الحكاية بدأت بحدوته بسيطة جدا، وتطورت إلى إذاعة عليها تريد بث الإرسال الإذاعي ثم توقيع اتفاقيات دولية لقيام الإتحاد الدولي للإذاعات، ومهمته هندسية لتنظيم البث الإذاعي الفضائي، ومن يريد أن يحصل على حصته من الأثير يذهب لهذا الإتحاد للحصول على حاجته من الإرسال الإذاعي الداخلي والخارجي، على الموجات القصيرة، أو المتوسطة أو الطويلة، وتحديد الذبذبات المناسبة حتى لا يحدث تداخل مع بث إرسال إذاعات أخرى، لذلك عندما انتبه عبد الناصر لأهمية الإذاعة، كان مطلوبًا الحصول على أكبر حصة من الإتحاد الدولي للإذاعات، فحصلنا على موجات ولابدّ من تشغيلها خلال مدة معينة وتبدأ إرسالها، في نفس الوقت كانت المخابرات المصرية تريد محطة إرسال لتستخدمها بشفرتها مع أعوانها في السفارات المختلفة، ولكن كيف يمكن استخدام البث الإذاعي لهذا الغرض، وجاء اقتراح محمد أمين حماد مدير الإذاعة بتخصيص نصف إرسال الإذاعة المقترحة لإذاعة أغاني أم كلثوم، وبذلك أصبحت الإذاعة المطلوبة هي إذاعة أم كلثوم في الظاهر لتغطي على العملية الرئيسية.

يضيف سعيد : رغم أن الجهات الأمنية لم تعد بحاجة إليها لتحقيق أهدافها في ظل التقدم التكنولوجي الذي أتاح لها وسائل أخري أكثر تقدما، إلا أن الإذاعة أخذت شهرة أم كلثوم، حتى جاء عهد السادات وتغيرت خريطتها، فافتتحت بأم كلثوم، وختمت بها، وفي وسط الإرسال تذاع أغاني أخري لمطربين آخرين، وقيل: في هذا التعديل شائعات منها غضب السادات من مخاطبة أم كلثوم له «يا أبو الأنوار» بعد أن أصبح رئيسًا للجمهورية في حضور جيهان السادات.

رغم الاختلاف بين روايتي عبد القادر حاتم وأحمد سعيد حول أصل نشأة إذاعة أم كلثوم إلا أن قرار الإنشاء يبقي تتويجًا من عبد الناصر لها لما قدمته ،واعترافًا منه

بقيمتها الفنية، ليس هذا فحسب بل حرص الرجل على توفير الحماية الدائمة لها حتى فيما يتعلق بحياتها الشخصية، ويحكي الدكتور منصور فايز الطبيب الخاص لعبد الناصر ولأم كلثوم أيضًا في كتابه «مشواري مع عبد الناصر»:

«نتيجة الضغط المستمر لم يكن لدي عبد الناصر الوقت لهوايات يروح بها عن نفسه، ولكنه كان حريصًا على سماع السيدة أم كلثوم التي كان يقدرها، ويسألني دائمًا عن صحتها، وحين بدأت السيدة أم كلثوم تشعر ببعض التعب في إحدي المراحل طلب مني أن أقترح عليها أن تكتفي بأغنيتين في الحفلة الواحدة بدلًا من ثلاث، ولما عرضت عليها وافقت وألغت الوصلة الثالثة، وكنت قد طلبت منها ذلك من قبل، ولم تستجب لي».

عبرت العلاقة بين أم كلثوم وجمال عبد الناصر دائرة علاقة الفنان بالسلطة، تلك الدائرة التي تنكمش وتتمدد بفعل القانون الذي يحدد هذه العلاقة.. القانون الذي ينص في أحد بنوده على رضا السلطان، وخضوع الفنان، وفي بند آخر على غلق الدائرة على أهداف تجمع الطرفين، وكل منهما يعمل لأجلها بأدواته الخاصة، وانتقلت علاقة أم كلثوم بجمال عبد الناصر إلى دائرة إنسانية أرحب وأرقي وأوسع،كان في حجرة نوم عبد الناصر بمنزله بمنشية البكري قطعة موبيليا خشبية تضم تليفزيون، وراديو، وبيك آب، وريكوردو، واسطوانات موسيقي كلاسيكية، وشرائط مسجلة لحفلات أم كلثوم، وكانت أغانيها جسرًا بين قلبي عبد الناصر وزوجته السيدة تحية كاظم التي إرتبطت بعلاقة وثيقه بأم كلثوم، وبدأت تلك العلاقة بمكالمة تليفونية من أم كلثوم تلقتها منها شغالة في بيت عبد الناصر اسمها خضرة، فقالت لها أم كلثوم بخفة ظلها المشهورة: «يجعل سنتك خضره يا خضرة» ويقول الكاتب الصحفي عادل حمودة في حلقاته «الحب في زمن الحرب»، والذي كشف فيها عن مجموعة الخطابات الخاصة المتبادلة بين جمال عبد الناصر والسيدة

تحية أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، «بعد مكالمة خضرة جاءت أم كلثوم إلى البيت لتتوطد علاقتها الإنسانية والشخصية بتحية،و حرصت أن تحضر أعياد ميلاد بناتها وأولادها، لكنها لم تكن تغني فيها، وفي الإسكندرية كانت، أم كلثوم كثيرًا ما تلغي حجز إقامتها في فندق سيسيل لتنزل في كابينة تحية في المعمورة، ومن جانبها كانت تحية حريصة على حضور حفلاتها، الخميس الأول من كل شهر.

كانت في البداية تغني في مسرح 'الأزبكية، ثم انتقلت إلى سينما قصر النيل، وفي مسرح الأزبكية كان أول بنوار مخصص للملك.. سواء حضر الحفل أو لم يحضر، وقد أصبح ذلك البنوار متاحًا للشخصيات السياسية المهمة فيما بعد، وكانت تحية تجلس فيه عادة عندما كانت تحضر حفلات أم كلثوم التي كانت تسألها عما تحب أن تسمع منها، وذات مرة كان جمال عبد الناصر بعيدا عنها في زيارة ليوغسلافيا فطلبت منها أغنية « عودت عيني على رؤياك »، ومرة أخري كان مسافرًا للاتحاد السوفيتي (روسيا والدول المجاورة)، فكانت الأغنية « إنما للصبر حدود يا حبيبي ».

ويروي الشاعر والكاتب الصحفي فاروق جويدة في مقال له بالأهرام (١٦ يناير ٢٠٠٠م): «قال لي رياض السنباطي يومًا: ذهبت إلى فيلا أم كلثوم لإجراء بروفات أحد أغانيها، وكانت تحترم مواعيدها إلى أبعد الحدود،وعندما دخلت الفيلا علمت أن أم كلثوم ما زالت نائمة،وسألت مديرة المنزل فقالت: إن سيدتي ظلت حتى طلوع الشمس بلا نوم، فسألها السنباطي، لماذا؟ أجابت: تشاجرت مع زوجها د.حسن الحفناوي ليلة أمس ، واتصلت بالرئيس عبد الناصر في الخامسة صباحًا، وأيقظته من النوم وجاء بنفسه إلى هنا، ولم يخرج إلا في السابعة صباحًا بعد أن تصالح الزوجان د. الحفناوي وأم كلثوم».

حميمية العلاقة بين الطرفين جعلت من عبد الناصر طرفًا فيما تردد عن زواجها بالكاتب الصحفي مصطفي أمين، وهي القصة التي فجرها الناقد والكاتب رجاء

النقاش وأثارت جدلا واسعا حين أعادت الحديث عنها الدكتورة رتيبة حفني في ندوة بمكتبة الإسكندرية في فبراير عام ٢٠٠٥ م، قال النقاش أنه علم بأمر الزواج من مصطفي أمين من أحد كبار المسؤولين في عصر عبد الناصر لم يأذن بذكر اسمه في حياته، وهو كمال الدين رفعت (خال زوجة النقاش) ،ويضيف النقاش: أن الضابط على إسماعيل زوج المذيعة المعروفة درية شرف الدين، كان يقوم بجرد مكتب مصطفي أمين عند تأميم مؤسسة أخبار اليوم عام ١٩٦١، فوقعت في يده أوراق خاصة بأمين كان من بينها عقد زواج رسمي وليس عرفيا، بين أمين وأم كلثوم، وخطابات بخط يدها إلى مصطفي أمين تبدؤها بقولها (زوجي العزيز)، ويضيف النقاش: أعطي على إسماعيل عقد الزواج إلى جمال عبد الناصر، وكان موجودا بالإسكندرية، وقدم إليه العقد، فأمسك به عبد الناصر، ونظر إليه، وابتسم دون أن يعلق بشيء ثم وضعه في جيبه، ومن يومها لم تظهر هذه الأوراق على الإطلاق، ولم يطلع عليها أحد.

ويقول النقاش متوقعًا: «لأن عبد الناصر كان يحب أم كلثوم ويحترمها ويعتبرها قيمة وطنية فإن عبد الناصر ربما يكون قد طوي هذا الموضوع نهائيًا من تفكيره، ولم يسمح بتسريبه إلى أحد، ما دامت أم كلثوم نفسها كانت لا تحب الإعلان عنه، ولعل هذه الأوراق الخاصة قد أعيدت إلى صاحبها فيما بعد أي: إلى مصطفي أمين».

ويعلل النقاش الذي أكد أنه لم يعرف المدة التي استغرقها هذا الزواج إخفاء أم كلثوم لهذا الزواج طالما كان شرعيًا، بأن مصطفي أمين كان يصغرها بحوالي ١٦ عامًا، وربما كان الفارق في العمر من بين الأسباب الرئيسية في ميل أم كلثوم إلى إخفاء هذا الزواج، كما أنها أرادت أن تكون لمصر كلها وللعرب جميعًا، ويضيف: أظن أن هذا السبب القوي كان كافيا ليجعل أم كلثوم تفضل أن يكون الزواج سريًا، كما أن مصطفي أمين كان يخوض معارك عنيفة خلقت له عداوات كثيرة قبل ثورة يوليو،

وبعدها وكانت أم كلثوم تحرص على أن تكون بعيدة عن كل هذه الصراعات.

النفي القاطع لهذه القصة يأتي من الدكتور ممدوح الدسوقي - ابن شقيقة أم كلثوم - ومن الكاتب الصحفي محمود عوض صديق الطرفين الذي تساءل: «إذا كان مصطفي أمين قد كتم سر زواجه من أم كلثوم في حياتها، فلماذا لم يعلنه بعد رحيلها؟، وكيف يكون زواجهما سريًا وهما على مستوي الأصدقاء لديهما صداقات بصحفيين مثل محمد التابعي والصحفي اللبناني سعيد فريحة، وغيرهما، وكل هؤلاء لا يمكن اخفاء أمر بهذا الحجم على علمهم ؟»، ويشير السيناريست محفوظ عبدالرحمن مؤلف مسلسل أم كلثوم إلى أنه وأثناء تصديه لكتابة المسلسل صادفه ما يقرب من ١٤ شائعة عن زواج أم كلثوم، من بينها واحدة وهي في قريتها وقبل انتقالها إلى القاهرة، بالإضافة إلى شائعة زواجها من مصطفي أمين لكن لم يكن هناك دليل عليها ،ويشير محفوظ إلى أن مصطفي أمين كتب عنها رواية بعنوان : «الآنسة هيام» نشرت بعد خروجه من السجن، وصفها فيها بأقبح الأوصاف.

ورغم هذا النفي إلا أن مجلة المصور في عدد ٤ مايو عام ٢٠٠٥م ذهبت في تحقيق موسع لها حول هذه القضية أجراه الصحفي محمد دياب إلى الاعتقاد بصحته وجاء في التحقيق: «تعرفت ثومة إلى مصطفي أمين في أواسط الثلاثينات (القرن العشرين) لكن علاقتهما لم تتوطد إلا في منتصف الأربعينات، ولا يعقل أن تكون أم كلثوم قد استأذنت شقيقها في السماح لها بالزواج من مصطفي أمين دون أن ترجع في ذلك إلى والدها، إلا إذا كان والدها كان قد توفي، والوالد رحل عام ١٩٣٦، ولا يعقل أن تكون قد تزوجته في الفترة من عام ١٩٣٦م، وحتى ١٩٤٦م أو ١٩٤٧م، لسبب بسيط هو أنها تزوجت من الموسيقار محمود الشريف العام ١٩٤٦م، كما أنها ارتبطت لسنوات قبل زواجها من محمود الشريف بقصة حب مع شريف باشا صبري (خال الملك فاروق)، فليس من المنطق أن تكون أم كلثوم أحبت وتزوجت

وهي على ذمة مصطفي أمين، كما لا يعقل أن تكون قد طلقت في عام ١٩٤٦ لتتزوج من فورها بالشريف، إذن المنطق يحتم أن تكون أم كلثوم قد تزوجت مصطفي أمين في الفترة التي شهدت تصاعدا لعلاقتهما سويا وهي منتصف الأربعينات، وهي الفترة التي ساعدته فيها بأموالها على تأسيس جريدة «أخبار اليوم»، وسعي لها فيها للحصول على وسام الكمال من الملك فاروق، وساندها في أزمتها الإعلامية عند زواجها وانفصالها من محمود الشريف، والمنطق يقضي أن يكون هذا الزواج قد وقع بالفعل في الفترة من عام ١٩٤٧، إلى مطلع الخمسينات لأن أم كلثوم ارتبطت بالزواج في العام ١٩٥٣ من الدكتور حسن الحفناوي، وهو الزواج الذي استمر حتى رحيلها، وعلي الأرجح تم ذلك في الفترة التي كان يتم فيها التحضير لتصوير فيلم «فاطمة» الذي كتب قصته مصطفي أمين لأم كلثوم في العام ١٩٤٧، وهو ما يعني أن الزواج لم يستمر سوي حوالي ٥ أعوام على الأكثر ففي مطلع الخمسينات وتحديدا عامي ١٩٥١ و١٩٥٣، سافرت أم كلثوم في رحلات علاجية إلى الولايات المتحدة طالت لأشهر لمعالجتها من الغدة الدرقية، وكان أنور السادات أحد ضباط مجلس قيادة ثورة يوليو في وداعها بالمطار كمندوب رسمي عن القيادة الجديدة ويقال: أنه عندما اشتد عليها المرض نصحها الأطباء بالزواج لأنه أحد العوامل التي ستساعدها على الشفاء.



4

جيل مختلف



فتح انتصار مصر على العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م صفحات للنضال الوطني للثورة، وبدأ الفعل الوطني المصحوب بالزخم الشعبي بقيادة شبابية يؤتي ثماره على الأصعدة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفنية.

كان تعاون أم كلثوم مع جاهين والطويل في «والله زمان يا سلاحي» ومن قبله تعاونها مع الموجي في غنوة الجلاء، نتيجة طبيعية لهذه الموجة في جانبها الفني، وتعاملت أم كلثوم مع الثورة بمفهوم شامل، مفهوم يخرج من نطاق الالتفات، والاكتفاء بالنظر إلى السلطة السياسية، إلى رحاب أوسع يشمل فهم طبيعة المرحلة، وهي المرحلة التي يمكن القول أنها كانت مرحلة الشباب بامتياز.

جاءت الثورة بوزراء ومسئولين في عمر العشرينات ومطلع الثلاثينيات،مثل الدكتور عزيز صدقي للصناعة، والدكتور مصطفي خليل للمواصلات ، والدكتور عبد المنعم القيسوني للمالية والاقتصاد ، وقبلهم كان ضباط الثورة في نفس الحلقة من العمر.كان عبد الناصر ابن الـ ٣٤ عامًا وقت قيام الثورة، وعلي صعيد الفن جاء ما درج على تسميه ب«جيل الثورة»، أو «جيل عبد الناصر» من الفنانين الشبان وفي مقدمتهم عبد الحليم حافظ، كمال الطويل، محمد الموجي، بليغ حمدي، صلاح جاهين، شادية، محمد رشدي، فايزة أحمد، نجاة، عبد الرحمن الأبنودي، أحمد شفيق كامل وغيرهم، وعبر هؤلاء عن المرحلة الجديدة بما حملته من تحولات.

وعت أم كلثوم طبيعة المرحلة وكان لقاؤها بالموجي والطويل وجاهين بمثابة بدء امتزاج الأهداف والتوجهات منها بجيل يحمل فكرًا مختلفًا،جيل يقول عنه كمال الطويل: «جاء بفكر يقوم على دراية بالظروف السياسية والاجتماعية، وكل التحولات نحو المستقبل الوطني لمصر، وانعكس هذا على الفن عمومًا والأغنية في في القلب منه» ،ويضيف الطويل :« كانت أم كلثوم على وعي بهذا، فعلي الرغم من أن أساطين الموسيقي بجوارها، وهم زكريا أحمد، والقصبجي، والسنباطي، إلا أنها

التفتت إلى الجيل الطالع، عكس عبد الوهاب الذي تأخر في التعاون مع هذا الجيل، ولم يلحن لعبد الحليم، فعبد الوهاب كان رجل التجربة الثانية في كل شيء،لا يتزوج أول زواج ولا يلحن لمطرب اللحن الأول»!

وقبل البحث في خصوصية علاقة أم كلثوم بالجيل الطالع مع الثورة بملحنيه ومؤلفيه، والعثور على إجابة لسؤال، ماذا قدم لها هذا الجيل؟،وماذا قدمت له؟ قبل هذا يجب التنويه إلى أمرين،الأول، أنها بدأت في تواصلها مع هذا الجيل وهي متوقفة عن التعاون مع اثنين من أساطين التلحين العربي عامة، والكلثومي خاصة، توقفت عن التعاون مع محمد القصبجي ملحنا، واكتفت به عازفًا للعود في فرقتها، بالإضافة إلى قيادته للفرقة،كما توقف تعاونها مع الشيخ زكريا أحمد كملحن، وبيرم التونسي كمؤلف، حيث رأي زكريا وبيرم التونسي أنها لا تفيهما حقهما المالي لقاء التلحين والتأليف، وأختار زكريا طريق القضاء، حيث رفع دعوي قضائية أمام المحاكم، ظلت من عام١٩٤٨م حتى عام ١٩٦٠م، يطالب فيها أم كلثوم بدفع مستحقات مالية له تصل إلى نحو ٤٠ ألف جنيه.

أما الأمر الثاني: فيتمثل في أنه مع خلافها مع زكريا، وتوقف القصبجي الذي رآه البعض نوعًا من إحالته للاستيداع من أم كلثوم، في ظل هذا انفرد السنباطي انفرادًا شبه تام بصوتها من سنة ١٩٤٩ حتى سنة ١٩٦٠م، واخترق هذا الانفراد ألحان قليلة قدمها محمد الموجي، وكمال الطويل كنموذجين من الجيل الجديد، قدم لها محمد الموجي عام ١٩٥٤م نشيد الجلاء بمناسبة توقيع اتفاق الجلاء مع الإنجليز، وهو اللحن الذي قال عنه عبد الوهاب: «لحن قصبجي طراز ٥٤»، وفي عام ١٩٥٥م قدم الموجي لحنيه الدينيين الرائعين «أوقدوا الشموع» و«حانة الأقدار»، وفي عام ١٩٥٧م غنت للموجي أيضًا «محلاك يا مصري وأنت عالدفة» لصلاح جاهين بمناسبة تأميم قناة السويس، أما كمال الطويل فقدم لها رائعتيه: «لغيرك ما

مددت يدا» ثم «والله زمان يا سلاحي» عام ١٩٥٦م.

والمؤكد أن حيرة بالغة تتملك كل محبي فن أم كلثوم والقصبجي، حول سبب توقف التعاون بينهما، والوقوف بذروة هذا التعاون في نضجه الكبير عند قنبلة «رق الحبيب» عام ١٩٤٤م، ثم مجموعة أغاني أخري عام ١٩٤٨م، هي «يا صباح الخير» «نورك ياست الكل» «ياللي انحرمت الحنان»،بعدها توقفت أم كلثوم عن الغناء له بعد أن قدمت ٦٩ أغنية من ألحانه.

كان القصبجي هو الأب الفني الذي تلقفها منذ انتقالها من قريتها إلى القاهرة، كما يظل حسب وصف الموسيقي اللبناني توفيق الباشا: «أستاذ النغم بكل تعقيداته»، وفي رأي كمال الطويل: «المجدد الأعظم للموسيقي العربية » كما أنه في نظر المؤرخ والناقد الموسيقي اللبناني فيكتور سحاب «المؤلف الكبير المكتمل الشروط».

كانت أم كلثوم كما يقول المؤرخ الموسيقي محمود كامل: تعتقد أن إلهام القصبجي نضب، ولم تكف في الظاهر عن تشجيعه على معاودة التلحين لها، لكنها في كل مرة كانت تعيد إليه الأمل، ثم تعرب بعد الاستماع إلى ألحانه الجديدة عن عدم اقتناعها بها، ومن مفارقات ذلك أنه لحن أغنية في تكريمها سنة ١٩٤٩م في معهد الموسيقي العربية قدمتها سعاد محمد، ويقول فكتور سحاب في مؤلفه الهام «السبعة الكبار في الموسيقي العربية المعاصرة»: في سنة ١٩٥٥م جالت أم كلثوم في بيروت (غنت في قاعة الأونسكو) وفي دمشق، وفي هذه الجولة صر «القصب» (بهذا كانت تسميه) بأنه لو أتاحت له الفرصة لأثبت لها أن ألحانه أفضل من ألحان السنباطي، لكنه عاد عن كلامه وأنكر تصريحاته عندما غضبت الست، ويري سحاب بصيغة جزم: «لا شك في أن القصبجي كان يفوق السنباطي في القدرة على التفكير الموسيقي، وعلى صياغة لوازم قوية متماسكة، وعلى تطوير اللحن، وعلي التجديد في الموسيقي، وإن كان بعض النقاد يرون أن جملة السنباطي اللحنية أجمل في الغالب»، ويدلل على

ذلك بقوله: «معظم اسطوانات عبد الوهاب وأسمهان وليلي مراد في ذلك الزمن (وكانت أم كلثوم تطبع أسطوانتها عن شركة » أوديون المنافسة التي كان يديرها ألبير ليفي»، رووا أنهم أخذوا من صديقهم الأخطل الصغير، بشارة الخوري، قصيدة «اسقينها»، وطلبوا من عبد الوهاب أن يلحنها، فلحنها، لكنه تردد في تسجيلها لعدم رضاه عن اللحن، واستأذن آل بيضا إسناد لحن القصيدة إلى القصبجي، فلحنها لأسمهان، ويقول آل بيضا أن لحن القصبجي للقصيدة كان «بصراحة»، أجمل من لحن عبد الوهاب الذي لم يُسجل، ويضيف سحاب: «ليس في هذا قطعا انتقاص من سيد اللحن العربي (عبد الوهاب) بل فيه شهادة للقصبجي، الذي أصابه على ما يبدو، عزوف أم كلثوم عن ألحانه، بجفاف حقيقي حتى مماته»، ويقول سحاب متسائلاً «ليس من وسيلة إذن للتيقن بأيهما السبب، وأيهما النتيجة: أهو النضوب في إلهامه، أدي إلى عزوف أم كلثوم، أم عزوفها أدي إلى نضوبه حقًا؟».

والمؤكد أن سحاب على حق في طرح تساؤله، خاصة أن معظم ما يقال في هذا الأمر هو أقرب إلى التحليلات منه إلى الوقائع، فمحمود شريف يذهب إلى أن أم كلثوم عاقبت القصبجي بعدم أخذ ألحان منه منذ الليلة التي حمل فيها المسدس، وذهب إلى فيلتها يريد قتل الشريف احتجاجًا وغضبًا على خطوبتها له، لأن القصبجي كان يحبها وكانت هي تعرف ذلك، وربما يري البعض أن هذا ليس ملائمًا من سيدة كان صوت لفن عندها أعلي الأصوات، وهو السيد في كل شيء ولا يمكن أن تغلق بالضبة والمفتاح على من يعطيها لحنا يرفع من رصيدها، ويذكر الموسيقار كمال الطويل: «أنا شخصيً سألت ذات مرة للقصبجي «إزاي يا أستاذنا تبقي المجدد الأعظم في تاريخ الموسيقي العربية، وتكتفي بدور عازف عود في فرقة أم كلثوم، فين ألحانك العظيمة؟»، فرد القصبجي على الطويل: «مش عارف كل ما أنوي أعمل لحن ألاقي لعفاريت بتطلع لي» ،ويري كمال الطويل أن أسبابًا ممتزجة

لدي القصبجي هي التي خلقت عنده هذه الحالة، منها ما هو شخصي في طبيعة علاقته المعقدة بأم كلثوم، ومنها ما يرتبط بالغيرة من ملحنين آخرين.

ويروي محمود كامل، وكان من المقربين للقصبجي: «عهدت أم كلثوم إلى القصبجي بتلحين بعض أغانيها بعد «رق الحبيب» ولكن هذه الألحان لم تغنيها ، فقد حدث في عام ١٩٥٤م أن اختارت أم كلثوم أغنية وطنية من شعر أحمد رامي مطلعها، «يا دعاة الحق هذا يومنا» لكي تسجلها في الإذاعة بمناسبة أعياد الثورة، وطلبت من القصبجي تلحينها، فعاد الأمل من جديد إلى قلبه، وأحس بأن أبواب السماء بدأت تتفتح له مرة أخري، وتوجه إلى الله أن يلهمه التوفيق والسداد، وأن ترضي أم كلثوم عن هذا اللحن وتقبل غناءه.

ويدأ يلحن كلمات الأغنية، وكان من فرط فرحته ونشوته، كلما انتهي من تلحين مقطع منها، يحمل عوده مسرعًا إلى فيلا أم كلثوم بالزمالك، يسمعها ما لحنه، وكانت تبدي له علامات الرضا، فيعود إلى منزله منشرح الصدر، قرير العين، وظل هكذا إلى ان انتهي من تلحين نصف الأغنية، وجاءت أم كلثوم إلى منزل القصبجي لسماع اللحن، ومعها الشاعر أحمد رامي، وكنت رابعهم، وأمسك القصبجي بعوده، وراح يغني اللحن، وهو يدعو الله في قرارة نفسه، أن يلقى إعجاب أم كلثوم ورضاءها، ولكن أمله خاب، لم تقتنع أم كلثوم بلحن الأغنية، وأشارت عليه بأن يعيد تلحينها من جديد، ولكن دون جدوي، ورفضت أن تغني الأغنية،ولم تعهد بها إلى ملحن آخر، وإنما اعتذرت عن غنائها، واكتفت بأغنيتها المعروفة «مصر التي في خاطري وفي دمي» التي سجلتها في العام السابق، وسافرت إلى الأسكندرية لتقضي فترة الصيف، وشاء القدر أن تكون أغنية «يا دعاة الحق هذا يومنا» من نصيب المطربة فايدة كامل.

جددت أم كلثوم نفس الموقف مع أغنية سهران لوحدي، فبعد أن بدأ القصبجي تلحين الكلمات من نغمة جديدة أطلق عليها «ما وراء النهرين» لم ترض عن اللحن،

وسحبته لتعطيه إلى رياض السنباطي، وعلي الرغم من أن القصبجي كما يقول كامل لم يكن يدر سر هذا الفتور، إلا أن كامل يرجعه إلى ثلاثة أسباب هي:

سوء الحالة الصحية للقصبجي في السنوات الأخيرة، وعدم استطاعته حفظ الألحان التي تقدمها أم كلثوم على المسرح، والتي قام بعزفها من قبل.

كثرة شكواه لزملائه من سواء معاملة أم كلثوم له، ويبدو أن واحدًا من هؤلاء حمل إلى أم كلثوم صورًا غير حقيقة، فصعب عليها أن تسمع مثل هذه العبارات وهي التي كانت تكن له كل تقدير.

إصرار القصبجي على الحصول على أجره كاملًا عن الحفلات التي كانت تتبرع أم كلثوم بإحيائها، و تقوم بدفع أجور الفرقة من جيبها الخاص.

وعلي الرغم من كل هذه الوقائع التي تدخل فيما يشبه التعقيد في معرفة كل جوانبها الحقيقية، إلا أنه في الوقت الذي أقلعت أم كلثوم عن الغناء للقصبجي، لم تكف عن إظهار تقدير شخصي له تمثل في عدد من التصرفات، حيث يروي محمود كامل: «كان لعدم غناء أم كلثوم ألحانًا جديدة بعد «رق الحبيب» أثره المباشر على قيمته الفنية، فقد حدث حينما أهدت أم كلثوم إلى الإذاعة عام ١٩٥٢ بعض تسجيلاتها الغنائية لتذيعها بدون مقابل، كان من بينها لحن «رق الحبيب» وأشارت أم كلثوم على الإذاعة أن تدفع نصيب المؤلفين والملحنين في هذه التسجيلات، فقررت الإذاعة أن يصرف للقصبجي ٢٠٠ جنيه، ورفض القصبجي يومئذ هذا التقدير، وأبرق إلى مدير الإذاعة محتجًا، على هذا التصرف، وطالب بمساواته بزميله رياض السنباطي الذي قدرت له الإذاعة ٣٠٠ جنيه، بحجة أن قيمة الفنان لا تنخفض وترتفع لقلة وغزارة إنتاجه، وإن أم كلثوم لا تغني الآن من ألحان القصبجي، ولما سمعت بذلك أم كلثوم لم ترض عن هذا التصرف الشاذ، ووعدت بالاتصال بالمسئولين لمنح القصبجي حقه المشروع، وفعلاً، كان لتدخلها نتيجة طيبة،

وقبض القصبجي أجره كاملًا غير منقوص، يأتي هذا إلى جانب أن القصبجي ولسنوات كان يخيل إليه أن أم كلثوم سوف تستغني عنه كعازف للعود في الفرقة بعد أن أسندت قيادتها لمحمد عبده صالح عازف القانون، وأصبح بذلك عضوًا مثل الآخرين، وظل هذا الاعتقاد لديه إلا أنها لم تفكر حتى بعد وفاته بإحلال عازف آخر مكانه، واستمرت الفرقة تقدم حفلاتها مدة ثلاث سنوات دون إدخال آلة العود.

وتقدم الدكتورة رتيبة الحفني اجتهادًا آخر في هذ القضية، تُدخل من خلاله بأسمهان على الخط،وتقول:

«يعتبر القصبجي الملحن الوحيد الذي تفهم إمكانيات صوت أسمهان، فلحن لها ما يتمشي مع لون صوتها وعذوبته، كما يعتبر الملحن الثاني بالنسبة لعدد الألحان التي قدمها لهذا الصوت بعد فريد الأطرش، وأحست أم كلثوم بخطورة هذا الصوت عليها، فعملت على حصر ألحان القصبجي بها، إلا أن القصبجي تعلق بأسمهان، واستمر في التلحين لها، مما أدي إلى أول جفاء بين أم كلثوم، والقصبجي كاد يصل إلى إبعاده عن تختها لولا تضامن أعضاء الفرقة معه.

وتضيف الحفني: ذات يوم جاء رياض السنباطي إلى أم كلثوم بقصيدة «حديث عين» للشاعر أحمد فتحي، رفضت أم كلثوم القصيدة معللة بأنها حديثة الاتجاه، بعيدة عن ذوق مستمعيها، بينما أعجب القصبجي بهذه القصيدة، فعرض على السنباطي إعطاءها لأسمهان، فكانت أول لحن تغنت به أسمهان للسنباطي، وغضبت أم كلثوم من هذا التصرف، وبدأت العلاقة تسوء بينها وبين السنباطي أيضًا، إلا أن السنباطي أعاد استرضاء أم كلثوم بألحانه لها.

وتضيف رتيبة: «أراد القصبجي التجديد في ألحانه لأم كلثوم إلا أنها كانت ترفض هذا اللون واتجهت إلى ألحان زكريا أحمد التي كانت تعتمد على الطرب، والمعروف أن القصبجي كان بطبعه مجددًا، يسعي إلى الخروج من الحدود التقليدية، دون أن يفقدها

طابعها، ومن هذه المحاولات الجديدة كانت أغنية «منيت شبابي»، وفيها حاول القصبجي أن يجعل أم كلثوم تغني سلما صولفائيا يبدأ من قرار المقام وينتهي بالجواب، وعندما تجاوب صوتها مع هذه الحركة السنية، مهد إلى الأوركسترا بأداء جزء من الأغنية، وتقول رتيبة الحفني: «المعروف أن صوت أسمهان يختلف في معدنه وإمكانياته عن صوت أم كلثوم، فأغنية «الطيور» لا تتفق وصوت أم كلثوم بينما أدتها أسمهان ببراعة وتمكن».

ويحتاج رأي رتيبة الحفني إلى الكثير من المراجعة والتدقيق؛ لأنه يقفز على حقائق وتواريخ يشكك في كلامها، فرأيها، يشير بصراحة إلى أن أسمهان كانت هي الخلفية الحقيقية لأسباب الجفاء بين أم كلثوم والقصبجي، والمراجعة تأتي في أن ما قدمه القصبجي لأسمهان ينقسم تاريخيًا على مرحلتين، الأولى، أنها غنت له ألحانا قبل زواجها من حسن الأطرش عام ١٩٣٣م، أي في عز تعاون القصبجي وأم كلثوم، ويقول فيكتور سحاب: من يسمع هذه الأغنيات لأسمهان، وبخاصة لحن القصبجي لكلمات يوسف بدروس: «كانت الأماني» يحس بعدم نضوج هذا الصوت، إذا ما قورن بصوت أسمهان الذي يعرفه العامة، على الرغم من البشائر الواضحة فيه، أما المرحلة الثانية فهي التالية لعام ١٩٣٧ بعد عودتها إلى القاهرة سنة ١٩٣٧م للقصبجي، لحنه الأصولي الكبير «ليت للبراق عينا» (١٩٣٨م) وهو لحن غناه قبلها إبراهيم حمودة، ثم حياة محمد في فيلمها «ليلي بنت الصحراء» (١٩٣٦م)، وارتجعت حياة محمد أمرها إلى المحاكم في هذا، وكانت أول قضية فنية يفصل في شأنها في مصر، وأول عهد الحقوق الفنية، لكن القصبجي أعطاها طائفة أخري من أجمل أغنياتها تراوحت من القصيدة «اسقنيها بأبي» (١٩٤٠م) قصيدة الأخطل الصغير الشهيرة، و «يا طيور» (١٩٤٠)، ونظمها يوسف بدروس، فخلدت في الغناء العربي نموذجًا للتطوير في اللحن والغناء، وقصيدة أحمد شوقي «هل تيم البان»، إلى أغنيات زجلية باللهجة العربية، لم تصل على اشتهار الأوليات،

مثل طقطوقة «فرق ما بينا ليه الزمان» التي ألفها أولا يوسف بدروس ثم ضاعت كلماتها بعد لحن القصبجي للمطلع، فعاود على شكري تأليفها محتفظًا بالمطلع المعروف: «فرق ما بينا الزمان، ده العمر كله بعدك هوان» ثم مثل «أنا اللي استاهل» (١٩٤٤م)، و «امتي حاتعرف» الرائعة ١٩٤٤م، والأخيرتان من فليم «غرام وانتقام»، الذي غرقت قبل أن تكمل مشهده الأخير، ويقول سحاب «أغنية امتى حاتعرف» ألفها مأمون الشناوي لما رغبت إليه وإلي القصبجي أن يضعا لها أغنية على نمط أغنية محمد عبد الوهاب «أنت وعزولي وزماني» للمؤلف نفسه.

والعرض الذي يأتي به فيكتور سحاب يوضح أن ما قدمه القصبجي لأسمهان جاء في نفس التوقيت الذي كان يقدم فيه لأم كلثوم ليس هذا فحسب، بل إن قنبلة «رق الحبيب» جاءت في عام ١٩٤٤م، وهو نفس العام الذي غرقت فيه أسمهان ولقيت حتفها، كما قدم القصبجي فيها بعد مجموعة أخري من الألحان لأم كلثوم كانت في عام ١٩٤٨م، وهي: «يا صباح الخير» و «نورك يا ست الكل» و «ياللي اتحرمت من الحنان»، كما أن من يؤرخ لتاريخ الهجر اللحني بين القصبجي وأم كلثوم، يؤرخه بعد مرحلة «رق الحبيب»، ثم الألحان الثلاثة التالية المشار إليها سابقًا، والمفارقة أيضًا أن الشيخ زكريا أحمد الذي اتجهت إليه أم كلثوم بعد القصبجي كما تقول رتيبة الحفني قدم أيضًا لأسمهان، كما يقول فيكتور سحاب ثلاث أغنيات على الأقل هي «هديتك قلبي»، وقصيدة أبي العلاء المعري «غير مجد في ملتي واعتقادي» و«عذابي في هواك أرضاه».

ويدخل في هذا السياق أيضًا ما أوردته رتيبة الحفني حول سوء العلاقة بين أم كلثوم والسنباطي؛ بسبب لحن قدمه لأسمهان بنصحية من القصبجي، إلا أن السنباطي أعاد استرضاء أم كلثوم بألحانه لها، حيث يتبين أن أسمهان قدمت أكثر من لحن أيضًا للسنباطي في ذروة تقديمه أيضًا ألحانا لأم كلثوم، حيث قدم كما يقول

فيكتور سحاب، قصيدة لأحمد رامي «أيها النائم» (١٩٤٤) ،ويعتبرها سحاب واحدة من روائعه الخالدة و«نشيد الأسرة العلوية» (١٩٤٤)، وكلتاهما في فليم (غرام وانتقام)، وحظرت إذاعة الثانية بعد ثورة ١٩٥٢ لإشادتها بأسرة الملك فاروق، ويضيف سحاب: «غنت أسمهان للسنباطي قصيدة لأحمد فتحي هي أغنية جميلة جدًّا على مقام جهاركاه تستحق شهرة لم تنلها «يالعينك ويإلي»، وأعلن السنباطي في فترة لاحقة أنه فقد تسجيلها، فأرسل إليه أحد المواطنين على الهواية الموسيقية في لبنان تسجيلًا، ما لبث أن أذيع في إذاعة القاهرة، وغنت أسمهان من ألحان السنباطي أيضًا أغنيتين أخريين على الأقل: قصيدة ابن زيدون «أقرطبة الغراء» وأغنية «الدنيا في إيدي والكل عبيدي (١٩٤٠م)».

وتشير كل هذه الحكايات إلى أن الذي باعد بين القصبجي وأم كلثوم، هو عامل إنساني يتداخل فيه التكوين الشخصي للقصبجي الذي يبدو منه أنه لخص الدنيا والوجود والحياة في شخص أم كلثوم ولم يشفي من غرامها أبدًا. ولم يستطع أن يصيغ معادلة معها كتلك التي صاغها أحمد رامي الذي أحبها بعمق أيضا لكنه جعلها مصدر إلهام لا ينضب.

ومن القصبجي إلى زكريا أحمد يأتي الابتعاد الآخر لأم كلثوم عن واحد من أساطين الموسيقي العربية، وواحد أيضًا من الذين كان لهم الفضل مبكرًا في إقناعها بالانتقال من طماي الزهايرة إلى القاهرة، كان زكريا كما يقول صبري أبو المجد «من الفنانين القلائل الذين يعتزون بأنفسهم ويحافظون على كرامتهم، رغم تواضعهم الجم، كريم إلى أبعد حد ومحب للغير، ومعروف بصراحته اللامتناهية فهو يقول للأعور أعور في عينه»، ويقول عنه نجيب محفوظ الذي اقترب منه سنوات، في مذكراته مع رجاء النقاش: «تعود معرفتي بالشيخ زكريا أحمد إلى صديق مشترك وهو «صلاح زيان»، وهو من الأعيان، كان صلاح زيان من سكان العباسية، وقد

تعود على إقامة سهرة يومية في منزله يحضرها الشيخ زكريا أحمد وكنت أسال نفسي: متي يعمل الشيخ زكريا ويتم ألحانه وهو يداوم على تلك السهرات اليومية؟، واكتشفت أن لديه القدرة على أن يلحن في أي وقت، وأذكر أنه لحن أغنية «حبيبي يسعد أوقاته» لأم كلثوم وهو يجلس معنا، وفي مرات عديدة كان يضع لحنين مختلفين لأغنية واحدة وهو يعرضهما علينا لنختار الأفضل».

ويضيف نجيب محفوظ: «عندما كان الشيخ زكريا يتحدث لا تشعر أبدًا في كلامه بأي محاولة من جانبه لاستخدام مصطلحات ثقافية أو فكرية، ولكنك تشعر أنك أمام رجل شعبي وابن بلد، رأسه ملئ بالموسيقي، أما شخصيته فكانت في غاية الطيبة والإحساس بالمودة الدافئة نحو الناس، وما كنت أظن أن يمتلك كل هذا القدر من الكبرياء الذي جعله يختلف مع أم كلثوم».

وعن فنه يقول فيكتور سحاب: « زكريا أحمد يمتاز دون غيره من الموسيقيين العرب الكبار بمزاجه الخاص ذي المقومات المركبة، وأول ما يخطر ببال معتنقيه، أنه محافظ يعاند التطوير والتبديل، وهذا في الواقع تصنيف غير دقيق، فالشيخ زكريا طور شكلين من أهم أشكال الغناء العربي (الدور، والطقطوقة) وأسهم في تطوير أشكال أخري، لكن تطويره لم يمس آلات الموسيقي العربية، أو المقامات العربية، أو الإيقاعات، فأسس تطويره على ملامح عربية أصيلة، فحفظ المضمون، وبدل في الأشكال، منطلقًا من الأشكال الأصيلة، ولذا قد يهم الناس في جعله رجعيًا في الفن، وهو خلاف ذلك، ويضيف سحاب: يحلو لمتفرنجين في الموسيقي أن يسموه بالجهل لأنه لم يكن عالمًا بالأساليب الغربية في الموسيقي، لكن الشيخ زكريا كان مثقفًا كبيرًا في ثقافتنا العربية، وكان لا يفوت لحن إلا حفظه، حتى سماه كامل الخلعي: «الملقاط» وفي الآداب كان يؤثر كتابي أبي حيان التوحيد «الإمتاع والمؤانسة» والجاحظ «البخلاء».. ولا يخضع ابتعاد زكريا عن التلحين لأم كلثوم إلى أي نوع من التخمين أو الاجتهاد كما هو الشأن

مع القصبجي، حيث أن أسباب زكريا معلنة وتمثلت في مقاضاته لها أمام المحاكم عام ١٩٤٨م استمر حتى الشهور الأخيرة في حياته، ودفع الفن العربي ثمن ذلك من ٤٨ حتى عام ١٩٦٠م ليس هذا فحسب بل إن زكريا اقلع عن التلحين تمامًا سنتين.. وفي الثالث عشر من يونيو ١٩٥٠م نشرت مجلة «روز اليوسف» خبرًا نصه:

«قبل الشيخ زكريا أحمد أن يقوم بتلحين بعض الأغاني للمطربة أحلام، لتقوم بغنائها في الموسم الصيفي الحاضر على مسارح الإسكندرية، وهذا أول مرة يلحّن فيها الشيخ زكريا أحمد أغاني خاصة للمطربات.. منذ مدة طويلة انقطع فيها لتلحين أغاني أم كلثوم وأغاني الأفلام، وسيسافر إلى الإسكندرية ليوالي تزويدها بألحانه».

ويبدو أن محاولة مصالحة أحرزت نجاحًا في السنة التالية، إلا أنها انتكست، فنشرت «روز اليوسف» في ١٩ حزيران / يوينو ١٩٥١م خبرًا مطولًا نصه:

«نَشرتُ في الأسبوع الماضي حديثًا لأم كلثوم عن القرآن الكريم، وقد جاءني هذا الرد من الموسيقار الشيخ زكريا أحمد أنشره هنا دون تعليق:

«عندما التقيت أنا وأم كلثوم لأول مرة بعد خصامنا الطويل.. خُيّل إليّ أن أم كلثوم قد وصلت إلى السن الذي يتصوّف فيه الإنسان ويتقرّب إلى الله، فلم أحادثها بطبيعة الحال عن موضوع الخلاف الذي كان قائمًا بيننا والذي يرجع إلى سوء معاملتها المادية والمعنوية لي».

«ورأيت وقتها أن أسدل الستار على الماضي، وأوقفت حديثي معها على أنه من واجبنا، وقد تجاوزنا الخمسين من عمرنا، أن نختم حياتنا الفنية ختامًا رائعًا، بتسجيل القرآن الكريم كلّه، وكان قد شاع آنئذ أنني لحنّت القرآن كما هو الحال في الأغاني، بل إنني لحنته بطريقة تعبيرية في الإلقاء، كما هو الحال في الآيتين اللتين حفّظتها لها في فليم «سلامة».

«وقصصتُ على أم كلثوم كيف أنني حاولت منذ عشرين عامًا تسجيل القرآن

كله على اسطوانات أوديون بالطريقة التعبيرية لا طريقة التطريب والتنغيم المعروفة الآن، ولكن فضيلة المفتي في ذلك الوقت أفتي بعدم شرعية تسجيل القرآن على الأقراص المتكلمة.

وبدأت أم كلثوم تنصت إلي في دهشة، ثم اقتنعت بعد ذلك بأن نسجّل السور الصغيرة لا القرآن كله، فوافقتها على أساس أن نتنازل عن حقوقنا كافةً لإحدى الجمعيات الخيرية، ولم توافق أم كلثوم طبعًا إلا بعدما أقنعتها بأن عملنا هذا هو خير ختام لحياتنا الفنية، وهكذا اتفقنا منذ شهرين على أن نتكتّم على هذا الأمر حتى نشرع في تنفيذه».

«ولكنني فوجئت هذا الأسبوع بحديثها في «روز اليوسف» الذي قالت فيه أنها على استعداد لتسجيل القرآن كله بلا مقابل، هدية منها لمسلمي الأرض جميعًا،ومع كل فبالرغم من أنها أخّلت باتفاقنا فإنني أتمني لها التوفيق في تنفيذ فكرتي هذه، وأرجو من الله أن يُكتب لها النجاح، كما نجحت في فيلم «سلاَّمة».

«وأخيرًا أحب أن أهمس لأم كلثوم بكلمة صغيرة، وهي أنها أرادت أن تعود عليها بركة القرآن وحدها، ولكن عليها أن تتذكّر أن وراءها تعهدات والتزامات أخلّت بها نحوي ونحو غيري، وأن عليها أن تفي بكل ذلك، ما دامت تريد أن تتقرب إلى الله، بتسجيل آيات كتابه الكريم.

زكريا أحمد

وبعد ثلاثة عشر عامًا جاء الصلح بين الطرفين، بعد أن قام القاضي عبد الغفار حسين رئيس محكمة القاهرة مستهل عام ١٩٦٠م بتلطيف الخلاف، وقال في نداء مؤثر أن المجتمع العربي يود من كل قلبه سماع أم كلثوم تتغني بألحان زكريا، ورد زكريًا متأثرًا كما تقول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد، بأنه ينظر إليها على أنها سيدة مطربات الشرق، وغرضه خدمة الفن بشخصها، فلم تتمالك أم كلثوم، وقالت أنها تقدر زكريا وترتاح إليه فعلاً، وقال محامي الحكومة وكان من طرف الإذاعة على

اعتبار أن زكريا رفع القضية ضدها كطرف مع أم كلثوم، قال المحامي: أن الإذاعة ترحب باتفاق الطرفين، وإنهاء النزاع على ما يرضيهما، فتهلل القاضي وعرض الصلح، فتصافحا، ثم اتفقا على أن يلحن لها ثلاث أغنيات في السنة لقاء سبعمائة جنيه في كل لحن، وكان مسك الختام أغنية «هو صحيح الهوي غلاب»، كلمات بيرم التونسي وفي يوم ١٤ فبراير ١٩٦١م مات زكريا أحمد بعد أن كتب في مذكراته اليومية يوم ١٣ فبراير: «ذهبت إلى ملجأ العميان في الزيتون لأسمع صوتًا جديدًا قيل: أنه معجزة، كانت الليلة ليلة الأربعين للمرحوم بيرم التونسي رحمه الله وغفر له ولنا جميعًا».

يبقى في قضية علاقة أم كلثوم بالجيل القديم، وذلك قبل الدخول إلى علاقتها بالجيل الجديد الطالع مع ثورة يوليو ١٩٥٢م، مسألة انفراد السنباطي بشكل شبه تام بصوتها بعد خروج القصبجي وزكريا أحمد للأسباب المشار إليها سابقًا، وظل هذا الانفراد من سنة ١٩٤٩م حتى عام ١٩٦٠م ،ويري فيكتور سحاب أن السنباطي في هذه المرحلة أنكب يصوغ ملامح أسلوبه الخاص في التلحين، غير متأثر بمن رافقوه، ويري سحاب أن قبل عام ١٩٤٨م ظهرت ملامح التلحين بالأسلوب السنباطي المعتمد على الإيقاعات العربية الوقورة، والبحور الشعرية التقليدية الفسيحة، والكلمة الفصحى التي تقتضي في الإجمال لحنا مركزًا، والسكك المقامية الراسخة البعيدة عن المغامرة، فعلي هذا النمط ظهرت قصيدة رامي «اذكريني» (١٩٣٩م)، ومجموعة من المخلدات: «نهج البردة» و«ولد الهدي» و«سلوا قلبي» و«سلوا كؤوس الطلا» وجميعها لشوقي وظهرت سنة ١٩٤٦م.. «وسلوا كؤوس الطلا.. هل لامست فاها».. هي التي ألفها أمير الشعراء في أم كلثوم، لما دعاها إلى الشراب في وليمة عامة، فاصطنعت الشراب تأدبا، ولم تجرع من الكأس، وفي هذه المرحلة السابقة لسنة ١٩٤٨م، نسج السنباطي على منواله هذا قصائد أخري: «كيف مدت على هواك القلوب؟» لرامي (١٩٤٤م)، و«وفي الأرض شر مقاديره» قصيدة «السودان» لشوقي،

(١٩٤٦م)، لكنه وضع بالنسق نفسه ألحانًا لأزجال منها: «فاكر لما كنت جنبي» رامي (١٩٤٩م)، و«هلت ليالي القمر» رامي (١٩٤٩م).

وكما يري سحاب أن كثيرًا من ألحان السنباطي قبل ١٩٤٨م كانت تظهر منها أعراض التأثير المباشر الصريح بمن عملوا معه من عباقرة اللحن، إذ يبدوا أثر القصبجي في «النوم يداعب» لرامي، «وقضيت حياتي» لرامي في فيلم «نشيد الأمل» و«غلبت أصالح في روحي» لرامي في (١٩٤٦م)، ويبدو أثر الشيخ زكريا أحمد في أغنيات كثيرة منها طقطوقة على «بلد المحبوب» لبيرم التونسي، ويقول سحاب «لما توقف زميلا السنباطي عن العمل في فريق «أم كلثوم»، انصرف هو إلى أسلوبه الخاص يعلي صراحة لبنة لبنة، حيث اختلط الأسلوب الكلثومي في الغناء بالأسلوب السنباطي في التلحين، وأمكن لرياض أن يقول في حديث لتليفزيون الكويت : «قصة حياتي هي أم كلثوم»، وبدأت هذه المرحلة المنفردة برباعيات الخيام عام ١٩٤٩م، تلاها روائع أخرى حتى كانت الذروة في قصيدة الأطلال عام ١٩٦٦م أشعار إبراهيم ناجي، وهي القصيدة التي تحوز على إعجاب كامل يصل إلى حد وصفها بالأغنية «مكتملة الشروط».

ويروي الشاعر فاروق شوشة أن دموع محمد عبدالوهاب سالت في صمت أثناء نقاش إحتدم في منزله حول سؤال طرحه هو عن أفضل ما قدمته أم كلثوم، فتباري الكل بتلقائية نحو قصيدة الأطلال، متناسين أنهم في حضرة عبدالوهاب الذي قدم لأم كلثوم ألحان جميلة أيضًا، وعندما انتبهوا لذلك أبدوا تأسفهم حرصًا على مشاعره لكن الرجل قال لهم ودموع تغالبه: «معكم حق، هي الأطلال» (•).

ومن المرحلة التي بدأت برباعيات الخيام عام ١٩٤٩م حتى الأطلال عام ١٩٦٦ يختار فيكتور سحاب، سنة ١٩٥٨م، حيث ظهرت مجموعة من الكلثوميات

(•) سهرة بالقناة الأولي في التليفزيون المصري عن رياض السنباطي تقديم فريال صالح عام ١٩٩٨م.

المشهودة التي أرست طابع الأغنية السنباطية المسرحية «أروح لمين» لعبد المنعم السباعي، و«أنا لن أعود إليك» لأحمد فتحي، و«شمس الأصيل» لبيرم، التي امتزج فيها زجل بيرم التونسي، ولحن السنباطي في أداء تعبيري موحد نادرًا ما تضاهيه وحدة في التعبير، و «دليلي احتار» لرامي، و«عودت عيني» لرامي ،و يقول سحاب: «في هذه السنة ربما تقدم السنباطي بهذه الأغنيات خطوة أخري نحو تثبيت المزاج الذي وضع مواصفاته لحفلات أم كلثوم، فلازمها حتى المات، في معظم أعمالها الأخرى».

والأمر اللافت للنظر في مسيرة السنباطي مع أم كلثوم، أنه هو أكثر من قدم لها ألحانا سياسية ووطنية وبلغت ثلاثة وثلاثين أشهرها حسب سحاب «نشيد الجامعة» لعبد الفتاح مصطفي (١٩٣٦)، و«نشيد بغداد» لرامي (١٩٣٩)، وقصيدة «النيل من أي عهد» لشوقي (١٩٤٩)، وقصيدة «مصر تتحدث عن نفسها» لحافظ إبراهيم (١٩٥١). ويعد خبراء الموسيقي أن هذا اللحن من أقوي ما وضعه السنباطي حبكا وصياغة، ولما قدمت ثورة يوليو ١٩٥٢، غنت «صوت الوطن» لرامي (١٩٥٢).. ولما نجا جمال عبد الناصر من الاغتيال سنة ١٩٥٤، غنت له: «يا جمال يا مثال الوطنية، أحسن أعيادنا المصرية، بنجاتك يوم المنشية»، وأعادت غناءها عندما تجدد انتخابه رئيسًا سنة ١٩٦٣م بكلام بدله بيرم التونسي قبل وفاته «يا جمال يا مثال الوطنية، أجمل أعيادنا المصرية برئاستك للجمهورية»، وفي ثورة العراق يوليو ١٩٥٨م، قدمت «بغداد يا قلعة الأسود» لمحمود حسن إسماعيل (١٩٥٨م)، وأنشودة «منصورة ياثورة أحرار» لعبد التفاح مصطفي ١٩٥٨م، وغنت في قيام وحدة مصر وسوريا في ٢٢ فبراير «بعد الصبر ما طال» لبيرم (١٩٥٨م)، وكذلك «وفق الله خطانا» لمحمود حسن إسماعيل (١٩٥٨م)، ثم غنت للسد العالي «قصة السد» لعزيز أباظة (١٩٦٠م)، و«ثوار» لعبد الفتاح مصطفي (١٩٦٠م)، ثم أغنية وطنية شعبية «طوف وشوف» وهي الأغنية الوحيدة التي حضرها السنباطي

بشخصه، إذ قاد الفرقة الموسيقية وهي تعزفها وأم كلثوم تغنيها في نادي الزمالك أمام الرئيس جمال عبد الناصر في احتفال الثورة ١٩٦٣م، ثم غنت «يا حبنا الكبير» لعبد الفتاح مصطفي (١٩٦٥م)، وفي احتفالات عيد الكويت الوطني «أرض الجدود» لأحمد العدواني (١٩٦٦م)، وفي السنة ذاتها غنت قصيدة لم تذع بعد ١٩٦٧م هي: «من أطلع الفجر الجديد» لمحمد الماضي.

وقبيل النكسة «راجعين بقوة السلاح» لصلاح جاهين (١٩٦٧م)، وبعدها «قوم بإيمان وبروح وبضمير» لعبد الوهاب محمد (١٩٦٧م)، و«قم وأسمعها من أعماقي» صالح جودت (١٩٦٧م)،وغنتها عندما تنحي عبد الناصر على أثر نكسة ٥ يونية عام ١٩٦٧م تناشده البقاء في الحكم وأذيعت يومين، ولم تذع بعد عودته عن الاستقالة استجابة للمظاهرات الحاشدة التي عمت الوطن العربي تطالبه بالبقاء ، وبعد رحيل عبد الناصر قدمت قصيدة نزار قباني «رسالة إلى عبد الناصر» (١٩٧٠م).. ولا تشمل قائمة سحاب،أغنية لأحمد شفيق كامل - سيأتي الحديث عنها فيما بعد - وكانت مواكبة لقرار الانفصال بين مصر وسوريا عام (١٩٦١م).. «باسم مين يا خارجين ع الشعب».

الخلفية التاريخية السابقة في علاقة أم كلثوم بالقصبجي، وزكريا والسنباطي، هي مقدمة ضرورية لفهم تعامل أم كلثوم مع الجيل الجديد من الملحنين (محمد الموجي - كمال الطويل - بليغ حمدي)، ليس هذا فحسب بل علاقتها أيضًا مع عبد الحليم حافظ كنموذج جاء مع الثورة واقترن اسمه بها، أضف إلى هذا فإن العوامل السياسية والاجتماعية الجديدة ساهمت في نوع آخر من الغناء لديها قدمه واحد بقامة السنباطي المحسوب على الجيل القديم، تلك المتمثلة في الأغنيات الوطنية.

وكانت هي تتابع الألحان الجديدة لهذا الجيل إلى درجة أن محمد الموجي يروي أن لحن «صافيني مرة» ولحن «وأنا قلبي إليك ميال» كان عامل لها حالة ما، حسب ما

قالت له، وقد يري البعض أن نوعا من تعاملها مع الجيل الجديد جاء بنتائج سلبية ولم يكن موفقًا، وتحديدًا فيما قدمه بليغ حمدي، ويشير فيكتور سحاب بطرف خفي إلى ذلك بقوله: «يختلف النقاد في أسوأ ما غنت من ألحان، فيقول بعضهم أنه: «حب إيه»، أول أغنيات بليغ لها، ويقول بعض آخر: بل إنه «حكم علينا الهوي» آخر أغنياته لها.

علي النقيض من هذه الرؤية يقول الملحن والموزع الموسيقي ميشيل المصري: أفاد بليغ أم كلثوم إفادة بالغة واستطاع أن يجدد دماءها؛ لأنها التقت معه في أواسط عمرها الفني، وكانت تحتاج إلى هذا التجديد بعد مرحلة من الغناء الصعب الذي يعتمد على مقدرة الملحن وتمكن المطربة.. فإذا ببليغ ينزل بأم كلثوم من برجها العاجي ويجعلها تغني مع البسطاء، أو يجعل البسطاء يغنون معها قبل مرحلة عبد الوهاب الذي لابد أن أخذ في حسبانه سبق بليغ والموجي لها».

كما يري البعض أيضًا ، أن بليغ هو الملحن الذي أخضع صوت أم كلثوم لتجارب ناجحة، حتى أنه جعلها كأميرة للغناء الكلاسيكي، تغني الشعبيات مثل أغنية« حكم علينا الهوي» الذي لم تمكنها حالتها الصحية أن تغنيها على المسرح فغنتها على أسطوانة، وينقل الصحفي محمد مرسي عن بليغ أنه أدخل الكورال على موسيقي الكوبليه الثالث، وكانت معضلة كيف سيدخل الكورال أو يخرج من المسرح بعد أداء هذه الفقرة؟ وكان الاقتراح أن يتم رفع ستاره عن الكورال خلال هذه الفقرة ثم يتم إسداله بعد نهايتها، وتلك واحدة من تجارب بليغ معها أو هي آخر تجاربه إليها، ففي أغنية« ألف ليلة وليلة» أدخل تيمة «ميتي أشوفك يا غايب عن عيني» على المقدمة، من لحن سبق أن قدمه لمحمد رشدي، ولما سألته أم كلثوم عن السبب قال لها.. أنت أهم صوت عربي على الإطلاق، وأريد أن أستغل هذا الصوت في توصيل الشعبيات والفولكلور المصري العربي إلى العالم، كما احتوت مقدمات بليغ على نوع من التجريب بدءًا من إدخاله الأكورديون لأول مرة في أغنية «سيرة الحب».. عندما عثر

على فاروق سلامة يعزف «الربع تون» بمهارة وحلاوة غريبة في شارع محمد علي، واعتراض أم كلثوم على هذا التطوير، ثم إعجابها الشديد بعزف فاروق وموافقتها على إدخال هذه الآلة لأول مرة، ثم إدخال آلة «الساكس» في مقدمة فات الميعاد، وهي مقدمة تعد غريبة للغاية بالنسبة لمقدمات أم كلثوم الموسيقية (•).

من محطة بليغ حمدي التي فرضت نفسها على اعتبار أنها موضع النقد الأكبر بين أبناء الجيل الجديد الذي تعاملت معه أم كلثوم، ومن قبله محمد الموجي وكمال الطويل، ثم المحطة الأوسع التي يمكن تلخيصها في سؤال: ماذا قدم لها الجيل الجديد؟ وماذا قدمت له؟ كيف كان هذا يتم في إطار لوحة تتشابك فيها الخيط السياسي بالفني بالاجتماعي؟

يقول الشاعر الغنائي أحمد شفيق كامل: تجددت أغنية أم كلثوم بعد الثورة بفعل الشباب الجدد من المؤلفين والملحنين، بالإضافة إلى المناخ العام الذي أعطي لهؤلاء الإنطلاقة، وأعطي للأغنية معني جديدًا، ولو قمنا برصد الأغنية الكلثومية، سوف نجدها روتينية حتى قبل تعاونها مع كمال الطويل ومحمد الموجي في أغنيات رابعة العدوية، حيث انتقلت مع الاثنين إلى نوعية أخري، كما تغيرت تماما مع بليغ حمدي في أغنية «حب إيه»، ثم بدأت مع عبد الوهاب «أنت عمري» معرفة اللزم الموسيقية الطويلة.. كانت أغنية أم كلثوم قبل هذه المراحل عبارة عن لزم موسيقية واحدة، لكنها انتقلت إلى اللزمات المتعددة.

يري عمار الشريعي أن الجيل الجديد أضاف نكهة مختلفة إلى الأغنية الكلثومية، والأهم من ذلك أن هذا الجيل قرب أم كلثوم من الزمن الذي تعيش فيه.. كانت قد وصلت إلى مرحلة شعرت فيها أنها تبتعد عن الأجيال الصغيرة، حتى بدأت مع كمال الطويل والموجي في الأغنية الوطنية، وأغاني رابعة العدوية.. غير أن بدايتها مع بليغ حمدي بتقديم لحنه «حب إيه» في الحفلات العامة، كان الانطلاقة الحقيقة نحو الجيل الأصغر، والجملة الأقصر،

(•) الاقتباس.. هنا من مجلة نصف الدنيا ملحق « ثومة » (٦ فبراير ٢٠٠٠).

والعاطفة السهلة، بعد أن تعودت من السنباطي من قبل على العاطفة الحادة.

يضيف الشريعي: كان السنباطي صاحب تركيبة مركبة، وعواطف مركبة أيضًا، بمعني أنك لا تستطيع قطعها بسكين كما تقطع قالب الزبد،كانت جملته اللحنية مزيدًا من الكبرياء والرصانة، والعمق، والشجن العالي جدًا، جملة صعبة لا تستطيع ترديدها فور انتهاء اللحن، وإنما تحتاج إلى وقت لترديدها، والدليل على هذا، أن أم كلثوم هي التي أصرت على إنجاح قصيدة الأطلال التي استقبلها الناس في الحفلة الأولي بصمت وفي الثانية بصمت أقل، وبهياج وفرقعه في الثالثة، حتى تسربت إلى وجدان الناس في النهاية، والخلاصة أن السنباطي جلس بأم كلثوم في صومعة فوق الناس، غير أن الجيل الجديد قام بإنزالها من هذه الصومعة، زاده صراع الأدمغة بين عبد الوهاب وبليغ في محاولات جلب آلات موسيقية جديدة، والتعامل مع الكلمة، والجملة الموسيقية التي نزلت بأم كلثوم إلى رجل الشارع.

يواصل الشريعي: أما تعاونها مع محمد الموجي، فلم يكن له حظ سعيد عكس ألحانه الأولي لها، فلحن «إنما للصبر حدود»، جاء في توقيت ليس في صالحه تماما، حيث نزل اللحن أمام قطار اسمه «إنت عمري» وأصرت أم كلثوم على أن تؤجل هذا اللحن لينزل إلى الجمهور مع «إنت عمري» مما أدي إلى دهسة على الرغم من جماله..

أما أغنية «اسال روحك»، فجاءت في وقت فقدت فيه سيدة الغناء الكثير من قدراتها الخارقة، ويدلل الشريعي على رأيه بقوله ، إنها بعد تقديمها ل«أسال روحك »كوصلة أولي في حفلتها، وحسب ما سمعت من زملائي الموسيقيين الذين شاركوها هذا الحفل، أنها بكت خلف الكواليس، وسألاها أحمد الحفناوي، وعبد الفتاح منسي عن السبب، فأجابت: «متعودة أن الهوي يملا صدري، المرة دي مش لاقية الهوي على «طراطيف صوابعي».

يضيف الشريعي، حظ الموجي معها مثل حظ سيد مكاوي، ولو غنت للموجي

أيام عزها لأخذنا غناء غير عاديًا فألحان مثل «الرضا والنور» و«حانة الأقدار» يقف وراءهما ملحن من الطراز الثقيل، لو أعطت أم كلثوم بيدها له، واليد الأخري لبليغ حمدي، لاستمعنا إلى أغنيات كلثومية غير عادية».

ويتذكر محمد الموجي حين طالعته أم كلثوم بقصيدة حانة الأقدار: «وجدت أمامي ثلاث قصائد في قصيدة واحدة، ومختلفة في شكلها وإيقاعها، ومن دون أن أدري أسرني هذا الشكل الذي أبدعه طاهر أبو فاشا، فاستخدمت ثلاثة إيقاعات مختلفة، وعندما أرهفت السمع إلى مقطع «أيكة الأطيار» شعرت أنني في جو أندلسي، تخيلت أنني زرياب، ووجدت نفسي، أستعين بإيقاع الفالس، ولكي أوحي بأصوات الكورس خصوصًا أن اللحن سيغني في حانة ـ حسبما جاء سيناريو الفيلم ـ استخدمت في الإيقاع النقر على الكمان، وآلة المثلث لتعطي صوتًا بلوريًا، وعندما فرغت من التلحين، وجدت نفسي أمام ثلاثة موشحات جميلة، متصل بعضها ببعض، لا ارتباك فيها ولا تفكك، لأنني كنت في كل مرة أختتم المقطع الغنائي بالمقام الذي سأبدأ فيه المقطع الذي يليه، ومع ذلك تملكني الرعب، وراجعت نفسي كثيرًا قبل أن أذهب إلى أم كلثوم، فاستخدام هذا التلوين في الشكل، والإيقاع لم يكن مألوفًا فيما سبق...ولكنني توكلت على الله.

من محمد الموجي، وبليغ حمدي، إلى كمال الطويل، بوصفه قطبا رئيسيًا من أقطاب الجيل الطالع مع ثورة يوليو، يبقي السؤال،إذا كانت التجربة الكلثومية مع الطويل كانت مبشرة إلى حد كبير في البدء، فلماذا لم يتواصل التعاون معه؟

الإجابة يقدمها الطويل يقول: هذه حكاية عاصرها الكاتب الصحفي مصطفي أمين، فكنا نلتقي أسبوعيًا في منزل كامل الشناوي، أم كلثوم، مجدي العمروسي. عبد الوهاب. وآخرون، وفي أحيان أخري كنت أذهب إلى أم كلثوم، مع الكاتب أحمد بهاء الدين والروائي فتحي غانم،كان بهاء يتحدث في السياسة وغانم في

الثقافة والأدب، وكانت هي تحب هذا المناخ، وفي إحدى هذه الزيارات أعطتني ثلاثة نصوص غنائية، أذكر منها أغنية «لسه فاكر» التي لحنها السنباطي فيما بعد، وأخرى دينية لبيرم التونسي، وحسب طبعي حين أقدم لحنا جديدًا لأي فنان، لابد من توافر شرط الاقتراب الإنساني بيني وبينه.. وكان هذا متواجدًا مع أم كلثوم منذ بدء تعاوني معها في «والله زمان يا سلاحي» وأغاني رابعة العدوية مع الموجي والسنباطي.

يضيف الطويل : أخذت منها النصوص الغنائية الثلاثة، ثم سافرت مع زوجتي إلى أوروبا دون أن أخبرها وبعد عودتي جاءني مجدي العمروسي وقال لي: أريد أن أخبرك بشئ هام، وبدأ في سرد رواية كان هو طرفها كما أخبرني. قال: كنت عند مصطفي أمين منذ أسبوعين، وكان عنده أم كلثوم وزوجها حسن الحفناوي، وقالت أم كلثوم: «أنا نفسي أعرف، كمال الطويل في الوقت اللي الناس عندها ظروف (...) بيسافر هو وزوجته إزاي»، فرد مجدي حسب روايته لي: «كمال سافر ياست زي لما بتسافري أنت وزوجك ».. يقول الطويل ،اندهشت كيف لأم كلثوم أن تقول هذا.. بينما أذهب إليها دائمًا أنا وبهاء، وغانم، وعلي أثر هذا قررت الانقطاع عن زيارتها وتركت تعليمات في البيت بأن يكون الرد عليها في حالة اتصالها أنني غير موجود، وحاول مصطفي أمين أن يعرف سبب انقطاعي المفاجئ للذهاب إلى منزله في حضور أم كلثوم كما كان من قبل، وأيضًا عدم تلحيني للأغاني التي بحوزتي.. وكان ردي عليه: «مفيش مزاج».

يواصل الطويل :مرت سنوات طويلة حتى رحلت أم كلثوم، وخرج مصطفي أمين من السجن، وفي لقاء لي معه سألني: «أنا عايز أعرف سر انقطاعك عن أم كلثوم؟» فرويت له الحكاية، فرد منفعلًا: «ضحكوا عليك.. إزاي ما قدرتش تفهم إن ده ملعوب علشان يبعدوك عنها.. الموضوع كان في منزلي، ولم يحدث من الأصل»، وسألني: «لماذا فعل ذلك مجدي العمروسي معك، وهو يعلم أنك عصبي ومندفع، ما هي مصلحة مجدي؟» ثم أجاب: «ده مقلب دبره عبد الحليم ومجدي، لأن ظنهما ذهب

إلى أنك لو نجحت مع أم كلثوم، وكان هذا متوقعًا ستنشغل عن عبد الحليم».

كسب عبد الحليم، كمال الطويل، وخسرته أم كلثوم بوشاية مقصودة، غير أن الملمح الرئيسي في الرصد ،يعطي ويؤكد جوانب الحرص من أم كلثوم على أنها بقدر ما مدت ذراعها إلى حرسها القديم المتمثل في السنباطي، مدت ذراعها الثانية إلى الجديد من الملحنين، والذي أضفي عليها كما يقول عمار الشريعي: سمة الاقتراب من الناس.. هذا الملمح الذي جاء انعكاسًا حقيقيًا لمسار عبد الناصر في مشروعه السياسي، مسار «الاقتراب من الناس».

كان وهج الأغنية يبعث بإشاراته ، ويجتهد رموزها لإرساء دعامة لهم في هذا ، ومارس عبد الحليم حافظ سطوته في هذا الاتجاه، وفرد ذراعيه لكل جديد، وكان كما يقول كمال الطويل: «صوتنا إلى الشارع»،غني عبد الحليم للثورة، وشق طريقه بطموح مبكر نحو التفرد، أدي به كما قال نزار قباني إلى « قيادة شعب بصوته »، كان واحدًا من الجيل الجديد الذي رأته أم كلثوم مع الثورة ، وإذا كانت هي التقطت مبكرًا ضرورة نسج علاقة بقدر ما مع نماذج متفردة من هذا الجيل، إلا أنها ربما تكون قد نظرت إلى عبد الحليم بعين الغيرة الفنية أحيانًا وربما يكون هو أيضًا قد نظر إليها بنفس العين، كما تشير الحكاية «الوشاية» التي رواها كمال الطويل،ويعطي الدكتور هشام عيسي الطبيب الخاص لعبد الحليم حافظ صورة أكثر وضوحا مستمدة من بقائه لسنوات طويلة بجوار عبدالحليم مما جعله وعاء للكثير من أسراره .

يقول هشام عيسي : عاش حليم كما عاش جيله في ظل الحضور الطاغي لأم كلثوم ، ورغم أنه احتل مكانة في القمة التي شملت أم كلثوم وعبد الوهاب ، ورغم أنه قليلاً ما اجتمع معها في الحفلات الغنائية كما أنهما لم يلتقيا كثيرًا في مناسبات اجتماعية ، وقد ربطت بعض الحوادث والأحاديث بين أم كلثوم وحليم إلا أن الصداقة أو الود لم تكن أبدًا ضمن عناصر العلاقة بينهما ، وفي حياته كلها لم يقم

بزيارة واحدة إليها ، كما أن أم كلثوم بدورها لم تفعل هذا الشيء طبعا ، وحتي لم تقم بالسؤال عنه خلال إحدى أزماته المرضية ، وفي العلن لم يحدث أن تبادلا الثناء على أدائهما الغنائي وهي مجاملات كانت تحدث بين كل الأطراف رغم الخلاف »، ويضيف هشام عيسي:« لست أعرف على وجه اليقين مدى تبادل الإعجاب الحقيقي ، على الأقل من وجهة نظر أم كلثوم التي لم أقابلها مباشرة في حياتي ، وهو شيء أسفت له طويلاً ، أما حليم فكان من أشد المعجبين بغنائها طبعًا ولم يفصح عن إعجابه بها حتى في الأحاديث الخاصة ، وعندما كنا نستمع إليها كان يقول : أن الله قد أعطاها فكان سخيًا في عطائه لها ، إن صوتها معجزة وأداءها منحة عثرت عليها داخلها، ولا فضل لها بعد ذلك ، وهو تعبير يضمر إعجاب الفنان الدارس وتغلفه خصومة لها ما يبررها» .

ويشير هشام عيسي إلى مدى التأثير الذي قدمه عبد الحليم حافظ وجيله في أم كلثوم بقوله :« كان حليم ينتظر أغانيها ويستمع إليها مبكرًا ، وعندما بدأ كل من الموجي، وبليغ، وكمال الطويل يلحنون لها زاد اهتمامه ، كانت نظرة حليم إلى هذا الثلاثي العبقري أنهم زملاء مسيرة واحدة معه قدموا خلالها صورة حديثة للغناء العربي ، وكان حليم هو الإطار الذي أحاط بالصورة، وقدمها للناس في صورة جميلة ، وكان أكثر اهتمامه موجها لألحان بليغ ، فالموجي قدم لأم كلثوم ألحانًا كلثومية لا تصلح إلا لها بتعبير حليم ، وكمال كان مقلاً في ألحانه بوجه عام أما بليغ فقد قدم لها الجديد ، ورغم أنه بدأ بلحن تغلب عليه الأرتال الشرقية إلا أن ألحانه بعد ذلك بدأت تشاهد المصاحبة للأورج والجيتار ، وقد فعل عبد الوهاب نفس الشيء » .

يضيف عيسي أن بليغ حمدي تمادى في التجديد فغنت أم كلثوم الفولكلور في أغنية « ألف ليلة وليلة ، ويقول :« أن التمادي بلغ أقصاه في آخر أغانيها « حكم علينا الهوي » الذي ظهر فيها الكورال لأول مرة في أغنية طويلة لأم كلثوم ، وعلى أي حال، فإن أم كلثوم لم يسعفها الوقت لتقديمها في حفل غنائي كما تعودت،

واقتصرت على تسجيلها على أسطوانة كنا أول من استمع إليها حين أحضرها بليغ لحليم في منزله ، وكان لحن « الحب كله حبيته فيك » هو أكثر الألحان التي أعجبت حليم وتمني لو غناها ربما بكلام مختلف كذلك أحب حليم لحن عبد الوهاب « ودارت الأيام » وغناه كثيرًا في حفلات خاصة ».

ويروي هشام عيسي قصة بسيطة لكنها تعبر عن أن عبد الحليم حافظ كان يعرف ذوق جمهوره ، كما أن أم كلثوم كانت تعرف ذوق جمهورها أيضا ، وكان الاثنان على مقدرة في الرد على بعضهما علنا فيما يتعلق بهذه النقطة ، يقول عيسي : « حدث عندما أصبح الأورج ضمن الأوركسترا المصاحب لأم كلثوم أن ظهر في الفرقة وجهان جديدان هما المرحوم عمر خورشيد عازف الجيتار الراحل ، ومجدي الحسيني عازف الأورج وكلاهما من الموهوبين ، وخلال إحدى حفلات أم كلثوم بدأ مجدي يمارس ماتعود عليه خلال حفلات إبراز قدراته في العزف على الأورج ، وكان ذلك يتم بحركات معينة يرفع خلالها أصابعه إلى أعلي ثم يدير ظهره للأورج ويعزف عليه باقتدار وينتهي ذلك دائما بتحية حارة من الجمهور إليه ، وما أن فعل ذلك مع أم كلثوم حتى استبد بها الغضب وأشارت إليه أن يكف عما يفعله ، وفي الاستراحة لم تنتظر كثيرا وطلبت منه أن يغادر الفرقة والمكان فورًا، وألا يعود إليها أبدا، ورأي حليم ما حدث ، فبدأ الحفل بتقديم الفرقة الموسيقية وخص مجدي بصفات مبتكرة ولقبه بعفريت الأورج، وترك له مساحة من الوقت قام فيها بكل حركاته البلهوانية، والتي كانت تعجب جمهور حليم بوجه خاص» .

كانت حفلات عيد الثورة كل عام يحضرها عبد الناصر وقادة الثورة، تغني فيها أم كلثوم وعبد الحليم في حفلة مشتركة، وجرت العادة أن يبدأ عبد الحليم الغناء، ثم أم كلثوم، لكنها اشترطت في حفل نادي الضباط عام ١٩٦٣م أن تبدأ هي بالغناء، ولم يكن عبد الناصر حاضرًا هذه المرة، واستمرت أم كلثوم في الغناء حتى الساعات

الأولى للصباح، وحين جاء الدور على عبد الحليم، صعد المسرح بغيظ، وقال: « أنا مش عارف إن كان غنائي بعد السيدة أم كلثوم شرفًا لي أم مقلبًا منها ».

كانت الكلمات فتيلا أشعله عبد الحليم، ويقول هشام عيسي :« استشاطت أم كلثوم غضبًا وهي تستمع إليه وحكى لي العازف النابغة أحمد الحفناوي أنها كلمته قائلة :أرأيت ماذا يقول هذا الولد ، كيف أقدم على هذه الجرأة ؟

ويضيف عيسي أن أم كلثوم أبلغت الرئيس عبد الناصر رغبتها أن تغني وحدها في عيد الثورة ، وأنها ترفض أن يشاركها في ذلك أي مطرب آخر ، وحسما للنزاع كان القرار أن تنفرد هي بحفلة ٢٣ يوليو ، ويقام حفل غنائي آخر في ٢٦ يوليو ، وهي مناسبة رحيل الملك فاروق من مصر ؛ وبقوم حليم بإحياء الحفلة في الإسكندرية .

كان عبد الحليم ، على الهاتف مع عبد الناصر في اليوم التالي.. ويروي الشاعر الغنائي وصديق عبد الحليم، محمد حمزة أنه في اليوم التالي من الحفلة التي أغضب فيها عبد الحليم أم كلثوم ، كان عبد الحليم على الهاتف مع عبد الناصر ، ويروي حمزة جانبًا من هذه المحادثة قائلاً:

« كان لعبد الحليم طريقة معينة في الاتصال بعبد الناصر يفهم من خلالها إذا كان الرئيس مشغولًا، أم لديه متسع من الوقت للحديث معه، فإذا استمر دق جرس التليفون لفترة يكون الرئيس في هذه الحالة مشغولًا بشيء ما، أما إذا رفعت سماعة التليفون على الفور، يكون لدي عبد الناصر متسع من الوقت للحديث.. وحين اتصل عبد الحليم به بعد عاصفة حفل أم كلثوم، كان غرضه من الاتصال معرفة رد فعل ما حدث، كان عبد الحليم يخاطب عبد الناصر في التليفون بـ «بابا» وبعد الاطمئنان المتبادل من الاثنين، وحديث عبد الحليم عن لحنه الجديد الذي قدمه في حفله الأخير، حاول عبد الحليم أن يجد مدخلًا لرواية ما حدث منه مع أم كلثوم، غير أن الرئيس نقله إلى أحاديث أخرى تتعلق بالسؤال عن لحنه الجديد.

يرصد كمال الطويل جانبًا آخر من نتائج هذه الحكاية قائلًا: «ما فعله عبد الحليم كان متسقا مع تكوينه الشخصي المدعوم بإحساس مفرط بالكرامة والغيرة الشديدة على فنه، رغم ذلك كان قلقًا مما حدث واحتفالات عيد الثورة فيما بعد، تلك المناسبة التي كنا نتسابق فيها على تقديم الألحان الوطنية الجديدة، استخدم عبد الحليم حاسة شمه القوية، أقصد بذلك اتصاله، أو تواجده في الوقت المناسب، والمكان المناسب اللذين يتواجد فيهما عبد الناصر، على هذا النحو كان تصرفه بعد الحفل، وأسفر هذا عن قرار لعبد الناصر بحفلتين لعيد الثورة، واحدة لأم كلثوم يوم ٢٣ يوليو من كل عام وثانية لعبد الحليم يوم ٢٦ من نفس الشهر في الإسكندرية، يضيف الطويل : « كان القرار رائعًا وحمل دليلًا على عظمة عبد الناصر الذي احتفظ لأم كلثوم بحفل ليلة الثورة تقديرًا لتاريخها وقيمتها، وأكد على قيمة عبد الحليم بتخصيص حفل مستقل له».

لم تنته جولات الصد والرد بين أم كلثوم وعبد الحليم عند هذا الحد ، ويستكمل هشام عيسي سرد باقي القصة التي يري أن أم كلثوم كسبت جولتها الأولي ، لكن وكما يقول :« الأوار ظل مشتعلاً » ، وجاء فيه ردود قاسية متبادلة بين الطرفين ، وكان عازف الكمان الشهير أحمد الحفناوي الذي ارتبط بعلاقة حميمية مع أم كلثوم وحليم طرفا في إحداها ، يقول هشام عيسي :

« كانت أم كلثوم تغني في إحدى المناسبات وبعد انتهاء وصلتها الأولي صحب الحفناوي حليم إلى غرفتها ، وحالما شاهدت الحفناوي عند مدخل الغرفة تهلل وجهها وهي تقول :« تعال يا حفن قل لي أنا عملت إيه النهاردة ».

يستكمل عيسي :« لم تكتمل الجملة وهي تري حليم خلفه وبدأ وجهها يتجهم ولم يتغير تعبيره والحفناوي يقول :« أنا معايا حليم، وعاوز يقبل يد الست ويعبر عن حبه ، كان الصمت التام بعد التجهم هو رد فعلها الوحيد ، وبعث ذلك الاضطراب في كل من حليم والحفناوي وتكهرب الجو، وفجأة واصلت أم كلثوم الهجوم فقالت وهي

تنظر إلى الحفناوي : طيب خلاص ، وساد صمت كررت بعده الجملة عدة مرات وهي تستدير مخاطبة حليم : خلاص ، يا أستاذ خلاص ، يعني اتفضل بقى ».

يضيف عيسي :« خرج حليم بسرعة تاركًا الحفناي يتلقي مزيدا من العتاب ، وكانت عيناه تمتلئان بدموع القهر والغضب وأسرها في نفسه »، ويقول :« تلقي حليم الضربة ، ولكن الرواية لم تتم فصولها، وجاء الدور على حليم ليرد » ، فماذا كان الرد ؟

مازلنا مع الدكتور هشام عيسي الذي يجيب على السؤال، وكانت استراحة الرئيس أنور السادات هي مسرح الأحداث حيث كان الرئيس يحتفل بعرس إحدى بناته ، وكانت أم كلثوم وحليم على رأس من يحيون الاحتفال ، ويشير عيسي إلى أن هناك صداقة امتدت أوصالها بين عبد الحليم والسادات منذ زمن ، على خلفية أن السادات كان عاشقًا للفن والفنانين ؛ وفي نفس الوقت كانت زوجته السيدة جيهان تقدر عبد الحليم ،وتساعده كثيرًا خلال رحلات علاجه ، ويؤكد عيسي أنها كانت تتدخل شخصيًا لإنهاء إجراءات سفره مع عبد الحليم للعلاج حين تتعقد الأمور بحكم عمله ، ويدلل عيسي على مدى تقديره العميق لشخصية السيدة جيهان، بذكره قصة يقول فيها :« كنا في إحدى حفلات الرئيس السادات واتفق الكاتبان الصحفيان أحمد رجب وموسي صبري ، ومعهما عبد الحليم حافظ والموسيقار بليغ حمدي أن ينتظروا نهاية الحفل ليناشدوا الرئيس السادات في العفو عن مصطفي أمين الذي كان مازال محبوسا على ذمة القضية المعروفة ، وحين بدأوا الكلام وجدت السيدة جيهان تهب معهم دون علم مسبق بنيتهم وأخذت تخاطب زوجها بكل الحماسة طالبة منه أن يكون هذا هو هديته لا بنته في ذلك اليوم ، وقد لمست بنفسي مدى حنانها ورقتها وهي تطلب معهم الحرية لمصطفى أمين » .

نعود إلى ما بدأه عيسي عما حدث بين أم كلثوم وعبد الحليم في يوم احتفال السادات بعرس إحدى بناته في استراحة القناطر الخيرية ،يقول عيسي :« كان مقررا في ذلك اليوم أن تغني أم كلثوم ثم حليم ، ثم بعد ذلك تقدم أم كلثوم أغنيتها الثانية

ويختتم حليم الحفلة ، وكان ذلك مناسبًا لحالتها الصحية التي لم تعد تتحمل ما تحملته في الماضي ، وعقب انتهاء حليم من غنائه طلب مني أن أبلغ السيدة جيهان عن طريق ابنتها الصغرى أنه مريض ، ويرجو أن يقوم بالغناء قبل أم كلثوم حتى يمكنه الانصراف بعدها إذا استبد به التعب » .

حصل عبد الحليم على الإذن مراعاة لحالته الصحية ، خاصة وأنه قطع رحلته العلاجية إلى لندن لحضور حفل الزفاف ، على أن يعود مرة ثانية بعد انتهاء الحفل ، لكنه في الحقيقة كان يضمر شيئًا آخر في مسألة استئذانه للغناء قبل أم كلثوم ، فماذا كان يضمر ؟

يجيب عيسى : « وقف عبد الحليم يؤدي وصلته الثانية، فأطال الغناء وزاد وعاد ، والحاضرون منتشون بغنائه خاصة الشباب من ضباط الحرس الجمهوري ، وعندما انتهى من الغناء انضم إليهم ، وانتظروا أم كلثوم التي صعدت للغناء وهي في قمة الغضب والإحباط ، ولم يكف حليم مع كورس من المحيطين به عن التصفيق للست كلما انتهت من إحدي الكوبليهات ، وفي كل مرة يصيح :«ربنا يخليكي ياست.. فتسكت أم كلثوم وتلتفت ناحية الفرقة تأمرهم أن يكفوا عن العزف حتى تخفت الأصوات ، كل ذلك ووجهها يفيض بالغيظ والألم ، وهكذا لم تستطع أم كلثوم الانتهاء من غنائها إلا بعد الثانية صباحا ولم تكن في أحسن حالاتها أثناء الغناء وبعده » يضيف عيسى :« في طريق العودة التفت إلى حليم وسألني عن رأيي فيما فعله قائلا :« أنا عجبتك ».

يختتم عيسي سرده لما يعرفه من جوانب خفية في العلاقة بين أم كلثوم، وعبد الحليم حافظ بقوله :« كان الصراع قدرا فرضته ظروف غريبة ، ولكنه لم يقلل أبدًا من قيمة أي منهما فظلت أم كلثوم هرما شامخا ورمزا لمصر ، وظل حليم عندليب في الحب والثورة ».

يمكن قراءة هذه المكائد المتبادلة بين عبد الحليم وأم كلثوم على أي نحو ، لكن

الملفت فيه هو هذا الحضور السياسي في تلك المكائد ، فالمكيدة الأولى من أم كلثوم ضد عبد الحليم انتهت بقرار من عبد الناصر أن يكون هناك حفلتين منفصلتين لهما في أعياد الثورة ، والمكيدة الثانية كانت في حفل ابنة الرئيس السادات وكانت زوجته السيدة جيهان طرفًا فيها دون أن تدري ، لكن هل أثرت هذه المكائد على الطرفين في علاقتهما بعد الناصر ، وفي المشروع الغنائي لهما ؟

يقول كمال الطويل: قدمت أم كلثوم أغنيات وطنية عظيمة ورائعة، لكن في رأيي أن عبد الحليم كان ملك هذه المنطقة في الغناء، ويصدقه الناس أكثر، وقرار عبد الناصر باستقلاليته بحفل عن أم كلثوم جاء؛ لأنه يعرف هذه القيمة في عبد الحليم ، كما كان المقصود به أيضًا أن نستمر جميعًا كجيل.

استخلاص الطويل يراه عمار الشريعي من وجهة نظر مختلفة، قائلًا: «كان لكل من عبد الحليم، وأم كلثوم، وعبد الوهاب مذاق خاص في الأغنية الوطنية، ليس بمعني التفضيل ، وإنما بمعني فهم كل منهم لدوره».

يوضح الشريعي: يمكن فهم ذلك بصورة أوضح وأعمق لو تناولنا ما قدمه الثلاثة من غناء في معركة واحدة هي معركة السد العالي.. غني عبد الحليم « حكاية شعب » من كلمات أحمد شفيق كامل، وألحان كمال الطويل.. «قلنا حانبني، وآدي احنا بنينا السد العالي»، وغنت أم كلثوم «كان حلمًا فخاطرًا فاحتمالا» من ألحان رياض السنباطي، وغني عبد الوهاب «ساعة الجد».

يضيف الشريعي :رغم أن الأغنيات الثلاث كانت لمعركة واحدة هي معركة السد العالي إلا أن هناك اختلافًا في السمات الخاصة بهم، والمذاق الغنائي لهم ،هذا بخلاف أن كل أغنية من الثلاث حملت صفات صاحبها، فأغنية عبد الحليم قامت على التدفق والشعبية والسيطرة الجماهيرية:

«تسمعوا الحكايـــة

كورس: بس قولها من البداية

عبد الحليم: هي حكاية حرب، ونار بينا، وبين الاستعمار فاكرين

لما الشعب اتغرب جوه في بلده

كورس: آه فاكرين

افترضت الأغنية هنا وجود جمهور يتم الحديث معه، ثم نامت على كتف الفولكلور المصري بعبارة «ضربة كانت من المعلم».. جملة صغيرة وقصيرة ،يمكن ترديدها بسهولة من الحارة المصرية.

يواصل الشريعي :أما أغنية أم كلثوم «كان حلمًا فخاطرًا فاحتمالًا» فتناولها يتم في سياق أن أم كلثوم هي التي تصدت للشعر والقصيدة في الأغنية الوطنية، ربما يقول البعض: أنها قدمت العامية مثل «حولنا مجري النيل يا سلام على ده تحويل»، والرد على ذلك يكمن في أنها كانت بطبيعتها تستطيع أكثر من غيرها التصدير الغنائي العامي والفصيح إلى الأمة العربية كلها.. كانت هي الأكثر سيطرة على الوجدان العربي، ويقبل منها الجمهور العربي ما يتردد في قبوله الآخرون، وبهذا الاعتبار قبل منها أغنيتها الوطنية العامية بقدر ما قبل منها قصيدتها الوطنية الفصحي.. وقصيدة «كان حلمًا فخاطرًا فاحتمالًا» مثلت الأغنية الرصينة التي تصلح للتصدير لكل الأمة العربية، بما شملته من لحن يقوم على كبرياء وعنفوان السنباطي الذي جمع عبقرية الموسيقي العربية كلها، وقدم ألحانه كما في القصيدة المشار إليها بفكر موسيقي له مقدمات تؤدي إلى نتائج.. أي فكر مخطط يصلح للتصدير إلى الأمة العربية ، ويحتوي هذا الفكر علي غناء لأم كلثوم ، ولحن للسنباطي ، وشعر عزيز أباظة ، يقول فيها :

« كان حلما فخاطرا فاحتمالا ثم أضحى حقيقة لا خيالا

عمل من روائع الفن جنيناه بعلم ولم نجنه ارتجالا

إنه السد فارقبوا مولد السد وباهو بيومه الأجيالا

يفتح الرزق وهو سد فينساب جنوبا في أرضنا وشمالا

حقق المعجزات عزم جمال فاحمدوا الله أن حباكم جمالا »

يضيف عمار: على هذا النحو يمكن القول حسب اعتقادي أن أحلي أغنية وطنية عربية شرقية بمفهوم الموسيقي كانت «ثوار.. ثوار.. لآخر مدي» لعبدالفتاح مصطفي، والسنباطي وأم كلثوم، فهي أغنية اتسمت بمسحة إنسانية تقدمية تصلح لأي إنسان عربي من المحيط إلى الخليج:

«ثوار ثوار لآخر مدي

مطرح مانمشي يفتح النوار

ننهض في كل صباح بحلم جديد

ثوار نريدك يا انتصار ونزيد

وطول ما أيد شعب العرب بالإيد

الثورة قايمة والكفاح دوار

من أرضنا هل الإيمان والدين

عيسي ومحمد ثورتين خالدين

والعلم ثورة ومن هنا قامت والفن والحرية والتمدين .

ثوار لاسمك يا شريف تنفدي .

نحكم عليك يا مستحيل تنخلق .

نأمر رحابك يا صباح تنفلق

والخطوة منا تسبق المواعيد

وطول ما أيد شعب العرب بالإيد

الثورة قايمة والكفاح دوار

الشعب قام يسأل علي حقوقه

والثورة زي النبض في عروقه

اللي النهار دا يحققه ويرضاه

لابد بكره باسمته يكونوا

ثوار مع البطل اللي جابه القدر

رفعنا راسنا لفوق لما ظهر

شفنا السما وياه وشفنا الخطر

والعزم ثابت والعزيمة حديد

وطول ما أيد شعب العرب بالأيد

الثورة قايمة والكفاح دوار

تعالوا يا أجيال يا رمز الأمل

من بعد جيلنا واحملوا ما حمل

وافتكرونا بخير مع كل غنوة من أغاني العمل

هيلا هيلا هيلا هيلا

ثورتنا عمل وجهاد

هبوا واصنعوا الأمجاد

وابنوا فوق بني الأجداد»

وانقل ماقاله لي عمار الشريعي حرفيًا وبتلقائيته المعهودة التي تنتقل من العامية إلى الفصحي والعكس بسهولة لافتة :« الشاعر الذي كتب هذه الكلمات مرعب.. والملحن عبقري.. وأم كلثوم فوق الوصف.. هي غنوة «محصلتش» وتمضي السنوات وتمر المعارك أو تنتهي لكن يبقي هذا الكلام العبقري صالحًا في كل وقت،

وهذا جانب من خلود الغناء الوطني لأم كلثوم».

من عبد الحليم حافظ، وأم كلثوم إلى محمد عبد الوهاب يقول الشريعي:

«قدم عبد الوهاب في معركة السد العالي.. أغنية «ساعة الجد»، واتسمت بسمات عبد الوهاب الباحثة دائمًا عن الفكر الجديد والموضوع الجديد.. وهذه الأغنية تعاون فيها للمرة الأولي والأخيرة مع المايسترو المصري العبقري عبد الحليم نويرة، ونتج عن هذا التعاون ولادة أغنية مزجت بين غناء عبد الوهاب الهادر الرصين، والدقات العمالية، وكأن عملية البناء تحدث لحظة الغناء.. وبحث عبد الوهاب في الإغنية عن الفكر الجديد بصرف النظر عن اهتماماته الرئيسية بموسيقاه، وعن نية قوله في المسألة».

يستخلص عمار من هذه المقارنة أن كل واحد من هؤلاء قدم الأغنية الوطنية حسب سماته الشخصية، ولاقت النجاح في المساحة الموجهة إليها... عبد الحليم في تدفقه إلى الشعب.. وأم كلثوم برصانتها إلى الأمة العربية.. وعبد الوهاب بفكره نحو البحث عن الجديد.

والخلاصة كانت، حالة من خليط البحث عن الجديد بروح فعالة مع الحدث السياسي، والاجتماعي الذي أمسك بأطرافه جمال عبد الناصر، وحيث رأت أم كلثوم أن جيلًا جديدًا جاء مع الثورة يساهم في تدفق هذه الحيوية.. التفتت إليه لتأخذ منه هذا التدفق، وتعطيه جواز المرور نحو عالم أرحب في الموسيقي، ولم يخلو الأمر من مكائد لم تعطل المسيرة

علي الرغم من هذا ، هناك من رأي أن أغنية أم كلثوم العاطفية ساهمت في تخدير الشعب، وكان عبد الناصر يستخدمها لهذا الغرض ،وكأن أغنية أم كلثوم العاطفية لم تبدأ إلا مع عبد الناصر. وكأن حفلاتها الشهرية لم تبدأ أيضًا إلا معه، فهل لهذا الاتهام نصيب من الحقيقة ؟ أم أنه يعبر عن عدم فهم للذوق العربي في الغناء ، والذي استم بسمات معينة في القرن العشرين؟

5

عيون الملك حسين



عرفت الأغنية العربية منذ سنوات طويلة طابع الفردية، ويري الناقد والمؤرخ كمال النجمي: « أن الأغنية الفردية اتجهت إلى الطابع القومي المشترك في طريقة الغناء والتلحين، وهذا من أسباب ما تتمتع به حتى الآن من كثرة الجمهور الخاص بها في البلاد العربية، وبخاصة إذا أديت بأصوات محبوبة، وقد طافت أم كلثوم بالمغرب، وتونس، ولبنان، والكويت، وأبو ظبي، والسودان، وليبيا، فكانت أغانيها تقابل في كل مكان بتذوق وفهم؛ لأن أغنيتها هي الأغنية النموذجية عن المجتمع العربي، ولهذا اتخذ الالتفاف حول فن أم كلثوم شكلًا قوميًا... تتمثل فيه إذا أمعنا النظر وحدة الذوق الغنائي لدي شعوب الأمة العربية».

لم يقتصر فهم وتقدير عبد الناصر لقيمة أم كلثوم على أدائها للغناء الوطني فقط، بل إن فهمه الأكيد لها تطابق مع قول النجمي، بأن الالتفاف حول فنها أخذ شكلًا قوميًا.. وبالتالي كان عليه الحفاظ على هذا الشكل ،الذي أخذ أبهي صوره في التفاف الجماهير من المحيط إلى الخليج حول المذياع في الخميس الأول من كل شهر لسماع ما تقدمه مطربتهم المحبوبة، وكان لعبد الناصر وجهة نظر وآراء في ذلك حافظت على هذا الشكل.

يقول الإعلامي أحمد سعيد: بعد أن أصبح صوت العرب إذاعة متكاملة يستمر إرسالها حتى الواحدة صباحًا، كنا نأتي يوم حفل أم كلثوم في الخميس الأول من كل شهر، ونقدم سهرة خاصة بنا ليس فيها أم كلثوم، مما أثار ضيقها وشكواها، وكانت حجتها واضحة ومعقولة وهي أن العرب يحجزون تذاكر لحفلاتها من جميع أنحاء الوطن العربي، ويأتون صباح يوم الحفلة، ويغادرون القاهرة في اليوم التالي، فهي إذن مطلوبة عربيا، فلماذا لا يذيع صوت العرب حفلتها؟ طلبتني فذهبت إليها، وطرحت على سؤالها فشرحت لها، إن البرنامج العام يذيع حفلاتها بإرساله القوي الذي يصل للمنطقة العربية كلها (أوائل الستينيات من القرن الماضي)، ونحن لنا

مستمعونا، ولا نريد أن نخسر واحد منهم بسبب تركيز الاستماع على إذاعة واحدة، فقد لا يجذ ١٠٪ الاستماع إلى حفلات أم كلثوم، فيخسر الإعلام المصري هذه النسبة، لذلك فنحن نقدم لهؤلاء مرة أخري حتى يمكننا تغطية المنطقة العربية، واستيعاب كل المستمعين.

يضيف سعيد: استمعت أم كلثوم إلى وهي غاضبة، واتهمتني بأنني من أنصار عبد الحليم حافظ، فضلا عن اتهامات أخري من هذا القبيل، حتى إن فريد الأطرش نفسه قد اتهمنا وهاجمنا بنفس التهمة، وهي أننا نتشيعٌ لعبد الحليم حافظ وأوصلت أم كلثوم شكواها إلى د. عبدالقادر حاتم وزير الإعلام الذي كلمني فقلت له: هذه مسألة براجية. قال: ألا تعرف حلا، قلت له: لا أعرفُ.

وأبلغت أم كلثوم الأمر في النهاية إلى الرئيس عبد الناصر، وفي حفل العشاء الذي أقامه الرئيس تكريمًا لضيفه الرئيس الباكستاني «أيوب خان» حضرت بصفتي عضوًا بمجلس الأمة، ووكيلًا للجنة الشئون العربية، ووجدت الرئيس عبد الناصر يمسكني من يدي ويقول لي :

حلوا مشكلة أم كلثوم، ليس عندنا غيرها، ولا يوجد عندنا أحسن منها، قلت للرئيس : يا فندم إذا كانت أوامر انفذ فورًا، فقال عبد الناصر : لا شأن لي أبحث عن طريقة ترضي أم كلثوم.

ويروي الكاتب والسياسي الراحل فتحي رضوان أول من تولي مسئولية الثقافة في عهد ثورة يوليو (منتصف الخمسينات) قصة كان طرفها، وتبدأ من اصطحاب عبد الناصر لرضوان وعبد الحكيم عامر في سيارته إلى دار الأوبرا لمشاهدة مسرحية «دموع إبليس»، وهي من تأليف فتحي رضوان، وبعد مشاهدة المسرحية، وهم في طريقهم إلى العودة، دار حوار طويل في السيارة بين الثلاثة حول الفن والثقافة، ورؤية عبد الناصر الخاصة للمسرحية.. يرويه فتحي رضوان على النحو التالي :

قال جمال لعبد الحكيم: «تعرف يا حكيم، إن هذا هو العمل الفني الثاني الذي أراه لفتحي رضوان، فقد رأيت له من قبل فيلم «مصطفي كامل». فقال عبد الحكيم: «أنا شاهدته معك».. فذكرتهما بأنهما رأياه في حفلة خاصة بسينما «ريفولي» احتفالاً بالعقيد الشيشكلي (الرئيس السوري)، فقال عبد الناصر: «ليلتها.. أنا كنت طوال الفيلم خائفًا على مصطفي، ومشفقًا من وفاته، مع أني أعرف أنه مات منذ أكثر من خمسين سنة، هذا هو سحر الفن الجيد».

ومضي عبد الناصر في كلامه موصيًا فتحي رضوان بضرورة عمل فيلم عن محمد فريد، وأشار إلى أنه يسهر مع الإذاعة حتى نهاية برنامجها مع «أم كلثوم» و«أضواء المدينة».. وقال:« أنا عارف أن فتحي رضوان غير راضي عن طول حفلات أم كلثوم واستمرارها إلى الرابعة صباحًا، وكثرة ترديد المقطع الواحد، عشرين مرة، أو أكثر، والصياح والصراخ والوقوف على المقاعد».

يضيف رضوان: عجبت حقيقة كيف عرف عبد الناصر هذا الرأي، وحاولت أن أذكر متي سمع مني هذا الكلام، ولم أستطع، ولكنه ضحك على طريقته التي أسميها (طريقة الرشف)، وقال: «في ليلة أقمنا حفلة غنائية لأم كلثوم في نادي الضباط احتفالا بالملك حسين ملك الأردن (١٩٥٢-١٩٩٩م)، ولما خرجنا نوصله، وكنت أنت (موجهًا كلامه إلى فتحي رضوان) رئيس الوفد المرافق له، كان منظر الضباط ساعة الانصراف، وعدد غير قليل منهم نائمًا تمامًا على مقعده.. لا يرضي أحد، وكانت عيون الملك حسين حمراء، وكان يتمايل من شدة التعب، وفي اليوم التالي بدأ الحديث تعليقًا على الليلة، فسمعتك تكلم أحدًا على مقربة مني، ووصل إلى سمعي كل هذا».

واصل عبد الناصر كلامه لرضوان :«أنا معك، ولكن محاولة تغيير هذا بمثابة الوقوف في وجه التيار».. فرد رضوان: «ولكننا واقفون في وجه التيار فعلاً، ألست

تقيم السد العالي؟».. فرد عبد الناصر: «السد العالي معلش، ولكن يأتي على الناس وقت لا يطيقون فيه أنفسهم».. فقال رضوان: «ولكن العمل الفني، في كل مكان، وسيلة لرفع معنويات الناس، وتزويدهم بجرعة منعشة ومنشطة ومبهجة، يخرجون بعدها، أكثر إقبالًا على الحياة.. ولكن حفلات الطرب عندنا «عمليات تعذيب»...ينام الناس في اليوم التالي إلى الظهر، ويستيقظون يشكون من الصداع، وجوههم صفراء، وشهيتهم مسدودة ومزاجهم عكر».. فرد عبد الناصر: «أنا معك.. معك.. ولكن الناس ينسون أنفسهم إلى الصباح، ويكونون، في اليوم التالي بالصورة التي تصفها»... فقال رضوان : «إن التكرار في أغانينا أثره الذاتي والخلقي مدمر، إنه وسيلة للتنويم أشبه بأغنية النوم للطفل»، فعلق عبد الناصر :«لا تخف.. لن يستمر هذا كثيرًا.. » ،ثم توقف عبد الناصر ليقول لرضوان : «بس إوعي تغضب أم كلثوم»، فضحك رضوان قائلاً : «لا سبيل لإغضابها» ، ورد عبد الناصر: «هذا حق».

يضع الناقد الدكتور على الراعي هذه الحكاية في سياق تحليلي أشمل.. يقول: موقف عبد الناصر من الثقافة والإعلام يحتمل كثيرًا من التأويلات.. كان يصرح في بعض المناسبات، بأنه على الفن أن يمسح هموم الناس، ويسري عنهم، وكان يضرب المثل بنفسه، إذ يعود إلى بيته مثقلاً بأعباء الحكم، فيجد في فيلم سينمائي خفيف بعض الراحة، وكان يضيف أن العامل الذي يجهد ساعات طويلة في أرضه ومصنعه له الحق في كل ما يرفه عنه ويسليه.. إلى جوار هذا كانت نظرة عبد الناصر للفن والثقافة نظرة تسيسية في المحل الأول، يقرب الفن والثقافة إلى قلبه ما داما قدما الخطة السياسية العامة للبلد الذي تولي حكمه.. لهذا نراه يوصي فتحي رضوان بأن يهتم بإنشاء فرق للفنون الشعبية، بعد أن عجز صلاح سالم عن أن يقوم بهذا العمل، لكثرة مشاغله، وقلة قدرته على التنفيذ، ونراه أيضًا يفطن إلى القيمة الجماهيرية

والدعائية التي تمثلها أم كلثوم في مصر وباقي أجزاء الوطن العربي، فيقول لفتحي رضوان: «اوعي تغضب أم كلثوم» فيجيب رضوان: «لا سبيل إلى إغضابها».

يضيف د. على الراعي: هناك نقطة مهمة في موقف عبد الناصر من أم كلثوم تثبت بعد نظره. فسيدة الغناء العربي كانت عاملًا فنيًا موحدًا للعرب جميعًا من المحيط إلى الخليج، وأي محاولة للتقليص من نشاطها، كما كان يدعو رضوان، كان كفيلاً بأن تفقد مصر بعضًا من نفوذها الفني الذي هو عدتها دائمًا في حالة يسر وعسر، والدليل في كل بلد عربي استضافتها، وجمعت لبلدها عملات أجنبية كانت في أشد الحاجة إليها، كما أسهمت في رفع الروحة المعنوية لمصر، ولباقي العرب بعد الهزيمة الموجعة.

سمة التطويل والإعادة والتكرار التي انتقدها فتحي رضوان، وعلق عليها عبد الناصر، وأوضحها على الراعي هي وجه ثاني لعملة يحمل وجهها الأول اتهامات لمضامين الأغنية الكلثومية، بأنها كانت التخدير الذي يستخدمه عبدالناصر للشعب، وكان فريق من اليسار يردد ذلك حتى صارت أم كلثوم قسمة بين اليمين واليسار في المرحلة الناصرية، ويقدم الشاعر سيد حجاب شهادة كاملة ومعبرة عن هذا المنحي يقول فيها: في مستهل الستينات من القرن الماضي، كنت وبعض الزملاء اليساريين ندرس هندسة المناجم بجامعة القاهرة وكان يحلو لنا أن نعابث زميلنا «توحيد رامي».. ابن شاعرنا الرائع «أحمد رامي»، وكانت مغايظتنا له وغلاستنا عليه تدور دائمًا حول بعض أشعار أبيه التي تغنت بها أم كلثوم من مثل «حتى الجفا محروم منه» أو «عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك». كنا نعير «توحيد» أن رؤية أبيه «رامي» للحياة والحب تجاوزها الزمن، وأن هذه المشاعر المرضية التي يعبر عنها تحمل قدرا عاليا من «الماسوشية»، وأن هذا النوع من الشعر والغناء لا يلبي الحاجات الروحية لشباب جيلنا، وأن الفن الأقرب لمشاعرنا والأصدق تعبيرا عن

زماننا هو غناء عبدالحليم لأشعار محمد على أحمد ومرسي جميل عزيز، وألحان الموجي، والطويل.

وكان توحيد رامي يرد على استفزازاتنا: «وانتوا إيش فهمكوا – يا شيوعيين انتو – في الفن ولا الحب ولا الحياة!».

يواصل حجاب :في تلك الأيام كانت تشيع بين بعض اليساريين الشباب بعض المقولات الخائبة حول الفن والحياة، فالفنون مرآة للواقع، ونجيب محفوظ كاتب البورجوازية الصغيرة، وإبداعاته الروائية توقفت عند حدود الواقعية النقدية! بينما محمد صدقي هو أديب البروليتاريا، ورواياته في قالب «الأوتشرك» الذي تذوب فيه البطولة الفردية في البطولة الجماعية، وهي النموذج الأمثل للواقعية الإشتراكية!!، والبشارة الأولي بتلك الواقعية الاشتراكية هي «أرض» الشرقاوي!! وكيف؟! ألم يتحول عبدالهادي فلاح الأرض الشاب إلى عامل صناعي بالمدينة مشيرا إلى طريق الخلاص القادمة!!

يضيف حجاب: في إطار تلك المقولات اليسارية الطفولية كان هناك من يقول إن عبدالوهاب هو مطرب الملوك والأمراء، وأنه خان رسالة فنان الشعب سيد درويش، وأن غناء أم كلثوم يعكس فكرًا إقطاعيًا، وأن عبدالحليم هو صوت الطبقة المتوسطة الصغيرة! بينما محمد رشدي – بعد ذلك – هو صوت جماهير الفلاحين والعمال!! وفي تلك الأيام كان بعض اليساريين الأوروبيين يقولون إن «فرانكو» يحكم إسبانيا بثلاثة أشياء تبدأ كلها بحرف الفاء «F»، وهي الفالانج «حزبه الفاشستي» والفلامنكو «الرقصة الإسبانية الشهيرة» والفوتبول «كرة القدم»، واستعار بعض اليساريين المصريين هذه المقولة بعد أن حوروها بكثير من التعسف والتحذلق ، فقالوا: إن عبدالناصر يحكم مصر بثلاثة أشياء تبدأ كلها بحرف الآء «الألف» الكورة والحشيش وأم كلثوم، ورغم شيوع مثل تلك المقولات

الخائبة بين بعض شباب اليساريين – آنذاك – إلا أنهم «متي يختلي الواحد منهم بنفسه» كانوا يقرون بأنهم يعشقون روايات نجيب محفوظ ويذوبون نشوة مع صوت عبدالوهاب وشدو أم كلثوم، وربما برروا لأنفسهم إدمانهم السري للغناء الكلثومي، بأنها برغم غنائها لبعض المشاعر التي يرفضونها، قد تغنت – أيضا – بالكثير من روائع شوقي وحافظ والخيام وغيرهم، وأنها غمرت القلوب بفيض من المشاعر النبيلة والقيم السامية التي تزخر بها هذه الروائع، وربما زايدوا وتزيدوا فقالوا إنها هتفت مع الجماهير في وجه الاحتلال: «وما نيل المطالب بالتمني.. ولكن تؤخذ الدنيا غلابا»، أو أنها دعت إلى الإشتراكية في عهد الملكية وهي تقول للرسول ﷺ : «الاشتراكيون أنت إمامهم» ثم أنها هي التي تغنت بمصر «التي في خاطري» وهللت ليوم الجلاء: «والله ما دون الجلاء ويومه.. يوم تسميه الكنانة عيدا» و«يا مصر إن الحق جاء.. فاستقبلي فجر الرجاء.. اليوم قد تم الجلاء»، وفي يوم «زفة القنال» احتضن غناؤها الإنسان المصري «ما أحلاك يا مصري وأنت ع الدفة»، كما أنها واجهت العدوان الثلاثي بصوتها العارم المتفجر في رائعة جاهين والطويل: «والله زمان يا سلاحي» وأعلنت أن «الشعب بيزحف زي النور» وبعد هزيمة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م دخلت في وصلة روح مصرية أصيلة لـ«ثلاث دول».. الخ..

ويقطع حجاب: المؤكد أن تلك المقولات النظرية الخائبة التي شاعت بين بعض اليساريين الشبان قد سقطت وذابت وحدها مع الأيام، وتراجع ذلك التحليل الطبقي المتعسف المغلوط لغناء أم كلثوم مع تنافس وعيهم بالفن والحياة، وحين اعتقلنا في خريف ١٩٦٥م، كنا ندور متشابكي الأيدي في الطرقات بين العنابر في مزرعة طرة ونحن نغني لحن سيد درويش: «بس الأكادة حبسة ظلومة.. يكفينا شرك يادي الحكومة»، أو نصرخ في إنفلات هيستيري بمقطع من الأطلال «التي كانت جديدة آنذاك»: إعطني حريتي أطلق يديا.. إنني أعطيت ما استبقيت شيئا». وتدور

وتدور الأيام، ويتواصى نهر العطاء الكلثومي فياضا عارما، وتحل النكسة فيتنحي عبدالناصر وينطلق صوت ثومة: «إرجع أنت حبيب الشعب.. فعد للشعب»، ويحتضن غناؤها شعبنا الموجوع: «يا صابر الصبر الجميل الله معك.. ما أعظمك يا شعبنا ما أروعك.. جرحك فلسطين يوجعك تزداد وجود.. وتزود الأحزان بارود في مدفعك.. الله معك.. الله معك». وحين تنطلق المقاومة المسلحة الفلسطينية.. يتفجر صوتها حماسا ويشتعل مرحًا: «أصبح عندي الآن بندقية».. ثم تخرج في رحلة المليون لإزالة آثار العدوان.. وتتأكد مكانتها ملكة متوجة على عرش القلوب.. كل القلوب.

ويختتم حجاب شهادته بقوله: «التقيت بتوحيد «صديقي اللدود» بعد سنوات غياب طويلة، وكانت قد جرت في النهر مياه كثيرة، كانت شمس أكتوبر(نصر ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣م) قد أشرقت وغابت ورحلت عنا أم كلثوم، ورحل بعدها رامي، وكان «توحيد» يعود إلى مصر بعد هجرة طويلة إلى الولايات المتحدة، وكنت أندفع فاتحا ذراعي له، وتوحيد يستقبلني بابتسامته هامسا: «أظن كان عندكو حق شوية في كلامك عن شعر أبويا». وأظن إنني قلت له وأنا أعانقه: «لا.. أظن إحنا كنا مفتريين شويتين.. أبوك رامي ده شاعر عبقري، وأم كلثوم دي حاجة ما تتكررش.. إحنا بس إللي ماكناش فاهمين» (*).

ومما له علاقة أيضًا بشهادة الشاعر سيد حجاب، رواية يذكرها سعد الدين وهبة: «بعد أن قدمت قصيدة أبي فراس الحمداني «أراك عصي الدمع» أعتبر الكاتب الصحفي سامي داود القصيدة غير اشتراكية، مشيرًا في ذلك إلى بيت الشعر الذي يقول: «إذا مت ظمآن فلا نزل القطر» وقارن بينه وبين بيت شعر لابن الرومي: «فلا نزلت عليّ، ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلاد»، وقال داود أن هذا البيت يحمل معني الاشتراكية عكس ما قاله أبي فراس الحمداني وغنت أم كلثوم، وكان ذلك في

(*) أم كلثوم بين اليمين واليسار – مقال – سيد حجاب – القاهرة – الثلاثاء ١٥ فبراير ٢٠٠٥.

صحيفة الجمهورية وقبل أن يتحول الموضوع إلى قضية يتباري فيها الجميع اتصل عبدالناصر برئيس مجلس الإدارة وقال له: «خلاص أغاني أم كلثوم هتقيسوها إن كانت اشتراكية أم لا».

يرد عمار الشريعي علي هذه المآخذ ،وتحديدًا فيما يتعلق بالتطويل في الغناء ، وخصوصية حالة أم كلثوم استنادا إلى التاريخ ، يقول عمار :: كانت الأغنية العربية حتى مجئ أم كلثوم مبنية على أن مطربًا واحدًا يقوم بالليلة، وكان ضمن مميزات أم كلثوم الشخصية أنها تستطيع تحمل هذا الوضع والاستمرار به، وحين بدأت في العشرينات من القرن العشرين في إحياء حفلات مستقلة، كان حتمًا أن تسير على نفس النهج، بمعني إحياء الليلة من أولها إلى آخرها، وساعدها على ذلك إمكانياتها الشخصية، بمعني ترتيب نفسها على سيطرتها على جمهورها بتقديم الجديد والمختلف أثناء الليلة، وما حدث بعد ذلك هو عملية تفريق، بمعني أن المطرب يصعد إلى المسرح ويستمر لمدة ساعة ونصف يقدم خلالها أكثر من أغنية، فيما يعني أنها أصبحت عادة متوارثة.

يضيف عمار: نوع أغاني أم كلثوم اعتمد في الحفلات على الفكر الاستطرادي من الشعراء.. بيرم التونسي.. مرسي جميل عزيز.. أحمد شفيق كامل.. عبد الفتاح مصطفي.. أحمد رامي.. أو غيرهم، بمعني قول الموضوع في المذهب الواحد على ثلاث مراحل، ساعدهم على هذا أن أم كلثوم التي تقدم أشعارهم لا تدفع الناس إلى الملل من هذا الاستطراد.. أضف إلى هذا وجود السنباطي بجانبها باعتباره أطول الملحنين نفسا في تاريخ الموسيقي العربية.. فهو الموسيقار الذي لاتنتهي عنده الجملة، والمقام لديه بحر آخر، ويدلل عمار على مايقوله : أذكر من تراثنا العربي أن شخصًا سأل أبا العلاء المعري يقصد شتمه: «كيف حال الكلب؟ »، فرد عليه أبو العلاء: «الكلب من لا يعرف للكلب ٩٩ اسمًا».. رياض السنباطي هو الذي عرف لكل شئ في الموسيقي ٩٩ اسمًا، وكل من لعبت معهم أم كلثوم من الملحنين

تمتعوا أيضًا بالنفس الطويل.. ليس شرطًا أن يكون بقوة السنباطي، فالموجي قدم لها مثلا لحن «حانت الأقدار» في سبع دقائق، لكنه يشمل كل الغناء العربي.. وإلي جانب النفس الطويل.. تمتع كل ملحن بسمة خاصة، بدءًا من انسيابية جملة زكريا أحمد وتركيبه الليلي، انتهاءً ببليغ حمدي دقاق المشاعر وصاحب الجملة الحلوة.

يستخلص عمار من ذلك.. أن عبد الناصر كان أحد الأسري في حب أغاني أم كلثوم بهذا النمط.. وأنه لم يحمل رغبة حقيقة في كسر، أو ضرب هذا الأسر بكل حلاوته.. وتعامل مع هذه الحالة على أنها تحقق مكسبًا له كفكر ثوري.. لأنها كانت بالنسبة له صانعة الوجدان.. و ليست هناك مشكلة مادامت هي تصنعه بهذا الشكل .

هذا الاستخلاص من عمار يسلمه إلى نقطة أخري، وهي أن الأغنية اتسمت مع ثورة يوليو ١٩٥٢م وزمنها بالجدية على الرغم من طولها.. وكانت أم كلثوم نموذجًا في ذلك.. تسبقها رغبتها الدائمة في تقديم الأحسن، وأعطاها هذا النهج الجاد والملتزم الفرصة في الفكر الجديد في اللحن والكلمة والأداء، واستفادت من طريقة الارتجال والإعادة التي اتبعتها منذ بدايتها في التعامل مع معارك الثورة، حيث أشعلت بهذه الطريقة مشاعر الناس كلما كانت تقدم أغنية وطنية، والدليل على ذلك الحفل الذي قدمته للضباط بعد الثورة مباشرة وغنت فيه « صوت الوطن »..كانت تعيد جملة «نحبها من روحنا» وتترك الضباط يرددونها، أي أنها قامت بدور القائد.. كما أنها كانت نموذجًا في الاهتمام باللفظ المنطوق في كيفية إخراجه.. ففي أغنية.. «والله زمان يا سلاحي» وأغنية «يا مجد يامجدنا ياللي اتبنيت عندنا».. دروس عميقة في تعريض الصوت وخفوته أو دروس في الحرف المفخم، وأخذ النفس.. أغانٍ بسيطة لكنه تشمل دروسًا فطرية ليس لكل فنان عربي، وإنما لكل إنسان عربي.

هذه النظرة اللافتة في عمقها من عمار الشريعي تقودنا إلى القول أن عبد الناصر ظل أسيرًا في حب غناء أم كلثوم بنمطه السائد.. وعلى هذه الأرضية تعامل معها

مضيفًا إليها، وحاميًا لها، ومشددًا على قيمتها.. وفي سياق هذا النمط حثها هي ومحمد عبد الوهاب على التعاون الفني، فكانت أغنية «إنت عمري» من كلمات الشاعر أحمد شفيق كامل.

وفي مذكرات سامي شرف سكرتير عبد الناصر قصة اللقاء الفني بين عبد الوهاب وأم كلثوم في « انت عمري » وتدخل عبد الناصر لتحقيقه.

يروي شرف قصة مسئول سابق كان قد أخذ من عبد الوهاب تسجيلات نادرة له لسماعها، وظل هذا المسئول ثلاث شهور كاملة دون أن يعيد هذه التسجيلات، وحكي عبد الوهاب هذا الأمر لسامي شرف الذي نقله بدوره إلى عبد الناصر الذي استدعي هذا المسئول، ولما وجد الأمر حقيقة طلب منه تسليمها فورًا إلى سامي شرف لإعادتها إلى عبد الوهاب...

يقول سامي شرف:

«كان جمال عبد الناصر قد كلفني أيضًا عند تسليمه شرائطه الثمينة بأن أبلغ الفنان العظيم الراحل (عبد الوهاب) عن أمله - أي أمل جمال عبد الناصر - في أن يلتقي قمتا الفن في مصر والعالم العربي في عمل مشترك، وينبهني الرئيس ألا أضغط عند إبداء هذه الرغبة، إلا أنني عندما عرضت الفكرة على الأستاذ محمد عبد الوهاب قال لي: قد تنجح، وقد تفشل، وأكد أنه يحلم ويأمل بهذا اليوم فعلًا » .

يضيف شرف: طبعًا أنا أبلغت الرئيس جمال عبد الناصر بوجهة نظر محمد عبد الوهاب، وجاء عيد العلم ١٩٦٤م، حيث كان قد تقرر تكريم الأستاذ محمد عبد الوهاب وسيدة الغناء العربي أم كلثوم وعندما تقدم عبد الوهاب للمنصة قال له الرئيس:

«امتي حا نسمع لحن لك تغنيه السيدة أم كلثوم؟»

فقال عبد الوهاب: حاضر يا سيادة الرئيس.

ووجه عبد الناصر نفس السؤال لسيدة الغناء العربي فقالت: «يا ريس أنا مستعدة، وجاهزة أغني أي لحن لمحمد».

وكانت «إنت عمري».

يتذكر أحمد شفيق كامل: بعد مطلب عبد الناصر لأم كلثوم، وعبد الوهاب جرت اتصالات بين الاثنين، وكانت كلمات «إنت عمري» لدي عبد الوهاب، كنت أعطيتها له ليقدمها هو بصوته.. وأذكر أن تلحينها لنفسه كان انتهي منه، ولما قرر عرضها على أم كلثوم أجري تعديلات على اللحن بالشكل الذي يناسبها.

يضيف شفيق: أنا لا أقف عادة عند هذه الحكاية التي عاصرتها بنفسي من زاوية أن عبد الناصر طلب فلبي عبد الوهاب كما لبت أم كلثوم.. وإنما أنظر إليها بمعيار فطنة الرجل في نظرته إلى الاثنين.. ونظرته أيضًا إلى عبد الحليم حافظ على أنهم ثروة قومية.

يؤكد شفيق: «كانت نظرة عبد الناصر إلى الفن تنطلق من أنه وعاء هام يجمع فيه كل الجوانب التي تنبه الناس إلى قضايا الوطن..وكانت أم كلثوم بين الجميع لها مكانة خاصة عنده.. وطلبه لتعاونها مع عبد الوهاب كان صافيًا وهادفًا إلى إثراء الفن، والدليل أنه لم يطلب منهما، أوهما فهمًا منه رغبة له مثلًا في تعاونهما في عمل فني يمجد شخصه.. التقط الاثنان إشاراته وأنجزا عملًا فنيًا عاطفيًا.. حملني شخصيًا إلى مزيد من الحب لعبد الناصر، حب لم يغادرني أبدًا منذ إطلاق الرصاص عليه في ميدان المنشية بالإسكندرية عام ١٩٥٤م».

يعود شفيق إلى ما يسميه بـ «حكاية» طول الأغاني أو قصرها، ليقول: لم يكن في ذهن أحد منا آنذاك تلك القضية.. الأساس كان فيما تقوله الأغنية، وما يحمله اللحن من موسيقي شرقية أصيلة.. كانت حفلات أم كلثوم مزيجًا يجمع غسيل النفس. الفرح.. تجديد الوجدان.. يقظة الضمير.. كان الجمهور يذهب إلى حفلها

في أبهي صوره..أناقة في الملبس..اهتمام بالشكل.. طقوس خاصة.. كان هذا يبدو كنوع من التقاليد الصارمة المحببة إلى النفس..يتساءل شفيق ماذا لو كانت كل هذه التقاليد في الجوانب الأخرى للمجتمع؟.. ويقول: « في هذا الإطار لم يكن يملك أحد القدرة على تغيير نهج أم كلثوم.. هذا ما فهمه عبد الناصر.. وعلي كل فإنه يكفي للغناء العربي أن عبد الناصر رغم مشاغله السياسية الضخمة والصعبة استطاع أن يجمع بين أم كلثوم، وعبد الوهاب.. آه لو فعلها قبل ذلك».

قدم شفيق تلميذ رامي لأم كلثوم بعد ذلك أغنيات ناجحة هي، أمل حياتي، الحب كله، ليلة حب، ورغم نجاحه الباهر في أغنياته الوطنية مع عبدالحليم حافظ إلا أنه لم يكن كذلك مع أم كلثوم ويعلق على هذا:

كان لأم كلثوم شعراء في هذا المجال.. كما كان لعبد الحليم.. المهم أن الحالة كانت في اتساع.. ولا نتوقف عند من يكتب لعبدالحليم، ومن يكتب لأم كلثوم؟ مع ذلك أنا قدمت لها أغنية واحدة فقط، وأذيعت مرة أو مرتين على الأكثر، وكان أثناء انفصال مصر وسوريا عام ١٩٦١:

يقول مطلعها:

«باسم مين يا خارجين ع الشعب قمتم

باسم مين

باسم إسرائيل، والاستعمار، ولا باسم الشعب

الشعب البطل منكم بريء

يا مفرقين ما بين قلوب المولي جمعها في طريق..»

أذكر أن رئيس الإذاعة آنذاك حسني الحديدي.. أبلغني يومها أن أم كلثوم تطلب أغنية عن الانفصال. والمؤكد أن مطلبها هذا جاء نتيجة الصدى الجماهيري الرائع لأغاني عبد الحليم الوطنية التي أكتبها له أنا وصلاح جاهين... كانت لقضية

الوحدة بالنسبة لنا مذاق خاص، فهي من أهم أحلامنا القومية.. وفور إعلان خبر الانفصال كانت الآلة الإعلامية على أشدها.. وكنا نتابع مقاومة مدينة حلب العنيفة للانفصاليين.. سمعت الخبر، فكتبت أكثر من أغنية، واحدة منها قدمتها المجموعة من ألحان على إسماعيل.

يضيف شفيق: فور أن أبلغني الحديدي بطلب أم كلثوم.. كانت كلمات الأغنية جاهزة، وأبلغها الحديدي بذلك، وطلبت مني التوجه على الفور إلى منزلها، وكان عندها رياض السنباطي.. وخلال ثلاث أو أربع ساعات أنجز السنباطي اللحن، وتم تسجيله على الفور في الإذاعة، وبعد إذاعته صدر قرار من جمال عبد الناصر بوقف الحرب الإعلامية بين مصر وسوريا، وشمل القرار كل الأغاني التي تدخل في هذا السياق.. ومنها أغنية «باسم مين».

ويتذكر أحمد سعيد

مثل أي إنسان مخلص يعتز ضميره وتهتز مشاعره كانت الدموع تفر من عيني أم كلثوم وهي تسجل في الإذاعة أغنية « باسم مين » ردا على مؤامرة الانفصال. مما جعل صوتها يهتز وتعطل التسجيل لفترة طويلة، ونحن نتعجل لإذاعة الأغنية لما لأم كلثوم من تأثير في مثل هذه المواقف الصعبة.. وكان رياض السنباطي ملحن الأغنية على أعصابه، وهو رجل مهذب جدًا ويبدو هادئًا جدًا، لكن في أعماقه ثورة مكتومة، ولكنه يسيطر على أعصابه عاطفيًا، ولكن أم كلثوم كانت مهتزة نفسيًا وعصبيًا لوقوع الانفصال ويظهر في دموعها التي لا تستطيع منعها، فتضطر طلبًا لجودة التسجيل أن تعيد مرة أخري، وهكذا إلى أن انتهت منه بعد وقت طويل.

لماذا تأخر التعاون الفني بين عبد الوهاب وأم كلثوم؟.. وهل كان الأمر يحتاج إلى تدخل عبد الناصر شخصيا؟

يقول عبد القادر حاتم وزير الإعلام مع عبدالناصر في الستينيات وحتي

السادات في السبعينات:

- نعم كان التعاون بينهما يحتاج إلى تدخل شخصي بحجم وقيمة عبد الناصر.

ويتذكر: جمعتني الصداقة بالاثنين... عبد الوهاب، وأم كلثوم.. وفي نفس الوقت عملت مع عبد الناصر.. وكان لعبد الوهاب، وأم كلثوم المبررات الخاصة في عدم التعاون بينهما. وأبرزها أن أم كلثوم كانت تتوجس من أهداف عبد الوهاب من هذا التعاون، لأنه يريد استثمار صوتها لصالح موسيقاه، وأذكر أنه بعد انتهاء الحفل الذي قدمت فيه «أنت عمري»، اتصلت بي تليفونيًا، وقالت: «شوف عبد الوهاب عمل الأغنية كلها موسيقي»، وفي اتصال تليفوني بعبد الوهاب، فوجئت به يسألني: إيه رأيك في موسيقي الأغنية؟، دون أن يسأل عن أداء أم كلثوم».

كانت الأغنية الكلثومية العاطفية على طولها هي، كما هي لدي عبدالناصر، وفي حالتها الإجمالية مبدعة تستحق الكثير والكثير.. لا يسحب من رصيدها أي وجهات نظر سلبية في تقييم أغنيتها، أو طريقة تقديمها في حفلاتها التي اعتبرها فتحي رضوان بطرف خفي «عملية تعذيب»، وإنما جمعت من وجهة نظر عبد الناصر كما يقول د. على الراعي «تسرية الفن وتسييسه». وتأسيسًا على ذلك كان موقف عبد الناصر الحاسم في ضرورة حصول أم كلثوم على جائزة الدولة التقديرية باعتبارها مبدعة، وليست مؤدية عام ١٩٦٧، وذلك بعد ثماني سنوات كاملة من ترشيحها.. ففي عام ١٩٥٩م رشحتها اللجنة الموسيقية العليا، وقالت في مبررات الترشيح:

إنها تقوم بأعمال فنية ممتازة من حيث التوجيه الفني، والأداء الذي انفردت به، بما يضفي عليه قوة التعبير والابتكار، ويجعل من تصرفها فيه «لونًا من التأليف بالغ الأثر في استكمال التأليف الأصلي، وقد رفعت أم كلثوم المستوي الفني وساهمت بأكبر نصيب في نهضة الموسيقي العربية وتطويرها مع المحافظة على طابعها، مؤدية بذلك الخدمة الكبري للقومية العربية عامة وبلادها خاصة، وهي إذ تقوم بأداء هذه

الرسالة الكريمة منذ حقبة طويلة من الزمن، جاهدة في نشرها وعرضها وتنفيذها، فإنها قد نجحت النجاح الأوفى الذي يجعلها جديرة بأن تتوج جهودها بهذا التقدير السامي.

هذا هو نص التقرير الذي تقدمت به اللجنة الموسيقية العليا في عام ١٩٥٩، ولكن اللجنة الخاصة التي تراجع الترشيحات داخل المجلس الأعلي لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية وكانت برئاسة الدكتور حسين فوزي، رفضت منح أم كلثوم جائزة الدولة التقديرية؛ لأنها مؤدية وليست مؤلفة، ويبدو أن الرأي كان متداولًا ومعروفًا مقدمًا، ولذلك كانت اللجنة العليا حريصة في تقريرها على أن تثبت أن أداء أم كلثوم يجعل من تصرفها فيه لونًا من التأليف بالغ الأثر في استكمال التأليف الأصلي، على الرغم من ذلك لم تمنح أم كلثوم جائزة إلا في عام ١٩٦٧م، بعد تدخل جمال عبد الناصر شخصيًا ودهشته الشديدة مما سمعه عن رأي المسئولين عن الموسيقي في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب من أن أم كلثوم لا تستحقها؛ لأنها مؤدية وليست مؤلفة، وفي عام ١٩٦٧م اجتمعت اللجنة برئاسة توفيق الحكيم، وقالت:

«قدمت أم كلثوم إلى الدولة في جميع المناسبات القومية صورة من تفاعل الفن وتجاوبه مع الأحداث الكبيرة.. وأشاعت التذوق الجمالي عن طريق اللحن والنغم بصوتها الفريد.. الأمر الذي فرض نفسه فنيًا على جميع المستويات المحلية والعربية، فاستطاعت أن تضيف إلى التاريخ الفني مدرسة تعتمد على صفات لها قيمة استمرار التراث الفني، وفي الوقت نفسه بعيدة عن التجمد، مما أعطاها التطوير الحي المستمر».

ومن تقرير لجنة توفيق الحكيم كما يقول سعد الدين وهبة: أنها اعتمدت في قرارها لاستحقاق أم كلثوم للجائزة، على أسباب سياسية و ثقافية وليست فنية،

فهي تتجاوب مع الأحداث القومية، وهي (تشيع التذوق الجمالي) وهي (تضيف إلى التاريخ الفني مدرسة تعتمد على صفات لها قيمة استمرار التراث بعيدة عن التجمد).. ويؤكد سعد الدين وهبة أن تدخل عبد الناصر لم يكن نتيجة شكوى من أم كلثوم إليه، فهي لم تستثمر علاقتها في شيء لصالحها، يؤكد ذلك الكاتب الصحفي محمود عوض قائلًا: «كانت علاقتي الخاصة بأم كلثوم كسرًا لقواعد علاقتها التقليدية مع أهل الفكر والثقافة.. كنت صغيرًا في السن، ولم يكن من بين أصدقائها أقل من رئيس تحرير، أو كاتب كبير.. وطوال فترة لقاءاتي بها، لم تتحدث أبدا على خصوصية علاقتها بعبد الناصر، وأذكر أنها تعاملت مع مشكلتين كبيرتين آنذاك لحلها بمفردها دون اللجوء إليه».



6

صدمة كبيرة



تظل نكسة ١٩٦٧م الطعم المر في مسيرة ثورة يوليو وعبد الناصر، والعلامة الفارقة بين الانكسار والحلم، لدي الجيل الذي عاش معارك الثورة وتغني بها..وتظل أيضًا صفحة هذه النكسة وما تلاها من سنوات الاستنزاف ناصعة البياض في قيمتها في حياة أم كلثوم التي ما لبثت أن نفضت الحزن والانكسار لتجوب البلاد شرقًا وغربًا من أجل مصر.

غنت أم كلثوم حتى النكسة لمعارك الثورة في الداخل والخارج..غنت للجلاء والسد العالي، وتأميم القناة، والتعبئة الجماهيرية أثناء العدوان الثلاثي عام ٥٦.. غنت للوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨م ثم الانفصال عام ١٩٦١م.. واتساقا مع البعد القومي للثورة.. غنت للعراق في ثورته ضد عبد الكريم قاسم «شعب العراق الحر ثار... وبإيده حقق الانتصار»، وغنت للثورة الفلسطينية مع انطلاق معاركها المسلحة..

ويقول سعد الدين وهبه: سألتها ذات مرة.. لماذا لم تغني للقضية الفلسطينية؟ فأجابت: لما يدافعوا عن وطنهم.. ومع بدء المعارك المسلحة للثورة الفلسطينية قدمت قصيدة نزار قباني: «أصبح عندي الآن بندقية».. غنت للجزائر واليمن.

كانت الحصيلة حتى النكسة مساهمة كبيرة قال عنها المؤرخ والناقد الموسيقي فرج العنتري: «خرجت الأغنية من دائرة الـ «أنا» إلى دائرة الـ «نحن».. تلك الدائرة التي دخلت بالوطن وبالمواطنين في دائرة الحب العصري، الذي كان محصورًا من قبل في الغزليات والمعاينات.. تلك الدائرة التي صدحت فيها التعابير عن بذل الدم في سبيل حياة الأهل، والعمل، والاستقلال، وفي حراسة المقومات الوطنية من الأرض والعرض، وفي التصدي بكل أسلحة القتال لمن يعتدي على هيبة المقدسات القومية، وفي الزهو باحتضان الوجود البهيج لمعطيات الحياة اليومية لثورة ٢٣ يوليو، بأصدق مدلولات الكلام..ومن أحلى ترنيمات الأنغام».

هجر الحلم أم كلثوم مع النكسة... كما هجر الملايين.. غير أن طعم المرارة في حلقها كان مختلفًا..فهي التي غنت لتشحذ الهمم.. وتبشر بالغد، وحاصرتها كغيرها علامات استفهام حول ما تغنت به في الماضي.. هل كان صدحًا خارج السرب؟.. أم أن السرب كله كان يكذب؟

كان تواصلها مع الثورة وقائدها قد بلغ ذروته في التقدير إلى درجة أنها ـ كما يقول سعد الدين وهبه ـ كانت من الشخصيات القليلة التي تحدثت برفقة الصحفي اللبناني سعيد فريحة مع عبد الناصر في أمر اعتقال مصطفي أمين. واستمع إليها عبد الناصر رغم قسوة هذا الموضوع عليه.. أضف إلى هذا عمق العلاقة التي جمعتها بالسيدة تحية كاظم قرينة جمال عبد التاصر- كما أشرنا من قبل - والتي وصلت إلى درجة يقول عنها محمد الدسوقي: «كانت السيدة تحية تزور أم كلثوم في فيلتها بالزمالك.. وأم كلثوم تزورها في بيتها بمنشية البكري»، بل إنها أحيانًا كانت تبيت هناك بدعوة من السيدة تحية..كما أنها كانت مع قرينة الرئيس ضمن أي وفد نسائي يقابل زوجة رئيس ما في بيت عبد الناصر»، ويروي عمار الشريعي حكاية استمع إليها من أحد المقربين منها.. «كانت أم كلثوم تجلس مع السيدة تحية في منزلها، بمنشية البكري.. ودخل عليهما عبد الناصر.. فداعبته أم كلثوم قائلة: «مش تخبط يا ريس... اتنين ستات قاعدين مع بعض» فضحك وقال لها: « حاضر يا ست»... وخرج ثم دق على الباب ليستأذن في الدخول.

أي درجة يمكن تصورها بعد ذلك من واقع مرارة النكسة عليها.. وهي تري القائد الذي وضعت معه وفيه كل أحلامها يعيش أكبر انكساراته، وانكسارات أحلامه التي دغدغت مشاعر ملايين العرب من المحيط إلى الخليج.

كانت لها كما يقول سعد الدين وهبه طقوس خاصة حين تقع لها كارثة ما.. تنزل إلى «بدروم» المنزل.. لا تتحدث مع أحد، ولا تقابل أحدًا، تعيش مع نفسها

وتفكيرها فقط.. وحين تأكدت من خبر النكسة مارست عادتها، وبرفقتها مذياع، ومنه استمعت إلى خبر تنحي عبد الناصر.. فانتفضت... تقول أم كلثوم:

«كنت منذ الساعة التي تأكدت فيها أنباء النكسة، قد خاصمت النوم، ولم يعد لي هم بالليل ولا بالنهار، إلا أن أتفرغ لدموعي، وأتوجه إلى الله في صلاتيَ وضراعتي أن يمدنا ببصيص من الأمل في إنقاذ مصر.. فلما أعلن « جمال عبد الناصر، نبأ تنحيه عن الحكم، فقدت الأمل في إطلاله هذا البصيص من الأمل، وكنت لا أفتأ اتصل بأصدقائي، وأصدقائي يتصلون بي، ليل نهار لعل أحدنا يجد عند الآخر نبأ يكشف الغمة، ولا حديث لنا جميعًا إلا عن المأساة التي ازدوجت وأطبق عليها اليأس بتنحي « جمال » عن مكانه.. وفي تلك الليلة، قلت لصديقي صالح جودت، ونحن نتحدث بالتليفون: إن الأمل الباقي، هو أن يبقي جمال عبد الناصر في مكانه. وبعد منتصف الليل، عاود صالح جودت الاتصال بي، وتلا عليّ هذا المعني منظومًا في أنشودة تحمل صورة نداء إلى جمال، مطلعها:

قم واسمعها من أعماقي / فأنا الشعب / أبق فأنت السد الواقي / لمني الشعبْ / ابق فأنت الأمل الباقي / لغد الشعب / ابق فأنت حبيب الشعب

وأملي على كلمات الأنشودة بالتليفون، وأيقظت «رياض السنباطي»، وأمليتها عليه بالتليفون أيضًا.. ولم ينم السنباطي ليلته.. وفي الصباح، كان قد انتهي من تلحينها.. وبعد يوم واحد سجلتها وقدمتها الإذاعة للجماهير.. جماهير ٩ و١٠ يونيه.. التي خرجت عن بكرة أبيها، في حلكة الإظلام، وتحت وابل من قنابل العدو، تطالب ببقاء جمال عبد الناصر».

ويقول محمد الدسوقي: «كانت صدمتها أكبر.. غرقت في الحزن، حبست نفسها في حجرة بدروم الفيلا.. أطفأت النور، وربطت رأسها بمنديل لعله يخفف الآلام.. لا تحدث أحدًا.. ولا تأكل.. لكنها بعد فترة خرجت من البدروم.. وسمعتها تقول:

لازم نلم البلاد العربية حوالين مصر».

يشدد أحمد شفيق كامل على أنها كانت شخصية مخيفة في امتيازها.. شئ عملاق بلا حدود، خاصة في هذه المرحلة، يقول: «عظيمة في كل شئ متعلق بفنها.. الإعداد.. البروفات.. الحفلة.. وإذا انتهت من كل هذا نجدها الإنسانة الريفية البسيطة الساذجة بنت طماي الزهايرة.. أيام النكسة كان كل مصري عنده إحساس بالعجز.. وكأن خنجرًا مغروسًا في قلبه.. بالطبع كان طعم المرارة أكبر في حلوق الفنانين الذين تغنوا للثورة وبها.. أما هي فكانت «حاجة مش معقولة».. تسأل.. تتصل بكل الناس كي تعرف إيه اللي ممكن يتعمل.. يا فلان..ياعلان.. نعمل إيه؟..أنا مش عايزة الاقتراحات اللي أنا أعرفها.. عايزة اقتراحات ثانية ..هكذا قالت لي».

قدمت على الفور لحنها: «أبقي فأنت الأمل الباقي لغد الشعب».. وقدمت: «قوم بإيمان وبروح وضمير / دوس على كل الصعب وسير».. وذلك في محاولة لاستنهاض الهمم، وكسر شوكة اليأس.

جاء هذا في محاولة منها للإبقاء على كمية الرنين الصادح في الغناء، الذي يقول عنه الناقد والمؤرخ الموسيقي فرج العنتري:

«كان الرنين صادحًا في أغاني البلد قبل النكسة.. حيث الصياغة من حيث البناء والموضوع تقوم على الـ «نحن»، وأمل الجميع في تحرير الأرض والعرض.. والحض على ممارسة الصمود والاستنزاف..غير أن الملاحظة تكمن بعد النكسة في دخول ثلاثة روافد في النشاط الغنائي.. الأول: رافد التماسكيين في عمليات تحركهم الناجح بالنغمة العربية.. من حنجرة أم كلثوم في سفرياتها الدورية إلى مختلف عواصم العرب لإثبات استمرارية الوجود الكلي للعرب بفاعلية، وعلي كل ساحة الوطن الكبير من المحيط إلى الخليج، ورافد الهروبيين الذين صدمتهم النكسة بقوة فوق طاقتهم الغضروفية، فلجأ بعضهم إلى الهروب النفسي من بيئة الحادثة وسيرتها

بالاغتراب بالتعامل مع أغاني الديسكو الآتية من لغات أجنبية.. أما الرافد الثالث فتمثل في لجوء البعض إلى ممارسة نوع آخر من الاغتراب باستهلاك «العدويات» في تنغيم وترقيص اللامعقول من الألفاظ والأسماء والحروف.»

وجهة نظر العنتري، تطرح سؤالا هو ،كيف تربعت أم كلثوم على رافد التماسكين؟.

يجيب أحمد شفيق كامل: «رفعت أم كلثوم بعد النكسة شعار «الفن من أجل المجهود الحربي»، وقالت: «لن يقفل لي جفن وشعب مصر يشعر الهزيمة»، وجاء هذا اتساقًا مع جهود عبد الناصر لإصلاح ماتم، ورفعه شعار «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة»، وشعار «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة».

طافت أم كلثوم عواصم المحافظات المصرية، وعواصم الأقطار العربية لهذا الغرض..وذهبت كل الحصيلة المالية إلى المجهود الحربي. في المنصورة حققت إيرادًا قدره ١٢٥ ألف جنيه، وفي دمنهور ١٣٥ ألف جنيه، وفي الإسكندرية ١٠٠ ألف، وفي طنطا ٢٨٣ ألف جنيه.

خارج مصر.. جابت البلاد العربية، وذهبت إلى باريس، ثم موسكو في حفلة لم تتم.. كان استقبالها في كل العواصم في حفاوته لا يقل عن استقبال الرؤساء.. بدءًا من حرص الحكومات العربية على أن يكون في استقبالها مسئول رسمي... انتهاء بخروج الجماهير الغفيرة لاستقبالها.

غنت في تونس بحضور رئيسها آنذاك الحبيب بورقيبة.. وفي المغرب بحضور العاهل المغربي الراحل الملك الحسن الثاني، وفي الخرطوم بحضور كل القيادات السياسية السودانية.. نفس الأمر في لبنان وليبيا، وأبو ظبي والكويت.. في باريس قال الرئيس الفرنسي الراحل شارل ديجول: «لمست معها أحاسيسي وأحاسيس الفرنسيين جميعًا»...وحققت من هذه الحفلات ٢١٢ألف جنيه استرليني ذهبت جميعها إلى المجهود الحربي.. إلى جانب ذلك كانت تجمع التبرعات التي وصلت إلى

مئات الالآف من الدولارات.. وفي الكويت مثلًا كانت كل التبرعات للمجهود الحربي من سبائك الذهب.. جمعت ٣٥ كيلو من الذهب الخالص..كان هذا يتم في الوقت الذي يستمع فيه الجنود على الجبهة إلى رسالة يومية بصوتها عبر الإذاعة.

ذهبت أم كلثوم إلى هذه البلاد تسبقها تلقائيتها، ووطنيتها، وعشقها لمصر وعروبتها.. سألتها الإذاعية الراحلة سلوى حجازي أثناء رحلتها إلى فرنسا: ما هو المكان المفضل لك في باريس؟

أجابت بلغة عامية بسيطة: المسلة لأنها من عندنا.

أثناء زيارتها للخرطوم.. سألتها الإذاعية الراحلة أماني ناشد عن انطباعاتها عن السودان وأهله؟

أجابت: السودانيون دول أهلنا.. إحنا وهم إخوان؛ لأننا إحنا الاثنين أولاد النيل.

وأبدت أماني ناشد ملاحظة حول طريقة أكل السودانيين للأرز في إحدى الحفلات الرسمية التي أقيمت على شرف سيدة الغناء العربي الزائرة، حيث كان السودانيون يقومون بتكوير الأرز بين أصابعهم بطريقتهم التقليدية ثم يقذفون به إلى الفم.

قالت أم كلثوم: وإيه الغريب في كده.. ما أنا كنت بأكله بنفس الطريقة في طماي الزهايرة.

ويؤكد الكاتب الراحل يوسف الشريف أحد أبرز الصحفيين المصريين الذين تخصصوا في الشأن السوداني والذي رافق أم كلثوم في رحلتها للسودان على أن غناءها في الخرطوم كان حدثا ثقافيًا مقدرًا يفوق كل إنجازات أجهزة الإعلام، والثقافة والدبلوماسية المصرية منذ استقلال البلدين في الخمسينات.

ويتذكر الشريف: «عايشت السيدة أم كلثوم عن قرب على مدي أسبوع كامل عندما دعتني إلى رفقتها خلال رحلتها الغنائية في السودان في إطار مشروعها القومي لجمع الأموال العربية الخاصة بإعادة بناء الجيش المصري إثر نكسة ١٩٦٧م، قلت لها

ونحن في طريقنا جوًا إلى الخرطوم : أن أهل السودان لا يحبون أغاني الهجر والصد، والفراق، ولا يطيقون الاستسلام طويلا للأخزان والنكد والخصام، لأنهم يعشقون المرح، والغناء، والرقص، وأفراح الحب، ونشوة اللقاء، وقلت لها: إن أهلنا في السودان ينتشون طربا للغناء، وغالبًا ما يمارسون أسلوب «الشيل» أي: ترديد الغناء والتصفيق وراء المطرب وأن وجدانهم مزيج بين العربية والأفريقية.»

أخذت أم كلثوم بنصيحة الشريف الذي يستكمل شهادته قائلاً: «وهكذا حين وقفت أم كلثوم على المسرح القومي في أم درمان اعتمدت أسلوبًا جديدًا وغير مسبوق في غنائها، إذ برغم أن أغنياتها طويلة زمنيا وبطيئة الإيقاع إلا أنها نجحت بذكائها، وحضورها الطاغي، وحسها المرهف في السيطرة على مشاعر المستمعين وجذبهم إلى تذوق أنغام سلم الموسيقي العربية الخماسي البطئ، وأعفت السودانيين من ممارسة عادة «الشيل» عبر ترديد كوبليهات أغنياتها وراءها، وقنعوا باستعادة إيقاعاتها السريعة الراقصة، بل إنها كانت غاية في السعادة والترحيب بجمهور المستمعين في الترسو عندما اهتزت أجسامهم طربًا ونشوة ورقصًا».

ويتذكر الشريف: «لذلك كتبت عن لياليها الخالدة في الخرطوم تحقيقًا بعنوان: «أم كلثوم تسودن أغانيها»، وذلك أن أغنياتها كانت ولأول مرة مزيجًا بين السلم الخماسي في الموسيقي السودانية، والسلم السداسي في الموسيقي العربية، وأحسن الظن أنه كان تزاوجًا لا فراق بعده أثمر هذه المشاعر التاريخية التي وحدت بين الوجدان المصري والسوداني عبر صوتها الساحر» .

ويري الشريف :« زيارة أم كلثوم وغناؤها في السودان كان حدثا ثقافيا مقدرا يفوق كل إنجازات أجهزة الإعلام والثقافة والدبلوماسية المصرية منذ استقلال البلدين في الخمسينات».

تبقي حفلتها في باريس على مسرح «الأوليمبيا» أكبر مسارح فرنسا، نموذجًا في

الوطنية مهما كان الثمن.. كان مدير المسرح «بيرونوكوكاتديس» يهوديًا، وحين انتهت الوصلة الأولي، اندفع إليها أثناء الاستراحة.. يطلب منها أن تمنع مقدم الحفل الإذاعي الراحل جلال معوض من حديثه أثناء تقديمه لها، والذي أشار فيه إلى تحرير القدس، وحتمية الانتصار على إسرائيل، وتحرير كل الأراضي العربية المحتلة، واعتبر كوكاتديس أن هذا الكلام لا يصح؛ لأن الحفلة فنية، وليست مناسبة وطنية.. لم تهتز أم كلثوم من هذا الكلام، بل رفعت رأسها في شموخ وهي تجلس على الكرسي، وقالت له: إنها مناسبة وطنية، وإن ما تفعله مرتبط بقضية بلادها، وإن ما جاء بها إلى باريس ليس الغناء، وإنما واجب وطني يقوم به الفن في أوقات المحن، وزادت في قولها: أنا طلبت من مقدم الحفل جلال معوض أن يقول ما قاله، وإمعانا في التأكيد على موقفها، أضافت أم كلثوم لمدير المسرح: إذا كان حديث مقدم الحفل لا يروق لك فأنت غير مجبر على قبوله.. وبإمكاننا إلغاء الحفل، وإشارت إليه بأنه تحله من كل الالتزامات المبرمة في العقد الموقع بينهما، ثم التفتت إلى أعضاء فرقتها الموسيقية قائلة: «لموا الآلات يا أولاد».

تراجع كوكاتديس على الفور حين شاهد إصرار أم كلثوم، وتصميمها على موقفها مهما كان الثمن، وقالوا لها: «سيدتي ليكن لك ما تريدين» وعلي الفور عاد صوت جلال معوض يقدم الوصلة الثانية، مؤكدًا حتمية تحرير الأرض المحتلة، والانتصار على إسرائيل.

كان الكاتب الصحفي محمد سلماوي طرفًا في هذه القضية في مرحلة توقيع العقد معها.

يقول سلماوي: جاء كوكاتديس صاحب مسرح «الأوليمبيا .» أشهر مسارح باريس ليعرض على أم كلثوم تقديم حفلتين غنائيتين عليه، وكان هذه أثناء قيامها بتقديم الحفلات في بلاد العالم، وتحويل دخلها لصالح المجهود الحربي.. طلبت

أم كلثوم من كوكاتديس أعلي أجر دفع في هذا المسرح الذي غنت عليه أسطورة الغناء الفرنسي إديث بياف، وكذلك إيف مونتان، وشارل أزنافور، وجوليت جريكو وغيرهم، والذي كان يعتبر أعلي محطة فنية في الرحلة الفنية لأي مطرب فرنسي.

يضيف سلماوي: قابلت أم كلثوم لأول مرة في نفس تلك الفترة، حيث كنت أحضر مع شقيقتي إحدي حفلاتها بسينما قصر النيل، وعلم شاعر الشباب أحمد رامي أثناء حديث معه أننا أحفاد جدي لوالدتي محمد شتا الذي توفي عام ١٩٤٦م، فأصر على أن يقدمنا لأم كلثوم، وما بين الوصلتين سحبنا أحمد رامي من أيدينا، ودخل بنا عليها، فقد كان - كما عرفت بعد ذلك - يهوي دائما البحث عن أي عذر ليدخل إليها أثناء الاستراحة، وقال رامي لأم كلثوم: إنهما أحفاد فلان.. هل تتذكرينه؟ فحيتنا تحية حارة.. وقالت: الباشا الكبير؟.. لا أنسي أبدًا أي إنسان كان له الفضل على .

كان محمد شتا كما يقول حفيده محمد سلماوي: رجل أعمال عصاميًا ترك عائلته في دسوق بكفر الشيخ، وجاء إلى القاهرة فصنع الملايين بساعديه وحده، وكان صديقًا حميمًا لطلعت حرب باشا، ومن هواة أم كلثوم، وسمع من طلعت حرب أنه بعد نجاح فيلم «وداد» عام ١٩٣٦م، يفكر استديو مصر في إنتاج فيلم جديد لأم كلثوم في العام التالي، وهو فيلم «نشيد الأمل».. فقال محمد شتا: بل يجب الشروع في هذا الفيلم فورًا، وقرر محمد شتا أن يتبرع بميزانية إنتاج الفيلم بالكامل لحساب الاستديو الذي أسسه صديقه طلعت حرب، وتم بالفعل إنتاج فيلم «نشيد الأمل» عام ١٩٣٧م، وظلت أم كلثوم تذكر هذا الجميل، حتى أنها أهدته إحياء حفل زواج كبري بناته إلى والدي.

يضيف سلماوي: حين قابلت برونوكوكاتديس في القاهرة، وعلم مني أنني قابلت أم كلثوم أخيرًا، رجاني أن أتصل بها تليفونيًا لأخبرها، بأنه قد وافق على جميع طلباتها

المتعلقة بالأجر، واتصلت بالرقم الذي أعطاه لي.. طلبت التحدث إلى السيدة أم كلثوم فجاءني صوتها الهادئ الوديع، فقد كان لها صوتان... الصوت الذي نعرفه في الغناء الهادر كالشلال، والذي يكتسح كل ما في طريقه، والصوت الذي يعرفه من يحادثونها، فصوت الكلام عندها كان دائمًا هامسًا رقيقًا.. وإن كان واثقًا من نفسه.

قلت لأم كلثوم: كنت سيادتك طلبت من مسيو كوكاتديس.

قاطعتني بسرعة: بل هو الذي طلب مني.

قلت: أقصد أنه كان لك طلبات محددة، وطلب مني إبلاغك أنه موافق عليها جميعًا.

وهكذا تحدد موعد للقاء صاحب «الأوليمبيا» مع أم كلثوم حيث تم توقيع العقد بأعلى أجر دفعه المسرح حتى ذلك التاريخ، وقد كان لأم كلثوم بعض الطلبات الأخرى، مما يختص بأعضاء فرقتها الموسيقية وإقامتهم في باريس، وتمت الاستجابة لها جميعًا.

كانت سبب لجوء كوكاتديس إلى سلماوي هو اللغة لتسهيل التفاهم مع أم كلثوم، حيث كان لا يتحدث إلا الفرنسية وبعض الإنجليزية، يقول سلماوي: لم تكن هناك مشكلة لغة بالنسبة لأم كلثوم حيث كان بإمكانها التحدث إلى كوكاتدس بالفرنسية، إذا أرادت.. فقد تمكنت ابنة قرية طماي الزهايرة من تعليم نفسها ليس فقط اللغة الفصحى والشعر الجاهلي، الذي كانت تعشقه، وإنما أيضًا اللغة الفرنسية بالقدر الذي يمكنها أن تتفاهم بها، وتعبر عما تريده، وقد لاحظ ذلك من صاحبوها في باريس، ومن بينهم الإذاعية الراحلة سلوى حجازي، والتي كانت تجيد الفرنسية كأهلها، لم تتحدث أم كلثوم مع كوكاتديس إلا بالعربية.. وكان عليه دائمًا أن يبحث عمن يترجم له ما تقوله «مدام أم» كما كان يسميها، فقد كان يتصور، أنه «أم» هو أسمها الشخصي، أما «كلثوم» فهو اسم والدها، ولم يكن يناديها إلا باسم «مدام أم».

يتساءل سلماوي: أليس في موقف أم كلثوم من لغتها العربية معني ما.. وهل لو كانت المطربة غير أم كلثوم كانت ستتمسك بلغتها؟!

لم يقف عطاء أم كلثوم في هذه المرحلة عند موقفها الحاسم بشأن ما قدمه جلال معوض على المسرح، أو تمسكها بلغتها العربية، رغم إجادتها الفرنسية، وإنما انتقل إلى أشياء بسيطة لكنها تحمل دلالات عميقة.

يقول سعد الدين وهبة: اتصلت من باريس بوزير الثقافة، د.ثروت عكاشة تخبره أن بحوزتها ٥٠٠ جنيه إسترليني، وكان أجرها قد تم تحويله إلى المجهود الحربي.. قالت لثروت: إذا كانت الوزارة تحتاج إلى عملة صعبة لشراء أي شئ، فسوف أعطي لكم الـ ٥٠٠ جنيه الإسترليني، على أن توفروا لي بدلاً منها عملة محلية حتى أقدمها للقوات المسلحة.. وجمعنا ثروت عكاشة وأخبرنا بذلك، وقالت: أم كلثوم وفرت لنا العملة الصعبة وشوفوا ممكن نشتري إيه في حدود المبلغ الذي أخبرتني به.

كانت أم كلثوم تواصل جولاتها وحفلاتها وجهدها لأجل مصر في الوقت نفسه لا تكف في أي قول عن إبداء قلقها على عبد الناصر.. قالت للكاتب محمد وجدي قنديل: إنني أخاف عليه من كثرة الضغوط والهموم التي يحملها فوق رأسه، وصدمة ٥ يونيو كانت عنيفة وكبيرة وهزتنا.. فما بالك بالزعيم الذي تحمل المسئولية وحده عما حدث.. وأضافت: «أنا أعرفه عن قرب، وأعرف أن يكتم كل شئ بداخله، ويحتفظ بأحزانه وآلامه لنفسه ولا يبوح بها.. إنه كبرياء الزعيم..وعندما سألت السيدة تحية عن حاله لأطمئن عليه أخبرتني أنه لا يتكلم في البيت، ويخلو إلى نفسه طويلًا في غرفة مكتبه المجاورة لغرفة نومه، ويواصل العمل ولا ينام قبل الفجر، ويصحوا مبكرًا لمتابعة الموقف ويباشر كل شيء بنفسه لإعادة بناء الجيش المصري.. هو صعيدي ولا ينسي ثأره ورد الاعتبار لبلده».. وأضافت لوجدي قنديل : «صدقني أنا خائفه عليه وقلبي معه.. وعندما طلبت منه الموافقة

على حفلات المجهود الحربي قلت له: أري أن أساهم بما أقدر عليه في المعركة وهو صوتي.. ورحب بموقفي وقلت له: يا ريس ده واجب وطني ويا ريت أقدر أحمل سلاح.. فضحك قائلًا: صوتك أقوي من المدافع».

وتقول في موضع آخر :

كنت أعرف أنه متعب القلب، ومع هذا فإنه يتحمل من روحه وجسده ما فوق طاقته لخدمة مواطنيه ورفعة شأن وطنه. وأمنت به وبما يفعل. وفي حدود طاقتي، حاولت أن أحذو حذوه. وأتخذ منه أسوة حسنة لهذا، أبيت أن أستسلم لليأس: النكسة. لم يكن أمامي إلا أحد أمرين فإما أن ألتزم الصمت، وأقبع في ركن من الانهيار النفسي أو أن أمضي بسلاحي – وهو صوتي – أبذل ما أستطيع من جهد من أجل المعركة.وأخترت الأمر الثاني.. أحسست بأنني أكون سلبية لو امتنعت عن الغناء.. وأحسست بأنني أقف وراء رسالة عبد الناصر، لو غنيت داخل الحدود، وخارج الحدود لأرفع صوتي باسم وطني، وأجمع ما أستطيع أن أجمع من عدة ومن عتاد من أجل المعركة، لعلي أرد بعض جميل مصر، وبعض جميل البطل الذي يحترق من أجل مصر، والذي كرم الفن أجمل تكريم، والذي زين صدري بأرفع وسام في الدولة وأعز قدري بجائزة الدولة التقديرية للفنون.. هذه الجائزة التي أحسست أن عبد الناصر لا يكرمني بها وحدي، وإنما يكرم بها جميع إخواني، خدام الفن ولهذا تبرعت بمنحها المادية لصندوق الفنانين.

وبهذا غنيت في كثير من المحافظات بعد العدوان.

ثم غنيت في ليبيا، وتونس، والمغرب، وفي السودان، ولبنان، والكويت، وباريس.

وكان آخر المطاف في موسكو..ذهبت لأغني لهؤلاء الأصدقاء الذين وقفوا معنا في المعركة.

ولم أكن أدري ما يخبئ القدر وأنا في موسكو.. إلا حينما أيقظني ابن أختي في

الصباح الباكر وهو يجاهد نفسه ويجالدها ليلمس الوسيلة التي يقول لي بها: أن عبد الناصر قد ذهب إلى لقاء الله.. وأن مصر قد فجعت في أعز ما تملك.

كانت موسكو هي محطتها الأخيرة في حفلاتها الأخيرة من أجل المجهود الحربي.. وجاءت البداية بحوار صحفي لها لصحيفة البرافدا.. الصحيفة الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفيتي.. والأولي هناك، وكان سعد الدين وهبة طرفًا رئيسيًا في هذه المحطة.

يقول سعد: ذات يوم اتصل بي مندوب جريدة البرافدا السوفيتية في القاهرة، وقال: إنه يريد أن يجري حديثًا صحفيًا مع أم كلثوم، وأن البعض دله على لأكون وسيطًا في هذا الطلب لأنه عرف أني أقابلها كثيرًا، وأكتب قصة حياتها، وقابلتها في نفس اليوم وأبلغتها برغبة مراسل البرافدا، وسألتني عن أهمية الصحيفة، فشرحت لها قيمتها في الاتحاد السوفيتي.. وسألتني هل أجريت حديثًا واحدًا فقط مع الرئيس عبد الناصر؟ ووافقت أم كلثوم وطلبت مني أن أحضر اللقاء وأذكر أنها حددت يوم الثلاثاء من نفس الأسبوع للمقابلة، وأبلغت الشاب الذي فرح فرحًا شديدًا، وطلبت منه أن يمر على بيتي لنذهب معًا إلى بيتها، وفي الموعد المحدد قدمت لها المراسل، وجلسنا وسألتني عن اللغة التي يتحدث بها.

فأجبتها:

- يجيد الإنجليزية.

قلت ذلك وتأهبت لمغادرة البيت بعد أن انتهت مهمتي فإذا بها تقول:

- إنجليزي.. تبقي تقعد عشان تترجم.

وكانت المرة الأولى التي أعرف فيها أنها لا تعرف الإنجليزية رغم إجادتها للفرنسية إجادة تامة.

بدأ المراسل ينطق الأسئلة بالإنجليزية، وأترجمه إليها بالعربية ثم أسمع ردها

بالعربية لأترجمه للمراسل بالإنجليزية.

وفجأة وأثناء الحديث توقفت وسألتني بالعربي.

ـ أنا باعُكْ. (تعني أنها تقول أي كلام)

ورددت: بالعكس أنت بتقولي كلام رائع جدًّا.

عادت تسأل: طيب ليه الرد اللي أنت ترجمته بالإنجليزية أطول بكثير من الرد اللي أنا باقولوا لك بالعربي.

أفهمتها أني أطيل في الرد عن عمد حتى لا يفلت مني معني أو من المراسل.

ظهر عليها الاقتناع، واستمر الحديث، وأذكر أن آخر سؤال وجهه إليها المراسل:

ـ ماذا تفعلين إذا حققتم الانتصار على إسرائيل بالسلاح السوفيتي؟

أجابت بتلقائية مدهشة.

ـ أغني للشعب السوفيتي في شوارع موسكو.

ويبدو أن نشر الحديث بهذا الوضوح، لم يجعل القيادة السوفيتية تنتظر حتى يتحقق النصر، فقد وجهت الدعوة إليها كي تغني للشعب السوفيتي في موسكو وليس في شوارعها.



7

البكاء على أكتاف د. مراد غالب



كأن رحلة أم كلثوم إلى موسكو، ترتيب قدري لطريق حزن ستعيشه حتى رحيلها في فبراير عام ١٩٧٤م.. رحل عبد الناصر وهي هناك بعد أن أدى آخر مهامه القومية.. قطع أجازته المرضية في مرسي مطروح ليعود إلى القاهرة لرئاسة مؤتمر القمة العربية الطارئة لوضع حد لحقن الدماء التي سالت في العاصمة الأردنية بسبب القتال بين الأردن، ومنظمة التحرير الفلسطينية.

قبل رحلة أم كلثوم بفترة..كان عبد الناصر في نفس العاصمة للتفاوض مع السوفييت بشأن أسلحة جديدة للحرب ضد إسرائيل.. وفي صحيفة البرافدا قالت أم كلثوم رسالتها المغلفة بالأمنيات: «لو انتصر الجيش المصري بالسلاح السوفيتي سوف أغني في شوارع موسكو».

كان الدكتور مراد غالب هو سفير مصر في الاتحاد السوفيتي أثناء زيارة أم كلثوم، والذي أصبح وزيرا للخارجية فيما بعد، وكان السفير وفاء حجازي وزيرا مفوضا في موسكوّ، وساهم في الإشراف على ترتيب الزياة ومرافقة أم كلثوم حتى عودتها من موسكو إلى القاهرة دون غناء.. يستدعي وفاء حجازي ذكريات هذه الأيام المؤلمة قائلًا:

شهدت هذه الفترة نموًا عاليًا في العلاقات الثقافية المصرية السوفيتية.. وكانت وزيرة الثقافة السوفيتية مهتمة جدًا بتنمية العلاقات بين البلدين في هذا المجال، كما لعبت شخصية الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة المصري آنذاك، دورًا حيويًا في ذلك، وكان قادة العمل الثقافي السوفيتي يعرفون قدره، ويحبونه كثيرًا، ويعلمون أنه فنان محب للموسيقي، قبل أن يكون وزيرًا، ومن وقت إلى آخر كان يوجهون إليه دعوات لمشاهدة الجديد من الإنتاج الفني هناك.. ما زلت أذكر دعوته لمجرد مشاهدة بروفات بعض أعمال البالية على مسارح موسكو.

في هذا السياق جاءت دعوة السوفيات لأم كلثوم.. والمبادرة كانت من السوفيت

أنفسهم.. يقول حجازي: «كانوا يعلمون قدرها جيدًّا، وقيمتها الغنائية العظيمة لدي الجماهير العربية، بالإضافة إلى اهتمام عبد الناصر بها الذي اعتبرها سفيرة له ولمصر خاصة في المرحلة التي تلت نكسة ١٩٦٧م.. تم الاتفاق على أن تقوم أم كلثوم بإحياء أربع حفلات في مناطق متعددة في الاتحاد السوفيتي شملت مناطق تحب الموسيقي العربية بفضل تواجد الإسلام فيها مثل طاجكتسان، وكازاخستان، وطشقند بالإضافة إلى حفلة في موسكو».

يضيف حجازي: كنت أمارس مهام دور السفير بدلًا من الدكتور مراد غالب الذي كان خارج موسكو لبضعة أيام.. وبهذه الصفة التقيت بوزيرة الثقافة السوفيتية لكي نشرف سويًا على برنامج الزيارة، وكانت رسالة من القيادة السياسية في مصر تم إرسالها إلى القيادة السياسية السوفيتية، تطلب فيها معاملة خاصة لأم كلثوم شأنها في ذلك شأن أي مسئول سياسي مصري كبير تستقبله موسكو.. كما كانت التعليمات تأتينا أولًا بأول من القاهرة: بأن نضع أنفسنا كسفارة تحت تصرفها.. كان كل شيء يتم ترتيبه بدقة كبيرة.

وأذكر أن وزيرة الثقافة السوفيتية طلبت مني إبلاغ أم كلثوم قبل حضورها إلى موسكو نصيحة عدم غنائها في مسرح البولوشوي، والمتفق عليه من البداية، بسبب اتساعه، كما أنه معد في الأصل ومجهز لعروض الباليه، واقترحت الوزيرة بدلًا منه قاعة تشايكوفسكي كبديل، لأنها معدة للموسيقي والغناء، وافقت أم كلثوم على الاقتراح.. كما طلبت وزارة الثقافة أيضًا الأغاني التي ستقدمها لترجمتها إلى الروسية.. وأذكر أن قصيدة « أراك عصي الدمع » لأبي فراس الحمداني، كانت ضمن الأغاني التي ستقدمها في طشقند.. وفشل مترجمو الوزارة من السوفييت في ترجمة معاني عبارة «أراك عصي الدمع»، وأحضرنا مبعوثًا مصريًا كان يدرس في موسكو لترجمتها.. ولما سألت أم كلثوم بعد ذلك عن سبب اختيارها لهذه الأغنية رغم صعوبة معانيها، قالت: إنها تناسب ذوق الجمهور المسلم في طشقند، وسوف يقترب منها الجمهور أكثر

حين يعرف أنها من التراث الشعري القديم.

لم يقتصر الاهتمام السوفيتي كما يقول حجازي على الجوانب الفنية فقط في الزيارة: وإنما امتد إلى كافة التفاصيل الأخرى.. نوع الأطعمة، ونوع المشروبات،وعدد المرافقين،و الأماكن السوفيتية التي ترغب أم كلثوم في زيارتها بالإضافة إلى الأماكن المحددة سلفًا من السوفييت.

كانت وزيرة الثقافة وكل الشخصيات الكبيرة في طاقم وزارتها في استقبال أم كلثوم في المطار، بالإضافة إلى طاقم السفارة المصرية، وعدد كبير من السفراء العرب، وقامت الوزارة بتنظيم حفل استقبال رسمي لها، كما نظمت السفارة المصرية حفل استقبال، وفي الحفلين حضر السفراء العرب ونجوم الفن والفكر والأدب من السوفييت.

يؤكد حجازي : كان الاحتفاء بأم كلثوم رائعًا على كل الأصعدة، ومن كل الذين أتاحت لهم الظروف أن يساهموا في تنظيم الاستقبال تمهيدًا لحفلاتها الفنية الأربع ، وكان مقدرًا أن يحضر هذه الحفلات حشد جماهيري كبير لن يقتصر على أبناء الاتحاد السوفيتي، بل سيكون من كافة الدارسين العرب، ومن بلاد العالم الثالث أيضًا، تقديرًا لهذه السيدة العظيمة، ليس بوصفها فنانة عظيمة وفقط، وإنما كمبعوث رسمي من شخص جمال عبد الناصر.

يسترجع وفاء حجازي ذكريات غير مباشرة قبل لقاء موسكو، ذكريات هي مخزون طبيعي بداخله نحو أم كلثوم شأنه في ذلك شأن أي عربي..

يقول: حين علمنا بأمر قدومها إلى موسكو قفزت أمامي كل ذكريات فنها ،كان حفلها الخميس الأول من كل شهر له مذاق ساحر لأسرتي.. أمي تجهز عشاءً خاصًا.. بينما يشتري أبي كل ما يلزم السهرة حول الراديو.. عشت هذه الهالة منذ الطفولة بين أسرتي.. وكان يتخللها أحاديث الذكريات من كل الذين يجلسون حول الراديو لاستماعها.. ذكريات السياسة والفن والثقافة..نسيان كل ما يتعلق بالهموم والمشاكل..

وظلت هذه الهالة حتى التحقت بالكلية الحربية، وتخرجت ضابطًا في الجيش، وبدأت في التردد على حفلاتها، وملاحظة معني الإعجاب المتبادل بينها وبين ضباط الجيش، فالمعروف عنها أنها كان تغني في الحفلات لجمهور يعرفها وتعرفه، وكان هذا جانبًا مهمًا في انطلاقها نحو الإبداع في الأداء، يزداد بريقه كلما كانت تغني في أي حفلة بين الضباط حيث القواعد الصارمة التي لا يمكن اختراقها وقت الاستماع إليها، سماع له طقوس خاصة، ومراسم غير قابلة للكسر أو الاختراق..كان الضباط بهذه الكيفية يقودونها نحو الإبداع في الأداء.. والتجلي منها.

ويري حجازي أن عبد الناصر كان واحدًا من ضباط الجيش، وبالتالي خضع لقاعدة الارتباط الخاصة بها شأنه في ذلك شأنه باقي الضباط.. وبعد أن قاد ثورة وتولي السلطة، وجدت فيه أم كلثوم ما في شخصيتها وهو أنها «بتاعة الناس»، و من منطلق أنه في السلطة..عثرت فيه على معني كلمة «الراجل بتاعنا».. أي الشاطر حسن الطالع من وسط الناس الغلابة الذي يحمل كل دقائقهم.. هذا نوع من الإحساس أو المعني لا يمكن تصنعه أو التلوين فيه.. ربنا خلق في شخصية عبد الناصر حاجات عجيبة.. عينه مع شكله مع جسمه..اتساق متكامل يوحي بالهيبة النافذة، وفي اعتقادي أن أم كلثوم أحبته كمواطن مصري أصيل كما أحبه كل المصريين البسطاء، لأنها مواطنة مصرية أصيلة طلعت من وسط الناس،والارتباط به كقائد أعطي لفنها لونًا اجتماعيًا مختلفًا، ولشخصيتها طعمًا مختلفا.. هي شعرت في مرحلة من المراحل بالزهو الوطني، والحماس، وبالتالي سخرت لسانها ليكون أداة من أدوات تعبير جمال عبد الناصر عن أحلامه، وأعطاها ذلك شحنة هائلة.

علي خلفية هذه الذكريات جاء تعامل السفير وفاء حجازي مع أم كلثوم في موسكو عن قرب، يقول: «وجدت فيها شخصية آسرة.. لا يخرج منها لفظ أو تصرف خارج الأصول.. وتتكلم بتلقائية عن ذكرياتها وتاريخها، ولا تخجل من ذكر

أي شيء فيه.. وبهذه الطبيعة الشخصية يشعر الإنسان معها، أنها ليست نجمة فريدة في مجالها، بل إنسانة أنت جزء منها، وهي جزء منك..وأن ما وصلت إليه لم يأته إلا بعد جهد وعرق ومعاناة.. كانت في جلستها لا تتجاهل أحدًا، وتشبك الناس في الأحاديث المشتركة، وتشارك بالاستماع والكلام، وبسرعة بديهة عجيبة، كنا على مائدة الغداء في منزل الدكتور مراد غالب، وفرضت على الحاضرين المرح بخفة دمها وشروقها، ولاحظت أنها أكلت قليلا، فقلت لها: «الأكل مش عاجبك» فضحكت قائلة: «أنا عمري ما قمت على سفرة شبعانة» وذكرتني بالحديث النبوي: «ثلث لطعامك، وثلث لشرابك»، وأضافت: «أنا باطلع على مسرح.. ولازم أترك مكان فاضي في معدتي».. وفي جلسات السمر لم تكن تسمح بأي كلام خارج على شخص عبد الناصر.. كنا في جلسة بنقول نكت، وكان معنا الصحفي الراحل كمال الملاخ.. ونبهها على نكتة كان المقصود بها جمال عبد الناصر، ففزعت وتضايقت كثيرًا.

يواصل حجازي سرد ذكرياته: جمعنا الفرح والحب في كل اللقاءات بها.. كنا نشعر أن مصر جاءت إلينا في موسكو.. جاءت في أهم شخصية فيها بعد جمال عبد الناصر.وعودتني على التبسط معها، أصابني البرد ذات مرة فداعبتني: «أنت جالك البرد، واللا انت اللي رُحت له ».

كان الجميع في هذه الحالة الاحتفالية والانشراحية لا يعكرها شيء، ورغم أن درجة حرارة موسكو كانت ١٦ درجة تحت الصفر، إلا أن قلوبنا الفرحة بوجود أم كلثوم كانت أقوي من أجهزة التدفئة في مقاومة لسعات البرد.

تناول الجميع العشاء في منزل وفاء حجازي، ثم تركتهم أم كلثوم لتذهب إلى الفندق للراحة، وبينما يجمع النقاش الحار كل الحاضرين.. دق جرس التليفون.. رفع وفاء حجازي السماعة.. لاحظ الجميع ارتباكه الشديد، وضياع لون وجهه.. وهروب صوته.. ثم خروجه خفيضًا: «جمال عبد الناصر مات».. انفجر الجميع في البكاء

الهستيري، ولطم الخدود، وانكفأت على الأرض الإذاعية اللامعة سامية صادق، والإذاعية أماني ناشد، والبكاء المر منهما لا يوقفه شيء.. أما وفاء حجازي فقد فشل هو الآخر في مقاومة دموعه.. حاول أن يحبس أحزانه أملًا في سيطرته على البكاء ورغم ذلك فشل، يقول: «كنت أجري إلى الحمام.. كلما غلبني الدمع.. وأفشل في السيطرة عليه.. كمية من الألم هائلة.. ألم موجع فيه لسعة نفسية لا يمكن وصفها ولم تفارقني أبدًا.. أشعر بها الآن وأنا أحدثك كل شيء كان مقبضًا على النفس والدموع قليلة عليه».

سادت الحيرة بين الجميع حول كيفية إبلاغ أم كلثوم بالخبر، ومن يستطيع القيام بهذه المهمة.

كان الكاتب الصحفي محمد الحيوان ضمن الوفد الإعلامي المرافق لأم كلثوم ممثلاً عن جريدة الجمهورية ، ويسجل هذه اللحظات الأليمة قائلًا :

«كنا نعرف جميعًا العلاقة بين عبد الناصر وأم كلثوم، ونعرف أن عبد الناصر كرمها، وأنها قدمت خير أيامها.. ومن يستطيع أن ينقل النبأ إليها.. عجز الجميع وتهربوا.. لكن كان لابدّ أن يصل النبأ، في الصباح دخل المهندس محمد الدسوقي على أم كلثوم.. كان وجهه غريبًا عليها.. إنه ابن شقيقتها ويلازمها باستمرار، وشكله اليوم يبدو مختلفًا عن الأمس.. عن كل يوم.. وجه قاتم».

يضيف محمد الحيوان :«سألته أم كلثوم: ماذا بك؟ تمسك بنفسه، وقال: بعض آلام المعدة جعلتني أسهر الليل، ثم خرج من غرفتها إلى غرفته المجاورة ليكمل بكاءه، دخل عليها رفعت الدسوقي.. قال لها: الريس مريض.. سكت، ثم أضاف: مرضه خطير..سكت، ظل على حال قول الكلمة ثم الصمت لمدة نصف ساعة.. وفي كل مرة تزيد لهفة أم كلثوم لمعرفة الباقي.. تحس إحساسًا لا تريد أن تصدقه.. تبعد عن خيالها كل محاولة يتسرب من خلالها إليها شيء لا تتصوره، وأخيرًا قال رفعت ما يعرفه».

ذهبت أم كلثوم في بكاء يدعوا إلى البكاء.. لزمت مقعدها في الصالون الملحق

بغرفتها ٤٨ ساعة متواصلة..دموع صامتة تتساقط تحت نظارتها السوداء.. وشهيق يهزها.. أصابعها تتشابك في نشيج متواصل.. لا تأكل شيئا.. لا تقول شيئًا.. ولا تفعل غير الصمت والدموع.. والمحاولات معها للكلام لا تنقطع.. لكنها لا ترد.

يقول محمد الحيوان: «ذهبت أنا وسامية صادق لتعزيتها، وعجزت عن الكلام أمامها.. وعجزت سامية عن التصرف، وتركناها لأحزانها وانصرفنا».

فتحت السفارة المصرية وكذلك السفارات العربية أبوابها لتلقي العزاء، وفي يوم تشييع عبد الناصر إلى مثواه الأخير في القاهرة في الجنازة الشعبية التي شارك فيها ٦ ملايين مصري.. وملايين خرجوا إلى الشوارع في كل البلاد العربية نظمت السفارة المصرية عزاء وصلاة غائب.

يقول السفير حجازي: ظلت أم كلثوم حبيسة حجرتها حتى يوم الجنازة، وكنت أتردد عليها بين الحين والآخر.. كانت نصفين..نصف مات فور تلقيه الخبر، ونصف يعيش للبكاء فقط.. وفي كل مرة أصعد إلى حجرتها، لا يجمعنا كلام سوي.. صباح الخير. السلام عليكم، فهي لم تكن تعطي فرصة الكلام لأحد.. ويهيأ لي إنه إذا لم يكن الإنسان في هذا الوقت سيبكي فراق عبد الناصر.. كان سيبكي حال أم كلثوم.

في يوم العزاء بالسفارة المصرية، انتظر الجميع مغادرة أم كلثوم لحجرتها،ويصف وفاء حجازي هذه اللحظات القاسية:

من لم ير أم كلثوم لحظة خروجها إلينا، ونحن ننتظرها في صالة الفندق، لم ير الحزن في صورته الحقيقية، أو كما تتحدث عنه الكتب.. اكتشفت وأنا أنظر إليها، أن عمرًا جديدًا أضيف إلى عمرها الحقيقي.. ذهب شروق الوجه وأصبح الفرق بينه وبين وشاحها الأسود التي تغطت به هشا.. وفي خطي متثاقلة كانت تنزل على درجات السلم وهي تستند على ابن أختها محمد الدسوقي، ولما وصلت إلى السفارة، وفور أن شاهدت الدكتور مراد غالب ارتمت في أحضانه، وراحت في بكاء مر،

استمع إليه الجميع.. لم يستطع غالب أن يملك نفسه فبادلها البكاء.. اقترب الكثيرون منها لمساعدتها في الوصول إلى مقعدها.. وبعد أن أدينا صلاة الغائب، اقتربت منها أواسيها رغم أن المصاب مصابنا جميعًا.. قالت لي: «بقينا يتامي يا وفاء.. نفسي أقرأ قرآن في العزا.. لكن خلاص صوتي بقي مش معايا».

يؤكد وفاء حجازي : شعرت مع حالة أم كلثوم أن أشياء جميلة ولي زمانها وراحت مع رحيل عبد الناصر، فكل تصرفاتها كانت توحي بأن رحلتها مع الغناء انتهت، وأن عمرًا من الجمال عشناه معها ذهب ولن يعود!!

يضيف وفاء: «انتظرت في موسكو ثلاثة أيام حتى موعد الطائرة التي ستقلها إلى القاهرة بعد إلغاء برنامج حفلاتها.. ولم نكن خلال هذه الأيام نتبادل من الكلام سوي ما يخص ترتيبات العودة التي كانت تنتظرها على أحر من الجمر، وكنا جميعًا في المطار لوداعها.»

عادت إلى القاهرة ، ويقول الكاتب الصحفي عادل حمودة في حلقات «الحب والحرب » والتي تكشف الخطابات المتبادلة بين جمال عبد الناصر وقرينته السيدة تحية وقت أن كان في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م :

« طلبت أم كلثوم نادية ابنة شقيق السيدة تحية كاظم زوجة جمال عبدالناصر في التليفون لتصحبها لتعزية تحية.. فهي على حد قولها «لا تستطيع وحدها ان تحتمل مواجهتها وهي في هذه الظروف».. وكان المشهد بين الصديقتين لا ينسي.. كانت أم كلثوم تعانقها وهي تبكي جمال عبد التاصر، وكأنها تبكي فقد ابنها.. بقيت تحية هي التي تزورها بانتظام، وعندما سافرت أم كلثوم للعلاج من متاعب الكلي بقيت تحية تتابعها دون توقف، وعندما دعاها الله ولبت النداء كانت تحية هي التي تتلقي فيها العزاء دون أن تمسك دموعها، وكان أهل أم كلثوم وأقاربها هم الذين يواسونها.. لقد راح الموت يأخذ منها أكثر الناس قربا لها .

8

ودارت الأيام



كانت الأحزان موزعة على الجميع.. ذهبت أم كلثوم إلى عزلة في بدروم أحزانها، وفي منزل جمال عبد الناصر بمنشية البكري كانت هناك عملية جرد لخزينة القائد الذي رحل فقيرًا إلى الله ، وكانت أم كلثوم الحاضر الغائب في عملية الجرد.

يحكي سامي شرف مدير مكتب جمال عبد الناصر في كتابه: «عبد الناصر كيف حكم مصر؟ » أنه وبعد رحيل عبد الناصر، وبحضوره، جاء أنور السادات، ومحمد أحمد السكرتير الخاص لعبد الناصر، والسيدة الجليلة تحية كاظم، وأبناء عبد الناصر خالد، وهدي، وزوجها حاتم صادق، ومني وزوجها أشرف مروان، وتم فتح الخزينة الخاصة بجمال عبد الناصر، وبعد إحصاء «الفلوس» الموجودة وتسجيلها في محضر رسمي، واعتبارها من أموال الدولة، شاهد الجميع على الرف العلوي في الجهة اليسرى للخزينة، كتابًا كبير الحجم يشبه القاموس، وعلى الرف السفلي حقيبتان جلد في حجم ٤٠ سم، أو ٥٠ سم لونها بني فاتح، وكان بداخل الحقيبتين أول تسجيل من كل أغنية جديدة لأم كلثوم كان يرسلها عبد القادر حاتم وزير الإعلام إلى جمال عبد الناصر».

ويقول سعد الدين وهبه: ظلت لأيام طويلة في عزلة تامة، لا ترد على التليفونات، أو تجلس مع أي إنسان، أو تصرح بأي شيء، وكان البكاء فقط هو التعبير الوحيد عن أحزانها، وكل من راقب حالتها في مثل هذه الأيام تصور أنها لن تغني مرة ثانية.. وأن صفحة الفن ربما انطوت تمامًا من حياتها، وتم تأجيل حفلتها الشهرية أكثر من مرة حتى يتاح لها فرصة لاختيار قصيدة تبدأ بها الموسم عن جمال عبد الناصر، وذلك من بين الخطابات والبرقيات العديدة التي وصلتها من كل الدول العربية، وبالفعل وقع اختيارها على قصيدة لنزار قباني، «رسالة إلى جمال عبد الناصر».

كتب نزار قصيدته في ٢٥ أكتوبر ١٩٧٠ ونصها :

« **والدنا جمال عبد الناصر :**

عندي خطاب عاجل إليك ..
من أرض مصر الطيبة
من ليلها المشغول بالفيروز والجواهر
ومن مقاهي سيدي الحسين ،من حدائق القناطر
ومن ترع النيل التي تركتها ..
حزينة الضفائر ..
عندي خطاب عاجل إليك
من الملايين التي قد أدمنت هواك
من الملايين التي تريد أن تراك
عندي خطاب كله أشجان
لكنني ..
لكنني يا سيدي
لا أعرف العنوان»

أما ظهورها الأول في الحفلات بعد فجيعة رحيل عبد الناصر فكان في يوم الخميس الأول من فبراير عام ١٩٧١م أي بعد رحيل عبد الناصر بثلاثة شهور، وقدمت في حفلها، أغنية «ودرات الأيام»، وأثناء الأغنية، انسابت دموعها مع الكلمات.. يتذكر سعد الدين وهبه: « «حدث شرخ في صوتها، ولم تستطع مقاومة البكاء، وابتعدت عن الميكروفون، لكن الجمهور استمع إلى بكائها، ونزلت الستارة لتغطي على هذا المشهد المأساوي»، يضيف سعد: تذكرت عبد الناصر وهي تردد «ودارت الأيام/ وقابلته/ ونسيت إني خاصمته/ وسامحت عذاب قلبي وحيرته / معرفش إزاي أنا كلمته » وكان هذا المقطع كما أخبرتني قد سمعه عبد الناصر منها حين كان يطمئن منها قبل رحيله

على ألحانها الجديدة، وما سوف تقدمه في حفلاتها المقبلة».

كانت الحفلة وما حدث فيها تأكيدًا لاعتقاد من قالوا : إن أم كلثوم ماتت فنيًا بموت جمال عبد الناصر.. هذا ما يقوله الكاتب والسيناريست محفوظ عبد الرحمن: الذي ظل شهورًا طويلة يبحث ويقلب في سيرتها لكتابة مسلسل (أم كلثوم)، الذي حاز على إعجابا جماهيريًا بالغًا من المحيط إلى الخليج ، ويضيف محفوظ :« لو كان الأمر بيدي كاملًا في المسلسل، لتوقفت في سيرة حياتها عند اليوم الذي حملت فيه الملايين نعش جمال عبد الناصر».

أما عمار الشريعي فيتذكر قائلاً : «احترفت الموسيقي قبل شهور من حفلة أغنية «ودارت الأيام» في فبراير ١٩٧١م.. وكنت بصحبة أصدقاء لي نستمع إلى هذا الحفل، ولما حولت الغناء في الكوبليه الأخير إلى موال، بكت، وابتعدت عن الميكروفون.. لكن البكاء طلع، فصفق الجماهير بجنون.. وقلنا جميعًا في صوت واحد.. هي افتكرت عبد الناصر، و في اليوم التالي للحفل قال الناس نفس ماقلناه ، وهذه الواقعة أكدت لي موتها فنيًا، ورغم ذلك كان لابد لها من مواصلة الغناء في السنوات الأربع التي عاشتها من بعده، فلو اتخذت قرارًا بالاعتزال فور رحيل عبد الناصر، كان الأمر سيعني موت قيمة من أكبر وأجمل القيم التي زرعها عبد الناصر، وسيكون هذا لدي الشعب المصري وزرًا لن يغفره لها ،ويقطع عمار بالقول «كان لازم أحد غير عبد الناصر يدفعها إلى الاعتزال، أو تبقي حتى رحيلها».

كان الموت بمعناه الآخر يلاحق أم كلثوم التي عاشت ملكًا متوجا في ظل الثورة.. اختلف الأمر بمجيء أنور السادات ..يقول محمد حسنين هيكل: بعد وفاة عبد الناصر أحست بصدمة كبيرة جدًا، أثرت فيها كثيرًا أحداث ١٩٦٧، ولكنها لم تتراجع بل اندفعت تغني أكثر للمعركة، لكن بعد وفاة عبد الناصر أحست بنوع من اليتم ككثير من المصريين والعرب، وفي يوم من الأيام كنا «معزومين» عند سيد

مرعي، وكان نائب رئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب في مصر، وكان شخصية مرموقة ومهمة، والذي رأي هذه الحادثة عدد محدود لا يزيد على العشرة أشخاص، المهندس سيد مرعي وحرمه، أخوه مرعي مرعي وحرمه؛ أنا ومراتي، الرئيس السادات وحرمه، يضيف هيكل: اللي حصل أن السادات جاء يومها «لابس» بليزر أسود وقميص أبيض، أم كلثوم نظرت إليه، قالت له: «إيه ده يا ريس أنت عامل أبيض وأسود زي الشجر في الضلمة».. ضحك السادات، لكن حرمه تضايقت، فخرجت واستدعت حرم سيد مرعي، ويبدو أنها كانت متضايقة، وبعد ذلك استدعوا زوجتي، وأنا أيضًا طلعت للخارج، وقالت لي حرم السادات يرضيك هذا؟.. قلت: إنها تقول نكتة، بعد شوية مشوا، وانتهت المشكلة، وهذا الذي حصل بهذه الحدود.

ويضيف هيكل: كان هذا بداية المشكلة لكن تطورت الأمور، وأم كلثوم لم يكن لها مزاج للغناء بعد موت عبد الناصر، وبدأت صحتها تتدهور، ثم فكرت في مؤسسة أم كلثوم الخيرية، والمشروع لم ينجح أو اعترض عليه بشكل أو بآخر، وماتت بعده بحسرة».

ولا ينسي هيكل التأكيد على أن أم كلثوم هي من أهم الشخصيات النسائية التي عرفها.. يقول: «أنت أمام سيدة عندها إرادة قادرة أن تثبت نفسها، لكن عندها إرادات أخري، أصيلة، صديقة، لما اختلفت مع الرئيس السادات، وكان اللقاء معه مشكلة.. تركته وذهبت، هو عينني مستشارًا له، وقلت أنني لن أذهب، ثم أحالني للتقاعد، لكن كان واضحًا لأي إنسان أنه بداية خلاف، قلت تصريحًا جاء فيه: «إنني استعملت حقي في إبداء الرأي، والرئيس السادات استعمل حقه في إقصائي عن الأهرام، واعتبر هذا شرخ.. «إزاي لأحد أن يقف هذا الموقف أمام رئيس الجمهورية».. رغم ذلك جاءتني.. ولم أجد رجالًا كثيرين مثلها.. ورأيتهم أمام

السياسيين والسلطة بنوع من الانكسار، أم كلثوم لم يكن لديها انكسار بوجه السلطة».

وصف هيكل لأم كلثوم بأنها «لم يكن لديها انكسار بوجه السلطة».. توصيف يبعث على التأمل في مسيرة هذه السيدة.. أو بالأدق هو تلخيص في وصفه لها، فهي بدأت الغناء مع الملك فؤاد، وتعاطفت شأنها شأن باقي المصريين مع سعد زغلول.. وركبت سلم المجد في عصر فاروق، لكنها تعاملت معه بنوع من الذكاء السياسي، وكلما توافرت الفرصة لها للتأكيد على استقلاليتها فعلت.. وتوحدت مع عبد الناصر قولًا وفعلًا، ورأت فيه نموذج القيادة التي تحلم بها.. وبقدر ما كانت تخطو خطوة نحو نظامه السياسي.. كان النظام يخطو إليها خطوتين، وعلى الرغم من التقدير المتبادل تم ترشيحها لجائزة الدولة التقديرية عام ٥٩، ولم تحصل عليها إلا في عام ١٩٦٧م، والمؤكد أنها باتصالاتها كانت تعلم مبررات الرفض طوال السنوات الثماني، لكنها لم تشكُ لعبد الناصر وكانت قادرة على ذلك، حتى علم هو بالأمر بنفسه.. ليس هذا فحسب بل إنها حدثته في أمر اعتقال مصطفي أمين دون حساب أي مخاطر قد تحدث.. ومع السادات وحسب إجماع كل من عرفها أنها ماتت فنيًا بموت عبد الناصر، لم تتعامل مع السلطة الجديدة بسعي تحدي البقاء على أنها السيدة الأولي، كما تعاملت في عصر عبد الناصر، أو صاحبة العصمة كما تعاملت في عصر فاروق.

وعلى كل الأحوال، ورغم تأكيد هيكل على القصة المشار إليها سابقًا، إلا أن السيدة جيهان السادات، حرم أنور السادات تنفي حدوثها نهائيًا وتقول: «أم كلثوم ست ذكية وفاضلة ولم تخطئ أبدًا، حتى القصة هذه تخليك تحس أن أم كلثوم غلطت في أنور السادات، وأنا بأصلح لها، ده الكلام اللي بيتقال، أم كلثوم عمرها ما غلطت.. وكانت شديدة الذكاء، وكانت تحب أنور السادات جدًا، وتحبني جدًا.. أم

كلثوم وأنا باحبها وباحب صوتها وكنت أحضر حفلاتها، وفي آخر أيامها كنت أقرب الناس إليها».

حاولت أم كلثوم أن تضع كل جهدها في مشروع خيري ضخم بعد رحيل عبد الناصر يقوم برعاية اليتامي، وتلحق به دار سينما ومسرح، وتقدمت إلى الجهات الرسمية بالمشروع، لكنه نام في الأدراج، ودخل في سراديب.. في المقابل أعلنت جيهان السادات عن مشروعها المماثل «الوفاء و الأمل» وسخرت كل وسائل الإعلام في الدعاية له، بينما تحول الأمر عند أم كلثوم لنوع من الاستجداء في الحصول على الموافقات على مشروعها كما يقول سعد الدين وهبه، وتنفي جيهان السادات ذلك، وتعتبره مجرد كلام: «ليه؟ أحاربها؟ أنا أقول حقائق وليس مجرد كلام، بالنسبة لمشروعها اسأل - تقول للصحفي - في وزارة الشئون الاجتماعية ستجد أن جمعية الوفاء والأمل تم تسجيلها في سنة ١٩٧٢م وهذا مثبت في الدفاتر، جمعية أم كلثوم تم تسجيلها في سنة ١٩٧٣م، يعني بعدي مش قبلي، ثم أهاجمها ليه، ده أنا باحب الجمعيات الخيرية اللي تخدم بلدي، وأشجع الناس عليها، وأتمنى مش بس أم كلثوم، ألف واحدة غير أم كلثوم تعمل جمعية وتساعد بلدها.. هذه افتراءات لا أساس لها»..

يرد سعد الدين وهبة على ذلك.. «كان حمدي عاشور محافظًا للقاهرة، وكان صديقها، وكنت أنا وقتها عام ١٩٧١ رئيس الشعبة المحلية للاتحاد الاشتراكي في المحافظة، وعرض على المجلس تخصيص الأرض الخاصة بمشروعها وراء فندق ميرديان، ولكنني اعترضت، وقلت أن هذا ليس من حق المجلس بل يجب أن يذهب الموضوع برمته إلى مجلس الشعب، وكان هذا محل خلاف بيني وبين حمدي عاشور الذي أبلغها رفضي.. ومن جانبها لم تستكبر على الاتصال بي، وحدثتني في الأمر وشرحت لها وجهة نظري كاملة».. وكما يشير سعد الدين وهبه في روايته فإن

مشروع أم كلثوم بدأ التصدي للحديث عنه في عام ١٩٧١م، فيما يعني أن خطوات تسجيله رسميًا حسب رواية جيهان السادات استغرقت نحو عامين، كما لم يتم تسجيله إلا بعد تسجيل المشروع المماثل «الوفاء والأمل» لجيهان.

وفيما يبدو أن الأمر لم يقتصر على قضية المشروع الخيري، وإنما امتد إلى جوانب أخري لو وضعت جميعا في شريط واحد سوف تعطي ملمحًا مفيدًا.

يقول سعد الدين وهبه: عندما توفيت أم كلثوم، عام (١٩٧٤)، اقترحنا، واقترحت الصحف على محافظة القاهرة في ذلك الوقت، أن يطلق اسمها على الشارع الذي تسكنه وهو شارع (أبو الفدا).. وبعد أيام علمت من محافظ القاهرة أنه رجع لبعض أساتذة التاريخ، فرفضوا قائلين له: إن (أبو الفدا)، وأبا الفداء هو على بن أبي طالب كرم الله وجهه، ،ويضيف سعد: قلت للمحافظ: إنه قول مغلوط، وأن أبا الفدا مؤرخ للأيوبيين، بل وأكبر دليل على ذلك أن الذي يتأمل مسميات شوارع منطقة الزمالك سيجد أن أغلبية الشوارع فيها أطلقت عليها أسماء الأيوبيين صلاح الدين.. شجرة الدر.. أيبك.. الصالح أيوب. إلخ.

واقترح المحافظ أن يطلق اسم أم كلثوم على شارع «الجبلاية» وهو امتداد شارع أبو الفدا من كوبري الزمالك حتى كوبري الجلاء..يقول سعد: وافقنا جميعًا مرحبين.. وضعت المحافظة لافتة واحدة (علي استحياء) - طول الشارع الذي يمتد طوله لأكثر من ٢,٥ كيلومتر، وضعتها فوق حائط نادي الجزيرة، وعندما أنشأت نفقًا بين شارع أبو الفدا.. وشارع أم كلثوم وافتتحه فؤاد محي الدين رئيس الوزراء (مطلع الثمانينات) أسمته نفق أبو الفدا.. وعندما وضعت في منطقة الزمالك لافتات تشير إلى الطريق عادت تستخدم اسم الجبلاية منكرة أسم أم كلثوم، ومازالت هذه اللافتات موجودة حتى اليوم تحمل اسم شارع الجبلاية المعروف مع أنه ما زال وأصبح شارع أم كلثوم، والذي غير اسم الشارع وأعاد تغييره مرة

أخرى، هي محافظة القاهرة

هكذا تم التعامل معها في سنواتها الأخيرة، وألقي هذا بظلاله بعض الشيء على ما بعد رحيلها.. غير أنها وفي سنواتها الأخيرة وتحديدا بعد رحيل جمال عبد الناصر استمرت في علاقتها مع بيته، يقول د.خالد عبد الناصر: «لم تنقطع أم كلثوم عن زيارتها لنا في أي مناسبة».. ظلت هي كما هي.. منذ أن دخلت منزلنا لأول مرة، وحتى رحيلها.. تحمل لنا المعزة والود والتقدير، ونحن نبادلها نفس الشيء. وكما قلت: كانت صديقة مقربة للوالدة.. أضف إلى هذا أنها كانت صديقة للأستاذ هيكل ولزوجته، التقيت بها كثيرًا بعد رحيل الوالد.. آخر مرة كانت في منزل هيكل وجمعتنا جلسة طويلة ضمت والدتي وشقيقتي هدي، وأنا والأستاذ هيكل وحرمه، كانت في هذه المرة متألقة كعادتها، وكأنها استدعت كل جوانب الجاذبية في شخصيتها.. بساطتها.. خفة دمها.. سرعة بديهتها.

- سألت د. خالد:« هل غنت أم كلثوم في بيت عبد الناصر»؟

- أجاب :«لم تغن في بيت عبد الناصر.. فلم يكن عبد الناصر يقيم حفلات غناء في منزله، هي كانت صديقة لبيت عبد الناصر.



9

أم كلثوم تكتب

كيف تعرفت على عبد الناصر



لا أزال أذكر أجمل الذكري، المرة الأولي التي رأيت فيها جمال عبد الناصر.. كان ذلك في عام المأساة الكبرى في تاريخ الأمة العربية، مأساة فلسطين، سنة ١٩٤٨، حين هبت مصر للذود عن الأرض السليبة، وذهب الجيش إلى هناك، وكان على أبواب النصر، لولا أن دبرت له الدول الكبرى المؤامرة التي انتهت بخدعه الهدنة الأولي، ثم الثانية، فانقلب النصر إلى هزيمة، وحوصر أبناؤنا في الفالوجا حصارًا قاسيًا مريرًا أبدو خلاله ألوانًا أسطورية من البطولات في الصمود في وجه العدو، كانت مثار إعجاب العالم.

كنت أتتبع أنباء اخوتي وأبنائي أبطال الفالوجا يومًا بيوم، وساعة بساعة وقلبي معهم يخفق لهم في كل لحظة ويضرع إلى الله أن يؤيدهم في صمودهم العظيم إلى أن يردهم إلينا سالمين.

واستجاب الله الدعاء. وعاد أبطال الفالوجا إلى القاهرة، وعلى رأسهم قائدهم البطل، المرحوم السيد طه، الذي اشتهر يومئذ باسم «الضبع الأسود».. ودعوتهم جميعًا – جنودًا وضباطًا – إلى حفلة شاي في بيتي.. ووجهت الدعوة كذلك إلى وزير الحربية في ذلك الحين، الذي اتصل بي معتذرًا عن عدم استطاعته تلبية الدعوة،وأضاف أنه لا يري ضرورة لدعوة الجنود والضباط أيضا، واستغربت منطقه وقلت له: لقد وجهت إليهم الدعوة وانتهيت. وسأكون سعيدة بهذا اللقاء بهم فإذا شرفتنا بالحضور فأهلاً وسهلاً وإذا لم تستطع، فهذا شأنك..

وجاء الأبطال إلى بيتي، واستقبلتهم بدموع المصرية الفخور بأبناء مصر، وجلست بينهم وأنا أشعر أنهم أسرتي صميم أسرتي، اخوتي وأبنائي.

وأذكر يومئذ أنني أقمت لهم في حديقة البيت محطة إذاعة مصغرة، تذيع عليهم مال يطلبون من أغنياتي وقدم لي «الضبع الأسود» ضباطه وجنوده واحدًا واحدًا، وحدثني عن أصحاب البطولات الكبيرة منهم، وكان في مقدمة أصحاب هذه

البطولات، الضابط الشاب جمال عبد الناصر.. وشددت على يده وأنا أصافحه وأتأمل ما يتألق في عينيه من بريق الوطنية، وحدة العزم، وعمق الإيمان، وكان هذا هو أول لقاء لي بالبطل قبل أن يلعب دوره التاريخي في حياة مصر بأربع سنوات.

أما اللقاء الثاني، فكان يوم قيام الثورة بالذات.. كان المؤذن قد انتهي لتوه من أذان الفجر، حين اتصل بي ابن أختي – وكان يومئذ ضابطًا بسلاح الإشارة.. وقال لي.. أبشري.. لقد حقق الله سبحانه وتعالي الأمل الكبير الذي طالما كنت تحلمين به.. لقد قامت الثورة.. أسمعي الإذاعة.. كنت يومئذٍ أصطاف بالإسكندرية وهرعت إلى الراديو، وسمعت «أنور السادات» بصوته القوي المؤمن يبشر الناس بقيام الثورة ويتلو البيان الأول الذي خرجت مصر على صيحته تتنسم أنفاس الحرية.. كان شيئًا كالأحلام، بل أجمل من الأحلام، ونهضت على الفور، وأعددت عدتي للسفر إلى القاهرة.

اتجهت إلى مطار الإسكندرية وهناك وجدت بعض أعضاء الوزارة القائمة يومئذٍ – وزارة «نجيب الهلالي» – يتأهبون لركوب الطائرة لتذهب بهم إلى القاهرة.. وسألني أحد الوزراء. لماذا أنت ذاهبة إلى القاهرة؟.. قلت له بمنتهي الصرامة: قل لي أنت.. لماذا أنتم ذاهبون إلى القاهرة؟ قلت له هذا؛ لأنني كنت واثقه أنهم ذاهبون لعلهم يحاولون الوقوف في وجه القدر.

ولكن يد الله كانت فوق أيديهم، وبقيت الثورة، واستقرت في أعماق التاريخ، أما هم فقد ذهبوا مع الريح.

ونزلت من الطائرة، فذهبت إلى إدارة الجيش بكوبري القبة رأسا، لأهنئ الأبطال الثائرين على الظلم والبغي والطاغوت، الذين وثبوا ليضعوا نهاية تاريخية لعهود الظلام وكنت أتصور، وأنا أتسرب إلى مبني إدارة الجيش، أنني لن أعرف منهم واحد.. ولكني عندما قلبت عيني في وجوه هؤلاء الأبطال، لم ألبث أن تبينت أنني أعرف من بينهم تلك الوجوه الحبيبة المؤمنة.. وجوه أبطال الفالوجا الذين احتفيت

بهم في بيتي منذ أربع سنوات، وفي طليعتهم وجه «جمال عبد الناصر» وتصافحنا للمرة الثانية، وقد إزداد في عينيه هذه المرة بريق الإصرار على النصر.

وعدت إلى بيتي في القاهرة، واتصل بي الأستاذ الشاعر أحمد رامي، وسألته أن يعجل بنظم تحية أقدمها للثورة، فنظم لي الأغنية التي مطلعها:

مصر التي في خاطري وفي فمي / أحبها من كل روحي مي / بني الحمي والوطن/ من منكمو يحبها مثلي أنا؟

وتابعت الثورة مسيرتها المنتصرة بقيادة «جمال عبد الناصر».. وتوالت الأحداث.. وخرج الإنجليز من مصر، وانكسر احتكار السلاح وأممت القناة، وقام العدوان الثلاثي وانتصرت مصر مرة أخري، وأقيم السد العالي.. إلخ.. وأنا أنفعل بهذه الأحداث حدثا وراء حدث وأترجم كل انفعال إلى أنشودة من أناشيد الثورة وهي خير ذخر أعتز به في حياتي.. ومنها «منصورة يا ثورة أحرار» و«طوف وشوف» و«يا حبنا الكبير» و«علي باب مصر».. إلخ.

غير أن هناك أنشودتين من بين كل هذه الأناشيد، أحسست بانفعال أعمق وأنا أغنيهما، وقد ظللت أستشعر عمق هذا الإنفعال كلما ذكرتهما.

الأولي: هي الأغنية التي غنيتها لجمال عبد الناصر يوم كتب الله له النجاة من الحادث الأثيم الذي أطلق فيه عليه الرصاص بالإسكندرية، يوم غنيت له «أجمل أعيادنا الوطنية بنجاتك يوم المنشية».

والثانية: عقب النكسة.. يوم أعلن جمال ذلك النبأ الأسود الذي انخلع له قلب مصر، بل قلب الأمة العربية كلها، نبأ تنحيه عن الحكم.

وكنت منذ الساعة التي تأكدت فيها أنباء النكسة، قد خاصمت النوم، ولم يعد لي هم بالليل ولا بالنهار، إلا أن أتفرغ لدموعي، وأتوجه إلى الله في صلاتي وضراعتي أن يمدنا ببصيص من الأمل في إنقاذ مصر.. فلما أعلن «جمال عبد الناصر» نبأ تنحيه عن الحكم،

فقدت الأمل في إطلاله هذا البصيص من الأمل، وكنت لا أفتأ اتصل بأصدقائي، وأصدقائي يتصلون بي، ليل نهار لعل أحدنا يجد عند الآخر نبأ يكشف الغمة ولا حديث لنا جميعا إلا عن المأساة التي ازدوجت وأطبق عليها اليأس بتنحي «جمال» عن مكانه.

وفي تلك الليلة، قلت لصديقي صالح جودت، ونحن نتحدث بالتليفون إن الأمل الباقي، هو أن يبقي جمال عبد الناصر في مكانه. وبعد منتصف الليل، عاود صالح جودت الاتصال بي، وتلا على هذا المعني منظوما في أنشودة تحمل صورة نداء إلى جمال، مطلعها: «قم واسمعها من أعماقي / فأنا الشعب / أبق فأنت السد الواقي / لمني الشعب / ابق فأنت الأمل الباقي / لغد الشعب / ابق فأنت حبيب الشعب».. وأملي على كلمات الأنشودة بالتليفون.. وأيقظت «رياض السنباطي»، وأمليتها عليه بالتليفون أيضًا.. ولم ينم السنباطي ليلته.. وفي الصباح، كان قد انتهي من تلحينها، وبعد يوم واحد سجلتها وقدمتها الإذاعة للجماهير.. جماهير ٩ و١٠ يونيه.. التي خرجت عن بكرة أبيها، في حلكة الإظلام، وتحت وابل من قنابل العدو، تطالب ببقاء جمال عبد الناصر.

وبقي جمال عبد الناصر. وعاد الأمل يطل علينا من جديد. لقيت جمال عبد الناصر قبل ذلك وبعده عشرات المرات، في مختلف المناسبات..وكان لا يفوته – رحمه الله – في كل حفلة أغني بها ويشهدها في «نادي الضباط» أو «جامعة القاهرة» أو غيرهما، أن يدعوني أثناء الاستراحة وتدور بيننا أحاديث طويلة عن الفن كان شديد الاعتزاز بالفن المصري قوي الإيمان بأن أهل الفن كتيبة عزيزة من كتائب المعركة، ترسي دعائم الوحدة الشاملة، وتؤصلها في نفوس العرب، وتحرك العزائم العربية ليوم عظيم تتغلب فيه هذه الأمة على أعدائها، وتحتل المكانة اللائقة بها في المجتمع الدولي، وتثبت أنها بحق خير أمة أخرجت للناس.

وكان جمال إنسانًا بكل ما في كلمة الإنسانية من معان سامية.. كان يري في ولده

«خالد» رمزًا لجيل الثورة، ويحس نحو كل ابن من أبناء هذا الجيل بنفس إحساسه نحو خالد، كلهم أولاده.. ويجب أن تتاح لكل منهم نفس الفرص المتاحة لخالد، حتى ينشأوا في جو من تكافؤ الفرص.. لا فرق بين ابن رئيس الجمهورية وابن أي مواطن آخر.. وهكذا يتجهون جميعًا نحو بناء مستقبل مصر بإخلاص وإيمان.. والواقع أن إيمان جمال عبد الناصر كان الأساس الأول لإنسانيته.. كان لا يفتأ بذكر الله في كل موقف، وكان لأغاني « رابعة العدوية » وقع خاص في نفسه لما فيه من تصوف وروحانية، وكثيرا ما كان يقول لأهل الفن، كلما التقي بهم في مناسبة من المناسبات أن أغاني رابعة العدوية يجب أن تكون نصب أعينهم دائمًا كأنموذج لمثالية الغناء.. وكان حبه للغناء والموسيقي دليلاً حيًّا على حسه المرهف إلى حد أنه كثيرًا ما كان ينكب على العمل في مكتبه، وهو يستمع إلى الغناء المنبعث هادئًا من ركن الغرفة، وكنت أشعر بالفخر، كل الفخر حين أسمع أنه يطلب أغنياتي فور تسجيلها في الإذاعة وقبل أن تذاع على الناس.

كنت أعرف أنه متعب القلب، ومع هذا، فإنه يدخل من روحه وجسده ما فوق طاقته لخدمة مواطنيه ورفعة شأن وطنه. وآمنت به وبما يفعل. وفي حدود طاقتي، حاولت أن أحذو حذوه. وأتخذ منه أسوة حسنة لهذا، أبيت أن أستسلم لليأس : وعندما وقعت النكسة.. لم يكن أمامي إلا أحد أمرين، فإما أن ألتزم الصمت، وأقبع في ركن من الانهيار النفسي أو أن أمضي بسلاحي – وهو صوتي – أبذل ما أستطيع من جهد من أجل المعركة. واخترت الأمر الثاني.. أحسست بأنني أكون سلبية لو امتنعت عن الغناء.. وأحسست بأنني أقف وراء رسالة عبد الناصر، لو غنيت داخل الحدود، وخارج الحدود لأرفع صوتي باسم وطني، وأجمع ما أستطيع أن أجمع من عدة ومن عتاد من أجل المعركة، لعلي أرد بعض جميل مصر، وبعض جميل البطل الذي يحترق من أجل مصر، والذي كرم الفن أجمل تكريم، والذي زين

صدري بأرفع وسام في الدولة، وأعز قدري بجائزة الدولة التقديرية للفنون.. هذه الجائزة التي أحسست أن عبد الناصر لا يكرمني بها وحدي، وإنما يكرم بها جميع إخواني، خدام الفن، ولهذا تبرعت بمنحها المادية لصندوق الفنانين.

وبهذا غنيت في كثير من المحافظات بعد العدوان، ثم غنيت في ليبيا، وتونس، والمغرب، وفي السودان، ولبنان، والكويت، وباريس.. وكان آخر المطاف في موسكو..ذهبت لأغني لهؤلاء الأصدقاء الذين وقفوا معنا في المعركة.

ولم أكن أدري ما يخبئ القدر وأنا في موسكو.. إلا حينما أيقظني ابن أختي في الصباح الباكر وهو يجاهد نفسه ويجالدها ليلمس الوسيلة التي يقول لي بها أن عبد الناصر قد ذهب إلى لقاء الله.. وأن مصر قد فجعت في أعز ما تملك.. ورحت أصرخ.. مصر.. وطني.. بلدي.. مصير بلدي..المعركة.. ما المصير.. يا رب.. لطفك يا رب..

وعدت من موسكو دون أن أغني.. عدت أسائل نفسي: هل أستسلم ليأس ثان كيأس النكسة..أو بنفس الإيمان الراسخ في أعماقي.. الإيمان الذي تعلمته من عبد الناصر.. أطرح اليأس وراء ظهري..وأمضي في طريقي.. أغني للنصر حتى يوم النصر..

عن مجلة الهلال أكتوبر ١٩٧١ .



بيان أغنيات أم كلثوم

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
ابتسام الزهر	عمر عارف القاضي	زكريا أحمد	١٩٣٦	أوديون
أتعجل العمر	أحمد شوقي	رياض السنباطي	-	-
إجمعي يا مصر	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٨	أوديون
أحبك وأنت مش داري	أحمد رامي	محمد القصبجي	-	غرامافون، ولم توّزع
إحنا وحدنا	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤٢	فيلم عايدة، محاورة مع إبراهيم حمودة
أخذت صوتك من روحي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون
أذكريني	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٩	الإذاعة
أراك عصيّ الدمع	أبو فراس الحمداني	عبدُه الحامولي	١٩٢٦	-
أراك عصيّ الدمع	أبو فراس الحمداني	رياض السنباطي	١٩٦٥	الإذاعة
أرض الجدود	أحمد العدواني	رياض السنباطي	١٩٦٦	الإذاعة
أروح لمين	عبد المنعم السباعي	رياض السنباطي	١٩٥٨	الإذاعة وصوت القاهرة

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
إسال روحك	عبد الوهاب محمد	محمد الموجي	١٩٧٠	الإذاعة، وصوت القاهرة
أصون كرامتي	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٨	فيلم فاطمة
الأطلال	إبراهيم ناجي	رياض السنباطي	١٩٦٦	الإذاعة
أغار من نسمة الجنوب	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٥٤	الإذاعة
أغدًا ألقاك	الهادي آدم	محمد عبد الوهاب	١٩٧١	صوت القاهرة
أفديه إن حفظ الهوي	ابن النبيه المصري	أبو العلا محمد	١٩٢٨	غرامافون
افرح يا قلبي	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٧	فيلم نشيد الأمل
أقبل الليل	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٦٩	صوت القاهرة
أقصر فؤادي	أحمد رامي	أبو العلا محمد	١٩٢٦	غرامافون
أقول لك: إيه عن الشوق	عبد الفتاح مصطفي	رياض السنباطي	١٩٦٥	صوت القاهرة
اكتب لي	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٣	الإذاعة، مفقودة
أكذب نفسي	بكر بن النطاح الحنفي	أبو العلا محمد	١٩٣١	أوديون

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
أكون سعيد	حسن صبحي	زكريا أحمد	١٩٣٢	أوديون
إلى عرفات الله	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٩٦٥	أوديون
اللي حبّك يا هنا	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
ألف ليلة وليلة	مرسي جميل عزيز	بليغ حمدي	١٩٦٩	الإذاعة
أمانًا أيها القمر	ابن النبيه المصري	أبو العلا محمد	١٩٢٨	غرامافون
إمتى الهوى	يحيى محمد	زكريا أحمد	١٩٣٦	أوديون
الأمل	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٦	الإذاعة
أمل حياتي	أحمد شفيق كامل	محمد عبد الوهاب	١٩٦٥	الإذاعة
أنا على كيفك		أحمد صبري التجريدي	١٩٢٦	أوديون
أنا في انتظارك	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٣	الإذاعة
أنا كنت أحب الشكوى إليك	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٤١	
أنا وأنت	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤١	مفقودة
أنا وأنت ظلمنا الحب	عبد الوهاب محمد	بليغ حمدي	١٩٦١	الإذاعة

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
أنت الحب	أحمد رامي	محمد عبد الوهاب	١٩٦٥	صوت القاهرة
أنت عمري	أحمد شفيق كامل	محمد عبد الوهاب	١٩٦٤	صوت القاهرة
إنت فاكرني	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣١	أوديون
إن حالي في هواها عجب	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون
أنساك يا سلام	مأمون الشناوي	بليغ حمدي	١٩٦١	الإذاعة
أنشودة الجلاء (يا مصر)	أحمد رامي	محمد الموجي	١٩٥٤	الإذاعة
أنظري	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٤	أوديون
إن كنت أسامح	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٨	غرامافون
إن يغب عن مصر سعد	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٧	غرامافون
الآهات (آه من لقاك)	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٣	الإذاعة
أهل الهوى	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	الإذاعة
أه يا سلام	حسن صبحي	زكريا أحمد	١٩٣٧	أوديون
أوبريت عايدة (الفصل الأول)	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤٢	فيلم عايدة

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
أوبريت عايدة (الفصل الثاني)	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٢	فيلم عايدة
أوقدوا الشموس	طاهر أبو فاشا	محمد الموجي	١٩٥٥	رابعة العدوية
الأولة في الغرام	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	الإذاعة
أيقظت في عواطفي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون
إيه اسَمّي الحب	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٣	الإذاعة
أيها الرائح المجدّ	الشريف الرضي	زكريا أحمد	١٩٣٥	فيلم وداد
أيها الفلك	أحمد رامي	محمد القصبجي	-	أوديون
بأبي ورحمي الناعمات	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٩٥٤	الإذاعة
بالسلام احنا بدينا	بيرم التونسي	رياض السنباطي	١٩٦٣	الإذاعة
برضاك يا خالقي	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	فيلم سلامة
بطل السلام	بيرم التونسي	رياض السنباطي	١٩٥٨	الإذاعة
بعد الصبر ما طال	بيرم التونسي	رياض السنباطي	١٩٥٨	الإذاعة
بعدْت عَنَّك بخاطري	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٨	غرامافون

الأغنية	المؤلف	اللحن	السنة	الشركة
البعد طال	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون
البعد علمني السهر	أحمد رامي	داود حسني	١٩٣١	غرامافون
بعيد عنَّك	مأمون الشناوي	بليغ حمدي	١٩٦٥	الإذاعة
بغداد (الشمس مالت)	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٩	فيلم دنانير
بغداد يا قلعة الأسود	محمود حسن إسماعيل	رياض السنباطي	١٩٥٨	الإذاعة وصوت القاهرة
بكرة السفر	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣٩	فيلم دنانير
بين ذلك الهوى	أحمد رامي	زكريا أحمد	-	-
بين عهدين	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤٩	الإذاعة
تائب تجري دموعي ندما	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطي	١٩٦٢	الإذاعة
تبعيني ليه	حسين حلمي المنسترلي	محمد القصبجي	-	-
تراعي غيري وتتبسَّم	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون
تشوف أموري وتتحقق	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون
التقل ليه يا مالك قلبي	-	أحمد صبري التجريدي	-	لم تسجَّل على إسطوانة

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
الثلاثية المقدسة	صالح جودت	رياض السنباطي	١٩٧٢	الإذاعة، وصوت القاهرة
ثوار ولآخر مدي ثوار	عبد الفتاح مصطفي	رياض السنباطي	١٩٦١	صوت القاهرة
ثورة الشك	عبد الله الفيصل	رياض السنباطي	١٩٦٢	الإذاعة
جددّت حبّك ليه	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٥٢	كايروفون
جنة نعيمي في هواك	-	داود حسني	١٩٣١	أوديون
جمالك ربنا يزيده	حسن صبحي	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
جمال الدنيا يحلالي	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٤٨	فيلم فاطمة
حانة الأقدار	طاهر أبو فاشا	محمد الموجي	١٩٥٥	رابعة العدوية
حب إيه اللي انت جاي	عبد الوهاب محمد	بليغ حمدي	١٩٦٠	الإذاعة
الحب كان من سنين	أحمد رامي	أحمد صبري التجريدي	١٩٢٧	الإذاعة وأدويون
الحب كده	بيرم التونسي	رياض السنباطي	١٩٦١	الأذاعة وصوت القاهرة
الحب كله	أحمد شفيق كامل	بليغ حمدي	١٩٧١	الإذاعة
حبّيت ولا بانش علي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٧	غرامافون

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
حبيبي يسعد أوقاته	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٣	الأذاعة
حديث الروح	محمد إقبال	رياض السنباطي	١٩٦٧	صوت القاهرة
حرّمت أقول بتحبيني	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤٠	أوديون
حّسن طبع اللي فتني	كامل الخُلَعي	داود حسني	١٩٣١	غرامافون
حسيبك للزمن	عبد الوهاب محمد	رياض السنباطي	١٩٦٢	صوت القاهرة
حقابله بُكره	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٦	فيلم فاطمة
حَكَم علينا الهوي	عبد الوهاب محمد	بليغ حمدي	١٩٧٣	صوت القاهرة
حلم (حبيب قلبي وافاني)	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٦	الإذاعة
حوّلنا مجري النيل	عبد الوهاب محمد	رياض السنباطي	١٩٦٥	الإذاعة
حيرانة ليه يا دموعي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٦	أوديون
حّيرت قلبي معاك	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٦١	صوت القاهرة

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
حيّوا الربيع *	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٥	فيلم وداد
خاصمتني	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣١	أوديون
خايف يكون حبك لي	أحمد رامي	أحمد صبري التجريدي	١٩٢٤	أوديون
الخلاعة والدلاعة	-	أحمد صبري التجريدي	١٩٢٦	أوديون
خلي الدموع دي لعيني	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٥٨	غرامافون
خيالك في المنام حلمي	أحمد رامي	محمد القصبجي	-	-
دليلي احتار	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٥٨	صوت القاهرة
ذكريات	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٥٦	صوت القاهرة
راجعين بقوة السلاح	صلاح جاهين	رياض السنباطي	١٩٦٧	الإذاعة وصوت القاهرة
رباعيات الخيّام	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٩	الإذاعة
رحلت عنك ساجعات الطيور	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣٩	فيلم دنانير
رق الحبيب	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤٤	كايروفون
روحي وروحك	حسين والي	دواد حسني	١٩٣١	أوديون

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
زارني طيف في منامي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون
الزعيم والثورة	عبد الفتاح مصطفي	رياض السنباطي	١٩٦٣	الإذاعة
زهر الربيع	محمد الأسمر	زكريا أحمد	١٩٤٥	-
الزهر في الرّوض	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٩	فيلم دنانير
سقط النقاب	عبد الفتاح مصطفي	بليغ حمدي	١٩٦٧	الإذاعة
سكت والدمع تلكم	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون
سلام الله على الحاضرين	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	فيلم سلامة
سلوا قلبي غداة سلا	أحمد شوقي	ريـض الستياطي	١٩٤٦	كايروفون
سلو كؤوس الطلا	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٩٤٦	الإذاعة
سهران لوحدي	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٥٠	الإذاعة
السودان (وقي الأرض)	أحمد شوقي	رياقض السنباطي	١٩٤٦	كايروفون
سيرة الحب	مرسي جميل عزيز	بليغ حمدي	١٩٦٤	الإذاعة
شجاني نوحي بكيت	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣٦	أوديون

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
شرّف حبيب القلب	أحمد رامي	داود حسني	١٩٣٠	غرامافون
شفت بعيني ما حدش قال لي	أحمد رامي	أحمد صبري التجريدي	١٩٢٦	أوديون
الشك يحيي الغرام	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٨	غرامافون
شمس الأصيل	بيرم التونسي	رياض السنباطي	١٩٥٨	الإذاعة
الصباح الجديد (رأيت خطاها)	محمود حسن إسماعيل	رياض السنباطي	١٩٦٥	الإذاعة
الصبّ تفضحه عيونه	أحمد رامي	أبو العلا محمد	١٩٢٤	غرامافون
صحيح خصامه ولاّ هزار	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون
صدق وحبك مين يقل	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون
صوت السلام	بيرم التونسي	رياض السنباطي	١٩٥٦	الإذاعة
صوت الوطن (مصر التي)	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٥٢	الإذاعة
طاب النسيم العليل	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٩	فيلم دنانير
طريقٌ واحد (أصبح عندي)	نزار قبّاني	محمد عبد الوهاب	١٩٦٩	صوت القاهرة
طلع الفجر ولاح	-	أحمد صبري التجريدي	١٩٢٦	أوديون

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
طوف وشوف	عبد الفتاح مصطفي	رياض السنباطي	١٩٦٢	صوت القاهرة
ظلموني الناس	بيرم التونسي	رياض السنباطي	١٩٤٨	فيلم فاطمة
عادت ليالي الهنا	أحمد رامي	زكريا احمد	١٩٣٨	أوديون
عرفت الهوي مذ عرفت هواك	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطي	١٩٥٥	رابعة العدوية
العزول فايق ورايق	حسن صبحي	زكريا أحمد	١٩٣٢	أوديون
عطف حبيبي وهناني	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤٢	فيلم عايدة
علي باب مصر	كامل الشناوي	محمد عبد الوهاب	١٩٦٤	صوت القاهرة
علي بلد المحبوب	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٥	فيلم وداد
علي عيني الهجر	أحمد رامي	أم كلثوم	١٩٢٨	غرامافون
علي عيني بكت عيني	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطي	١٩٥٥	رابعة العدوية
عودت عيني	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٥٨	الإذاعة وصوت القاهرة
عيني فيها الدموع	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣١	أوديون
عيني يا عيني	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	سلامة

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
غُلُبت أصالح	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٦	كايروفون
غني الربيع	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٦	كايروفون
غني لي شويّ شويّ	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	فيلم سلامة
فات الميعاد	مرسي جميل عزيز	بليغ حمدي	١٩٦٧	صوت القاهرة
فاكر لما كنت جنبي	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٩	الإذاعة
فضل لي إيه يا زمان	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٤٢	فيلم عايدة
فكّروني	عبد الوهاب محمد	محمد عبد الوهاب	١٩٦٦	الإذاعة
الفل والياسمين	-	أحمد صبري التجريدي	١٩٢٤	أوديون
فين العيون	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	أوديون
فين يا ليالي الهنا	-	زكريا أحمد	١٩٣٤	أوديون، لم توزع
في نور محيّاك	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	فيلم سلامة
قال إيه حلف	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٤	أوديون
قالوا أحب القس سلاّمة	علي أحمد باكثير	رياض السنباطي	١٩٤٤	فيلم سلامة

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
قالوا لي إمتي قلبك يطيب	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
قصة الأمس (أنا لن أعود)	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٥٨	صوت القاهرة
قصة السد (كان حلمًا)	عزيز أباظة	رياض السنباطي	١٩٦٠	الإذاعة
قضَّيت حياتي	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٧	فيلم نشيد الأمل
القطن فتَّح	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٤٢	فيلم عايدة
قلبك غدر بي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون
قلبي عرف	كامل الخلُعي	داود حسني	١٩٣١	غرامافون
القلب يعشق كل جميل	بيرم التونسي	رياض السنباطي	١٩٧٢	صوت القاهرة
قل للبخيلة بالسلام	-	أبو العلا محمد	١٩٢٨	غرامافون
قلي لي ولا تخبيش	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	فيلم سلامة
قمْ واسمعها من أعماقي	صالح جودت	رياض السنباطي	١٩٦٧	-
قولي لطيف ينثني	الشريف الرضي	زكريا أحمد	١٩٣٩	فيلم دنانير
قوم بإيمان وبروح وضمير	عبد الوهاب محمد	رياض السنباطي	١٩٦٧	الإذاعة

الأغنية	المؤلف	اللحن	السنة	الشركة
كل الأحبّة اتنين	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٢	مفقودة
كل ليلة وكل يوم	مأمون الشنّاوي	بليغ حمدي	١٩٦٤	-
كل ما يزداد	-	داود حسني	١٩٣١	غرامافون
كم بعثنا مع النسيم	إبراهيم حسني ميرزا	أحمد صبري النجريدي	١٩٢٦	كايروفون
كم بعثنا من النسيم	إبراهيم حسني ميرزا	أبو العلا محمد	-	مفقودة
كنت خالي لا حبيب	كامل الخلُعي	داود حسني	١٩٣١	غرامافون
كيف مرت على هواك القلوب	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٤	كايروفون
لاح نور الفجر	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤١	عيد جلوس الملك، ولم تُذع بعدئذ
لسه فاكر قلبي	عبد الفتاح مصطفي	رياض السنباطي	١٩٦٠	صوت القاهرة
لغيرك ما مددت يدا	طاهر أبو فاشا	كمال الطويل	١٩٥٥	رابعة العدوية
للصبر حدود	عبد الوهاب محمد	محمد الموجي	١٩٦٣	صوت القاهرة
الليل آهه طال	مصطفى نجيب	محمد القصبجي	١٩٣١	-

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
ليلة حب	أحمد شفيق كامل	محمد عبد الوهاب	١٩٧٣	الإذاعة
الليل يطّول ويكيدني	حسين حلمي المنسترلي	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
(غصبن عني)				
لما أنت ناوية تهاجريني	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٦	أوديون
لي لذَّة في ذلتي	نصر الله الدجاجي	أحمد صبري التجريدي	١٩٢٦	أوديون
ليه تلاوعيني	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٢	أوديون
ليه عزيز دمعي تذله	حسن صبحي	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
ليه يا زمان كان هواي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٥	فيلم وداد
ليلي ونهاري (لا يا حبيبي)	عبد الفتاح مصطفي	رياض السنباطي	١٩٦٥	صوت القاهرة
ما تروَّق دمك	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون
ما دام تحب بتنكر ليه	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤٠	كايروفون
ما كانش ظني في الغرام	يحيي محمد	زكريا أحمد	١٩٣٩	أوديون

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
مالك يا قلبي حزين اليوم	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣٢	أوديون
مالي فُتنت بلحظك	علي الجارم	أحمد صبري التجريدي	١٩٢٦	غرامافون
مثل الغزال نظرة	صفي الدين الحلّي	أبو العلا محمد	١٩٢٦	غرامافون
محتار يا ناس	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣١	أوديون
محلاك يا مصري	صلاح جاهين	محمد الموجي	١٩٥٧	الإذاعة
مشي المجد في يومه	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطي	١٩٥٩	الإذاعة
مصر (أنشودة)	إبراهيم ناجي	رياض السنباطي	١٩٦٩	الإذاعة
مصر تتحدث عن نفسها	حافظ إبراهيم	رياض السنباطي	١٩٥١	الإذاعة
(وقف الخلق)	-	-	-	-
الملك بين يديك	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٩٣٦	في تولّي فاروق سلطة الملك
من أجل عينيك	عبد الله الفيصل	رياض السنباطي	١٩٧١	صوت القاهرة
من أطلع الفجر الجديد	محمد الموجي	رياض السنباطي	١٩٦٦	-
منصورة يا ثورة أحرار	عبد الفتاح مصطفي	رياض السنباطي	١٩٥٨	الإذاعة
منّيت شبابي	أحمد رامي	محمد	١٩٣٧	فيلم نشيد الأمل

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
		القصبجي		
مين اللي قال	عبد الرحمن فياض	زكريا أحمد	١٩٣٦	أوديون
ناسيه ودادي وجافياني	أحمد رامي	زكريا أحمد	-	-
نامي نامي يا ملاكي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٧	فيلم نشيد الأمل
نشيد الجامعة	عبد الفتاح مصطفي	رياض السنباطي	١٩٣٧	فيلم نشيد الأمل
نصرة قوية	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٨	فيلم فاطمة وكايروفون
نورك يا ست الكل	بيرم التونسي	محمد القصبجي	١٩٤٨	فيلم فاطمة وكايروفون
النوم يداعب	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٦	أوديون
نهج البردة (ريمه على القاع)	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٩٤٦	كايروفون
النيل (من أي عهد)	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٩٤٩	كايروفون
هايم في بحر الحياة	أحمد رامي	محمد القصبجي	-	-
هجرتك يمكن أنسى	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٥٩	الإذاعة وصوت القاهرة
هذه ليلتي وحلم حياتي	جورج جرداق	محمد عبد الوهاب	١٩٦٨	الإذاعة وصوت القاهرة

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
هلّت ليالي القمر	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٦	الإذاعة
هوّ ده يخلّص من الله	بديع خيري	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
هو صحيح الهوي غلاّب	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٦٠	الإذاعة
والدنا جمال عبد الناصر»	نزار قباني	رياض السنباطي	١٩٧٠	الإذاعة في وفاة عبد الناصر
والله زمان يا سلاحي	صلاح جاهين	كمال الطويل	١٩٥٦	صوت القاهرة، نشيدًا وطنيا
والله ماحدش جني	-	أحمد صبري التجريدي	١٩٢٧	أوديون
وحقّك أنت المني	عبد الله الشبراوي	أبو العلا محمد	١٩٢٦	غرامافون
ودارت الأيام	مأمون الشناوي	محمد عبد الوهاب	١٩٧٠	صوت القاهرة
الورد جميل	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٨	فيلم فاطمة
الورد فتح	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٨	-
وفق الله على النور	محمود حسن إسماعيل	رياض السنباطي	١٩٥٨	الإذاعة
وقفت أودع حبيبي	أحمد رامي	فريد غصن	١٩٤٣	الإذاعة،مفقودة
ولحد إمتي ح تداري	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	غرامافون

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
وُلد الهدي	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٩٤٦	كايروفون
يا آسي الحي	إسماعيل صبري	أبو العلا محمد	١٩٣٥	فيلم وداد
يا بعيد الدار	عبّاس بن الأحنف	زكريا أحمد	١٩٤٤	فيلم سلامة
يا بهجة العيد السعيد	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٧	فيلم نشيد الأمل
يا جمال يا مثال الوطنية	بيرم التونسي	رياض السنباطي	١٩٥٤	في نجاة عبد الناصر في محاولة اغتياله بالإسكندرية
يا جمال يا مثال الوطنية	بيرم التونسي	رياض السنباطي	١٩٦٣	في انتخابه رئيسًا ولاية أخرى
يا حُبّنا الكبير	عبد الفتاح مصطفي	رياض السنباطي	١٩٦٥	في عيد الثورة
يا دارنا يا دار	أحمد العدواني	رياض السنباطي	-	لإذاعة الكويت
يا روحي بلا كتر أسية	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٨	غرامافون
يا ريتني كنت النسيم	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٦	غرامافون
يا ستي ليه المكايدة	أحمد رامي	أحمد صبري التجريدي	١٩٢٦	أوديون
يا شباب النيل	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٧	فيلم نشيد الامل

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
يا صباح الخير ياللي معانا	بيرم التونسي	محمد القصبجي	١٩٤٨	فيلم فاطمة وكايرو فون
يا صُحبة الراح	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطي	١٩٥٥	رابعة العدوية
يا صوت بلدنا	عبد الفتاح مصطفي	محمد الموجي	١٩٦٤	تحية للإذاعة
يا طول عذابي	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٦	الإذاعة
يا طير يا عيش أسير	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٥	فيلم وداد
يا ظالمني	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٥١	صوت القاهرة
يا عشرة الماضي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣١	أوديون
يا عين دموعك	أحمد رامي	داود حسني	١٩٣١	أوديون، لم توزع
يا غائبًا عن عيوني	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣١	أوديون
يا فايتني وأنا روحي معاك	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٩	أوديون
يا فؤادي إيه ينويك	أحمد رامي	داود حسني	١٩٤٢	أوديون
يا فؤادي إيه ينوبك	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤٢	فيلم دنانير
يا فرحة الأحباب	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣١	فيلم عايدة
يا قلبي بكرة السفر	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	فيلم عايدة

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
يا قلبي كان مالك	يحيي محمد	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
يا كروان والنبي سلم	-	أحمد صبري التجريدي	١٩٤٨	أوديون
ياللي إنت جنبي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٣	أوديون
ياللي انحرمت الحنان	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣١	فيلم فاطمة
ياللي تشكي مِ الهوي	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣١	-
ياللي جفاك المنام	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣١	أوديون
ياللي جافيت ارحم حالي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٩	كايروفون
ياللي رعيت العهود	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٦	أوديون
ياللي شغلت البال	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣١	أوديون
ياللي صنعت الجميل	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٧	فيلم نشيد الأمل
ياللي كنت يشجيك أنيني	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٩	كايروفون
ياللي ودادك صفالي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٥	فيلم وداد
ياللي وفي لك قلبي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٠	-

الأغنية	المؤلف	الملحن	السنة	الشركة
ياليلة العيد آنستينا	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٩	فيلم دنانير
يا ليل نجومك شهود	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣٥	فيلم وداد
يا ما أمر الفراق	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
يا ما ناديت من أسايا	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٦	أوديون
يا مجد يا ما اشتهيتك	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٧	فيلم نشيد الأمل
يا مسهرني	أحمد رامي	سيد مكاوي	١٩٧٢	صوت القاهرة
يا نجم مالك حيران	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٨	أوديون
يا نسيم الفجر	أحمد رامي	أم كلثوم	١٩٣٦	أوديون
يا ورد ياللي الندي	أحمد رامي	زكريا أحمد	-	-
يصعب علي (أحب أقول)	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٠	-
ينوبك إيه من تعذيبي	علي شكري	محمد القصبجي	١٩٣٨	مفقودة
يوم الهنا حبي صفالي	أحمد رامي	داود حسني	١٩٣١	غرامافون



مراجع

كتب

١- ملفات السويس محمد حسنين هيكل - الأهرام ١٩٨٦م.

٢- عبد الناصر فتحي رضوان - كتاب الهلال - يوينو ٩١.

٣-سامي شرف لعبد الله إمام عبد الله إمام - مدبولي الصغير - ١٩٩٦م عبد الناصر كيف حكم مصر .

٤- تراث الغناء العربي كمال النجمي - دار الشروق - ١٩٩٣م.

٥- كتاب: السبعة الكبار في الموسيقى تأليف فيكتور سحاب - دار العلم للملايين - بيروت مايو ٨٧.

٦- مجلة «الكتب.. وجهات نظر» مقال (محمد القصبجي) د.رتيبة الحفني عدد ١٣ فبراير ٢٠٠٠م.

٧- الفن في حياتنا فتحي غانم - روز اليوسف - يونيو ١٩٦٦م.

٨- محمد عبد الوهاب.. سيرة ذاتية لطفي رضوان - كتاب الهلال - يونية ١٩٩١م.

٩- هموم المسرح وهمومي د.علي الراعي - كتاب الهلال - يونية ١٩٩٤م.

١٠- مشواري مع عبد الناصر (مذكرات) د. منصور فايز - دار الهلال - عام ١٩٩١م.

١١- الديمقراطية ونظام ثورة يوليو ، طارق البشري - دار الهلال - ديسمبر ٩١.

١٢- أم كلثوم سعد الدين وهبة ـ الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما ـ سبتمبر ١٩٩١م.

١٣- المعممون في ساحة الغناء والطرب - عبدالنور خليل - كتاب الهلال - مصر - أغسطس ٢٠٠١م- العدد ٦٠٨.

١٤- الموسيقي الشرقية والغناء العربي، مع السيرة الذاتية للفنان عبده الحمولي - قسطندي رزق - مكتبة مدبولي - مصر - سلسلة صفحات من تاريخ مصر - عام ٢٠٠٠م - طبعة ثانية.

١٥- أم كلثوم معجزة الغناء العربي - مكتبة الأسرة - دار الشروق - مصر - ١٩٩٧م.

١٦- صوت مصر أم كلثوم - والأغنية العربية والمجتمع المصري في القرن العشرين - فرجينيا دانيلسون - ترجمة، عادل هلالي عناني - المجلس الأعلي للثقافة - مصر عام ٢٠٠٤ - طبعة أولى.

١٧- فؤاد الأول - المعلوم والمجهول - د. يونان لبيب رزق - دار الشروق - مصر - عام ٢٠٠٥م طبعة أولى.

١٨- ملك النهاية.. فاروق كما عرفته - مذكرات كريم ثابت - دار الشروق - مصر - طبعة أولي ٢٠٠٠م.

دوريات

١٩ ـ جريدة الجمهورية.. أعداد ٢, ٣, ٤ يناير ١٩٧٠م.

٢٠ مجلة الهلال (شهرية) أكتوبر ١٩٧١م.

٢١ ـ الأهرام أعداد ٥, ٦, ٧ فبراير ١٩٧٥م.

٢٢ ـ الأخبار أعداد ٥ , ٦ , ٧ فبراير ١٩٧٥م.

٢٣ ـ الجمهورية أعداد ٥ , ٦ , ٧ فبراير ١٩٧٥م .

٢٤ ـ مجلة الثقافة العربية (شهرية) المؤسسة العربية للصحافة ـ ليبيا ـ إبريل ١٩٧٥م.

٢٥ ـ مذكرات محمود الشريف ـ إعداد محسن الخياط.

٢٦ ـ مجلة الشاهد (شهرية) ـ قبرص ـ أعداد يناير ٨٩ حتى يناير ١٩٩٠م.

٢٧ ـ مجلة آخر ساعة ـ العدد ٢٤٠٤ ـ يناير ٢٠٠٠م.

٢٨ ـ جريدة العربي ـ محمد حسنين هيكل في حوار مع تلفزيون المستقبل اللبناني ـ ١٢ ديسمبر ٩٤.

٢٩ ـ الأهرام ـ ٧ مارس ١٩٩٧م.

٣٠ ـ الأهرام ـ ١٦ يناير ٢٠٠٠م.

٣١ ـ مجلة فن ـ عدد ٣٧٩ ـ بيروت ـ ٥ مايو ١٩٩٧م.

٣٢ ـ مجلة نصف الدنيا ـ ملحق خاص (ثومة ٦ فبراير ٢٠٠٠م).

٣٣ ـ جريدة القاهرة – العدد ٢٥٣ ١٥ فبراير عام ٢٠٠٥م – مقالات

- صلاح عيسي.. تعظيم سلام للوطن الذي أنجبك.. يا ست الكل.
- د. نبيل حنفي محمود – أسطورة حفلات الست.
- أحمد سعيد يتذكر أسرار كوكب الشرق مع إذاعة الثورة – حوار صحفي أجراه إبراهيم عبد العزيز.
- سيد حجاب يكتب.. أم كلثوم بين اليمين واليسار.

٣٤- مجلة المصور – عدد ٤ مايو ٢٠٠٥م.

٣٥ – حلقات الحب والحرب – الخطابات المتبادلة بين جمال عبدالناصر وقرينته تحية كاظم – صحيفة البيان – الإمارات – سبتمبر ، نوفمبر ٢٠٠٤م.

لقاءات خاصة:

٣٦ ـ تسجيل صوتي مع الموسيقار كمال الطويل ـ الثامنة مساء ١٥ يونيو ٩٦ ـ بمنزله بالزمالك.

٣٧ ـ تسجيل صوتي مع سعد الدين وهبة ـ الثانية ظهرا ـ ٥ يناير ١٩٩٧م ـ اتحاد الفنانين العرب.

٣٨ تسجيل صوتي مع الشاعر أحمد شفيق كامل الثامنة مساء ٧ مايو ١٩٩٧م ـ في منزله بالقصر العيني.

٣٩ ـ تسجيل صوتي مع الموسيقار عمار الشريعي السابعة مساءً ٢٠ مايو ١٩٩٧م ـ منزله بالمهندسين.

٤٠ ـ تسجيل صوتي ـ السفير وفاء حجازي ـ الثانية ظهرًا ـ النادي الدبلوماسي ١٥ مايو ١٩٩٧م.

٤١ – اتصال تليفوني.. عبد القادر حاتم وزير الأعلام الأسبق ٦ مايو ٩٧ السادسة مساءً.

٤٢ ـ تسجيل صوتي ـ الناقد والمؤرخ الموسيقي فرج العنتري الخامسة مساءً ٦ يناير بمنزله بالمهندسين.

٤٣– تسجيل صوتي ـ الدكتور خالد جمال عبد الناصر الحادية عشرة صباحًا ٢٠ فبراير ١٩٩٩م بمصر الجديدة.

٤٤ – تسجيلات خاصة لمذكرات الإعلامي أحمد سعيد، أول رئيس لإذاعة صوت العرب – عام ٢٠٠٠ بمنزله بالزمالك.

٤٥ ـ لقاء مع الكاتب والسيناريست محفوظ عبد الرحمن الثانية ظهرًا ـ ٩ فبراير ١٩٩٧ ـ المهندسين.

٤٦ ـ لقاء مع اللواء صابر عثمان ـ ضابط الحراسة الخاصة بعبد الناصر والمسئول عن أمن منزل عبد الناصر بعد رحيله ١٣ يناير ٩٧ ـ مدينة نصر.



الفهرس

الموضوع **صفحة**

